د.هيثم طلعت

الإلحاد يسمم كل شيء

تقديم / عبد الباسط قاري

نيو بوك للنشر والتوزيع

مشكلة الإلحاد حين يبحث عن التنقيح والضبط أنه ضد التقعيد والتأصيل ويتألى على الضبط، فكل تصحيح للمسار يُسمى ميتافيزيقيا، وكل معاندةٍ للهوى تصبح رد فعل إنساني متجاوز لا يليق بابن المادة، وكل تمرد على الحيوانية يصير تمحكا في ظلال الماوراء، أضف إلى ذلك أن مشكلة الإنسان في الجملة أنه كنود، يكره أن يحاسبه أحد أو يزجره عن هواه.

من أجل ذلك وجب بيان سُميّة الإلحاد!

وهنا يأتي هذا الكتاب الذي يضبط لك أوليّاتك العقلية ومسلماتك البديهية ثم ينقلك على أكف الراحة إلى أدلة الإيمان، مارًا بك على صراطٍ تُبصِر في قعره مغالطات الإلحاد لبديهيات المنطق ومُسلمات العلم فيستقر قلبك على ما أنت ساعٍ إليه وتطمئن خطواتك!

وفي النهاية تلج واحة الإيمان مطمئنًا بنور الهداية وطالبًا المزيد!

أسأل الله أن يصلح قلبك وينير دربك ويزيل همك.



الإلحاد يُسمم كل شيء

Atheism Poisons Everything

فهرسة أثناء النشر/ إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية. إدارة الشئون الفنية

سرور، هيثم طلعت علي
الإلحاد يُسمم كل شيء/ د. هيثم طلعت علي سرور. - القاهرة: نيو بوك للنشر والتوزيع/ ط ١/ القاهرة: ٢٠١٥م.
٣٨٧ص؛ ١٤،٥×٢٢،٥سم
تدمك: ٩٧٨-٩٧٧-٦٥١٩-٠٨-٤
رقم الإيداع: ٢٦٠٨٨/٢٠١٥
١- الإلحاد والملحدون
أ- العنوان
٢٤٩

دار النشر: نيو بوك للنشر والتوزيع
عنوان الكتاب: الإلحاد يُسمم كل شيء
الكاتب: د. هيثم طلعت علي سرور
رقم الطبعة: الأولى
تاريخ الطبع: ٢٠١٥



نيو بوك للنشر و التوزيع

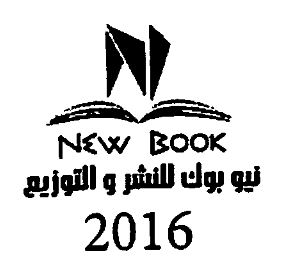
نيو بوك
٦ عمارات الدفاع الوطني - حدائق القبة - القاهرة
ت: ٠١٠٩٢٦٧٣٢٧٤
newbooknb@gmail.com

الإلحاد يُسمم كل شيء

Atheism Poisons Everything

الدكتور

هيثم طلعت علي سرور



نيو بوك للنشر و التوزيع

2016


بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ
وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ
وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ ۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ
أُبْسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْ ۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ
يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾ قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا
وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى
ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى
ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَأَنْ أَقِيمُواْ
ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ ۚ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى
خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ۚ
قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ ۚ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ
وَٱلشَّهَٰدَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾ ﴾

[سورة الأنعام: 70 - 73]

□□□

إن سنة الله في خلقه التكليف، وسنته في التكليف خفاء الحكمة، وسنته في الحكمة دقائقها، والفائزُ مَن استدل بما يعلم على ما خفي ودقّ، والخاسر من جعل مما يجهل حجابًا يحرمه من الاستدلال بما يعلم

□□□

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه وسلم أجمعين، وبعد...

فإن الصراع بين الخير والشر قائم إلى أن تقوم الساعة بإذن الله منها بين (الإيمان والكفر والشرك والتوحيد) ومع ظهور وسائل الاتصال الحديثة ومواقع التواصل الاجتماعي بالإنترنت ظهرت هجمات شرسة من منظمات إلحادية وأشخاص تبنوا عقيدة الملاحدة وقد تصدى للرد عليهم الكثير منهم الدكتور هيثم طلعت سرور، من مصر (حرسها الله)، وهو غني عن التعريف وقد ألف كتب نفيسة منها (موسوعة الرد على الملحدين العرب وكهنة الإلحاد) وغيرها من كتب ومقاطع فيديو عديدة على اليوتيوب وقد طلب مني الدكتور الإطلاع على كتاب (الإلحاد يسمم كل شيء) وقد ألفيته كتابًا علميًا قويًا نفسيًا فصّل فيه تاريخ الإلحاد والملاحدة هذا الوباء العصري (وما مثلي يقدم الكتاب للدكتور هيثم فمثله ولله الحمد غني عن تزكية مثلي) أسأل الله سبحانه وتعالى لي وله الإخلاص والقبول والثبات على دينه حتى نلقاه.

كتبه أخوكم

عبد الباسط توران قاري

إمام وخطيب جامع العمران بمكة
وعضو الجمعية السعودية لعلوم العقيدة والأديان

19/ 2/ 1437هـ - 1/ 12/ 2015م

المقدمة

باسم الله والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه؛ وبعد:

الخيال مجاني، والعقل ينفتح على ما لا حصر له من الإيرادات والتوهمات والخيالات والحقائق والهلاوس.

ويبقى معيار التميز بين الحقائق والهلاوس بقدر ما يحققه أي منهما من نجاحٍ في تحليل ظاهرة الوجود الإنساني!

وإذا استطعنا في هذا الكتاب إثبات أن الإلحاد يُسمم ظاهرة «الإنسان» نكون قد أثبتنا أن الإلحاد هلوسة وليس حقيقة!

وفي النهاية يظل العقل هو المعيار في انضباط ما نكتب، وما ينتهي إليه القارئ من قرار.

haithamsrour41@gmail.com

الفصل الأول

الإلحاد يُسمِّم كل شيء

الفصل الأول

الإلحاد يُسمِّم كل شيء

الإلحاد يسمم القيمة

داخل العالم المادي تسير الذرات في نسق ثابت لا يتخلف، ويدور الإلكترون حول النواة بسرعة ألف كيلو متر في الثانية الواحدة باضطرادٍ وانتظام[1].

ولا يترك الإلكترون مداره إلى الأعلى إلا بعد الحصول على قدرٍ من الطاقة ولا يعود إلى مداره إلا بفقدان طاقة، ولا يتحول العنصر إلى عنصر آخر إلا بعد التعرض لحرارة وضغط شديدين كما يحدث في أفران النجوم، ولا يتفكك إلى عناصر جديدة إلا بفقدان شديد للطاقة كما يحدث في الانشطار النووي، هذا يحدث في العالم الأصغر!

أما في العالم الأكبر فتدور الأجرام في نسق بيضاوي لا ينفك، ويمكن التنبؤ بالظواهر الطبيعية وبالكسوف والخسوف بعد مئات السنين بالساعة والدقيقة، ويمكن التنبؤ بمسار نيزك بعد آلاف السنين.

وهكذا تسود الحتمية المادية في كل شيءٍ من حولنا، وفي هذا الإطار يصبح الحديث عن المعنى أو القيمة أو الغاية حديثًا غير مفهوم، حديثًا

---

(1) http://www.britannica.com/EBchecked/topic/183374/electron.

لا ينتمي إلى هذا العالم المادي ولا يمكن ضبطه في إطار هذه الصرامة الحادة!

ولن يستطيع الإنسان أن يحصل على المعنى أو القيمة أو الغاية أو أن يستوعب شيئًا من هذه الأمور إلا بمددٍ من عالمٍ آخر وناموسٍ آخر ومقدمةٍ أخرى تمامًا، ولن يستطيع الإنسان أن يدرك معيارية وجوده إلا بقبسٍ لا يوجد في هذا العالم ما يبرهن على معناه.

ويمضي الإنسان في هذا العالم باحثًا عن المعنى والغاية والقيمة؛ لأنه يعلم وجود هذه الأشياء، ولأنه يستقر في وعيه معناها؛ ولأنه يدرك أنها معانٍ سلمية تمامًا.

وهذا يُقدم توكيد مستمر لمعنى وجود الإنسان في هذا العالم!

وفي مفارقةٍ نادرةٍ ومضحكةٍ في آن: لن يستطيع الإنسان أن يُلحد إلا لو استقر في ذهنه خطأ الإلحاد مسبقًا، فلولا وجود القيمة والمعنى والهدف والغاية والذين افتقدهم الملحد في دينه لما ألحد!.

ولولا معرفته بالخطأ والصواب والخير والشر، لما قرر أن إلحاده خيرٌ من دينه!

وهنا يصبح الإلحاد دليل على خطأ الإلحاد، ويصبح الكفر دليلاً على سقوط الكفر!

إنها مفارقة غريبة لكنها حقيقية، وعجيبة لكنها واقعية!

والإلحاد يمثل رؤية فلسفية متكاملة المعالم، ترفض الارتكان إلى أية قوة غيبية، لكنها فقط تُسلم بمعطيات العالم المادي! وفي هذا الإطار تختفي القيمة والمعنى والمعيارية لكل شيء في الوجود، وتسود الحتمية المادية

الصارمة كما فصّلنا، وهنا لن يستوعب العقل المعنى ولا القيمة؛ لأن العقل هو الآخر يتكون من نفس الذرات التي يتكون منها العالم المادي وتحكمه نفس الحتميات المادية التي تحكم كل ذرة في هذا الوجود المادي الصامت الخالي من الغاية والهدف والمعنى والقيمة.

وكما يقول المفكر الأيرلندي كليف لويس C. S. Lewis: «لنفترض أنها مجرد ذرات داخل جمجمتي تُعطي ناتجًا ثانويًّا يسمى فكرًا، إذا كان الأمر كذلك كيف أثق أن تفكيري صحيح؟ إنه مثل إبريق الحليب الذي عندما تخضه تأمل أن الطريقة التي تتناثر فيها بقع الحليب ستعطيك ذاتها خريطة لمدينة لندن، ولكن إذا لم أستطع أن أثق بتفكيري ولا أستطيع أن أثق في الحجج التي تؤدي إلى الإلحاد، وبالتالي لا يوجد سبب لأكون ملحدًا أو أي شيء آخر، إلا إذا كنت أؤمن بالله، لا أستطيع أن أؤمن في الفكر: بحيث لا يمكن أبدًا أن أستخدم الفكر لعدم الإيمان بالله»[1].

فالعالم المادي لا يُقدم لك ما يبرر لك حتى معنى تمردك، وقد عبّر ريتشارد داوكينز Richard Dawkins -عرّاب الملحدين في العالم- عن فقدان المعنى والقيمة والمعيارية في إطار الإلحاد فقال: «الكون في حقيقته بلا تصميم، بلا غاية، بلا شر ولا خير، لا شيء سوى قسوة عمياء لا مبالية»[2].

فالإنسان من منظور إلحادي هو مجرد نفاية نجمية، كما يقول اللاأدري الشهير كارل ساغان Carl Sagan.[3].

---

(1) http://www.britannica.com/EBchecked/topic/183374/electron.

(2) The universe we observe has precisely the properties we should expect if there is, at bottom no design, no purpose, no evil and no good, nothing but blind, pitiless indifference River out of Eden, p.131-132.

(3)Video Source: The Shores of the Cosmic Ocean [Episode 1]
Some part of our being knows this is where we came from. We long=

إذن النتيجة التي نخرج بها مما سبق أن: الإلحاد يُعيد كل شيء إلى الطبيعة؛ لأنها المركز الوحيد في هذا الوجود!

والطبيعة لا مبالية، ولا تحمل تفسيرًا في ذاتها!

وهنا يتوقف المعنى، أو بصيغة أدق: لا يمكن استيعاب المعنى؛ لأنه غير موجود، ولا يمكن استيعاب القيمة لأنها غير موجودة، ولا يمكن ضبط معيارية أي شيء؛ لأن كل ما سبق وبمنتهى الدقة أشياء ملوثة ميتافيزيقيًّا، أي مختلطة بتصورات ماورائية غيبية لامادية.

وبناءً على ذلك لا يمكن الحديث داخل هذا العالم الصارم الحتمي اللاغائي عن الحس الجمالي aesthetic أو الأخلاقي moral أو القيمي value-oriented، أو الإنساني anthropic أو الأدبي ethical، أو العاطفي emotional فقط تسود الحتمية المادية الصراعية اللاغائية الميكانيكية الصارمة mechanical.

ويصبح من المستحيل الدفاع عن القيمة الأخلاقية المطلقة، بل ومن المستحيل استيعابها أصلاً! ويعترف ريتشارد داوكينز بذلك قائلاً: «من الصعب جدًّا الدفاع عن القيمة الأخلاقية المطلقة على أرضية أخرى غير الدين»[1].

وإن كان الأصح أن يقول: من المستحيل معرفة معنى الأخلاق فضلاً عن استيعابها أو الدفاع عنها!

=to return. And we can. Because the cosmos is also within us. We're made of star-stuff. We are a way for the cosmos to know itself. 06 min 04 sec.

(1) It is pretty hard to defend absolute morals on grounds other than religious ones. The god Delusion, p.232.

فداخل العالم الإلحادي المادي الحتمي لا يمكن تخطئة هتلر، أو تبرئة المصلحين، وهذه العبارة الأخيرة لريتشارد داوكينز![1].

وداخل العالم الإلحادي تصبح أكبر الجرائم خالية من المعيارية والمعنى، وبالتالي لا يمكن انتقادها!

فيصبح الاغتصاب مجرد حركات عضلية متكررة بلا غاية ولا معنى، وتصبح كل الإبادات الشمولية بلا أدنى معيارية، فلا فرق بيولوجي بين إبادة أمة بأكملها وإبادة مستعمرات بكتيرية خلال عملية المضمضة!

يقول ريتشارد داوكينز: «اعتقادك بأن الاغتصاب خطأ أمر اعتباطي تمامًا»[2].

والأصح: لن تستوعب أصلاً أنه خطأ؛ لأن الخطأ كلمة غير موجودة في عالم تحكمه حتميات صارمة!

فكما أنه لا توجد ذرة تتمرد على خط سيرها، ثم تكتشف أنها أخطأت كذلك لا يوجد إفراز مادي لكلمة خطأ حتى يستوعبه الإنسان المادي بعقله المادي...

وكما أن الإلكترون لن تأتي عليه لحظة ويقرر أن يسير في عكس الاتجاه، ثم يخجل من ذلك ويعتذر عن خطأه ويعود لطريقه المستقيم، كذلك الإنسان الذي هو كومة من الإلكترونات لن يستوعب الخطأ ولا الخجل من الخطأ ولا معنى الخطأ!

---

(1) What's to prevent us from saying Hitler wasn't right? I mean that is a genuinely difficult question.
http://byfaithonline.com/richard-dawkins-the-atheist-evangelist/

(2) Your belief that rape is wrong is an arbitrary conclusion. From an interview with Justin Brierley of «unbelievable»

وداخل الإلحاد تصبح الإرادة الحرة مجرد وهم، وهذا لفظ سام هاريس Sam Harris أحد أعمدة الإلحاد الجديد في رسالته Free Will، إذ يقول: «الإرادة الحرة مجرد وهم»(1).

Free well is an illusion

والأصح: الإرادة الحرة لن نستوعب وجودها أصلاً، ولن نعرف معناها في عالم لا يفرزها ولا يتحرّاها!

وهذه الجبرية القاسية التي تفترضها الرؤية الإلحادية يُعبر عنها ريتشارد داوكينز قائلًا: «الشيفرة الوراثية لا تكترث ولا تدري، إنها كذلك فقط ونحن نرقص وفق أنغامها»(2).

هكذا يتحول الإنسان في العالم المادي الإلحادي إلى روبوت لا يمكن محاكمته أو ضبط قيمته، أو معرفة غاية وجوده، أو معنى تصرفاته، وينهار الإنسان وتنهار معه كل الآمال في عالمٍ أفضل، ويتسمم كل شيء وتتسمم القيمة، فالذين نسوا الله أنساهم أنفسهم ﴿نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ [الحشر: 19].

وفي هذه اللحظة المخيفة يُصبح إحراق الأطفال أمرًا لا يمكن استيعاب أنه خطأ، فضلاً عن النهي عنه، يقول آرثر ألين ليف Arthur Allen Leff أستاذ القانون بجامعة يال بالولايات المتحدة الأمريكية: «لا توجد طريقة لإثبات أن حرق الأطفال بقنابل النابالم هو شيء سيئ»(3).

---

(1) Free Will. P.5.

(2) DNA neither cares nor knows. DNA just is. And we dance to its music. River out Of Eden, p.133.

(3) there is today no way of 'proving' that napalming babies is bad Economic Analysis of Law: Some Realism about Nominalism (1974), p.454.

وهنا يغيب الإنسان عن الساحة وتسود أشباح مادية تتسمم معها كل قيمة في هذا الوجود!

الإلحاد يُسمم العلوم

عندما تحاور أحد الملحدين فإن الجملة المعهودة التي يبدأ حواره بها تكون كالتالي: أنا فقط أُسلم بالعلم التجريبي والمحسوسات، فلا تُعطني أدلة خارج هذا النطاق!

وهذه المقدمة هي أحد أصول الوضعية المنطقية Logical positivism وهي حركة فلسفية إلحادية نشأت في أواخر العقد الثاني من القرن العشرين[1].

وتنادي هذه الحركة بإبعاد جميع العلوم والمعارف التي لا يُمكن الاستدلال عليها من خلال التجربة الحسية المباشرة، فهي تحارب بشدة أية معرفة يتم رصدها بخلاف التجربة الحسية، كما سيأتي بيانه.

وهذا التأسيس الذي تطرحه هذه الحركة يتيح لها في مرحلة لاحقة أن تزعم أن الأدلة الدينية ليست من جنس الأدلة التي تريدها، فتُضيق خناق الأدلة حتى تُخرج منها كل دليل غير تجريبي غير حسي!

لكن في واقع الأمر تجارب الإنسان وخبراته أثرى وأغنى وأكبر بكثير من العلم الطبيعي التجريبي الحسي، فهل نحن مطالبون بأن نحذف من قواميسنا وجامعاتنا وأكاديمياتنا كل العلوم والمعارف التي لا تخضع لأدوات العلم التجريبي؟!!

---

(1) Michael Friedman, Reconsidering Logical Positivism (New York: Cambridge University Press, 1999) P.xiv.

إنه استبداد مريع لم نسمع عنه إلا إبان حكم الكنيسة على العلم واعتبار أن ما تملكه هو العلم وغيره هرطقة!

هل هذا غاية ما يريده الملحد من العلوم؟

ألا يدري الملحد أنه أخرج بذلك كل علوم الأخلاق والفلسفة والاجتماع والقانون والآداب وعلوم التاريخ وعلوم التاريخ الطبيعي- البيولوجيا Biology-، وعلوم عملاقة مثل علم النفس، واللسانيات، والاجتماع!

هل علوم التاريخ تخضع لأدوات العلم التجريبي؟

هل علوم الأخلاق والفلسفة والاجتماع وكل العلوم الإنسانية يمكن رصدها في الإطار الحسي؟

إن هذا الإطار الذي يريد أن يُقيدنا الملحد به يجعله في صدام مباشر مع أكاديميات علمية عملاقة يريد أن يغلقها فقط؛ لأنها لا تتناسب مع مقاييسه الخاصة.

أليست هذه لعنة Anathema على العلم والعلماء؟

أليس هذا تسميمًا مباشرًا لأغلب العلوم؟

ومن عجيب ما يُذكر أن مؤسس الفلسفة الوضعية المنطقية وهو ألفريد آير Sir Alfred Jules «Freddie» Ayer تنبه إلى أن هذه الفلسفة بالفعل تمحو أغلب العلوم وتجعلها لغوًا فارغًا، وأن العلوم الإنسانية الأصيلة مثل الأخلاق والمنطق تصبح بهذه المقاييس مجرد وهم! وهنا تراجع ألفريد آير عن فلسفته، وبدأ في الرد عليها من خمسينيات القرن الماضي.

لكن الهزة الكبرى التي قلبت طاولة الوضعية المنطقية كانت قبل وفاته بقليل، إذ عاين ألفريد آير تجربة الاقتراب من الموت Near-death

experience ورأى الاحتضار بأم عينيه، وأسر لطبيبه المعالج د.جيرمي جورج Dr Jeremy George بعد أن أفاق بكلماتٍ عجيبةٍ قائلاً: «لقد رأيت قوى إلهية غيبية، أخشى أني في طريقي لمراجعة كل كتبي وآرائي»(1).

هكذا كان تقرير مؤسس الوضعية المنطقية في لحظة تجاوز العالم المادي إلى عالم لم يكن يؤمن بوجوده يومًا ما ﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ (٨١) وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ (٨٢) فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ (٨٣) وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ (٨٤) وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ (٨٥)﴾ [الواقعة: 81 - 85].

واليوم تتعرض الوضعية المنطقية لضرباتٍ شديدة من الحركات المادية ذاتها قبل غيرها، فالمنهج ما بعد البنائي post-structuralist مثلاً يرى أن العلم التجريبي الحسي في قمة تجريبيته يقوم على فروض يستحيل التحقق منها مثل: معقولية الكون، وإمكان استيعابه، وانضباط قوانينه كحقيقة خارجية مستقلة!

وكلها مسلمات يقوم عليها العلم التجريبي وليس بإمكانه التحقق من شيءٍ منها، ولو اعتبرنا أنه لا حقيقة سوى المنهج التجريبي، فساعتها سيدمر المنهج التجريبي ذاته بذاته لاستحالة التحقق من الشروط التي قام عليها!(2).

وهذه حقيقة تضع المنهج التجريبي كله في حرج بالغ، يُضاف إلى ذلك أن مصدر المعرفة في العلم التجريبي هو العمل العقلي في مُدخلات

---

(1) «I saw a Divine Being. I'm afraid I'm going to have to revise all my books and opinions».
http://variousenthusiasms.wordpress.com/2009/04/28/did-atheist-philosopher-see-god-when-he-died-by-william-cash/

(2) http://www.princeton.edu/ ~achaney/tmve/ wiki100k/ docs/ Post -structuralism.html.

الحس والمشاهدة والتجريب -إذن لابد من العمل العقلي والأدلة العقلية-، وأساس العلم التجريبي هو البديهيات العقلية والمُسلمات المنطقية ثم يكون الاستقراء المعرفي بدرجاته، هذه بداية العلم التجريبي ونهايته.

فالذي يرفض الأدلة العقلية ويُسلم فقط بالأدلة الحسية التجريبية نقول له: وكيف تُسلم بصحة التجربة بدون عمل عقلي في مُدخلات الحس والرصد؟

فلا يُتخيل التسليم بالأدلة التجريبية دون تأسيس عقلي ومنطقي ورياضي ومعرفي وبديهة أسبقية A-Priori مستقرة في عقل الباحث أو العالم أو الفيزيائي[1].

فالأدلة المعرفية العقلية سابقة على الأدلة التجريبية، ولا ينضبط الدليل التجريبي بدون فروض مسبقة وبديهيات أولية.

وفوق هذا وذاك؛ لم يعد الدليل التجريبي إلا وجه من وجوه الأدلة وليس كل الأدلة... وإلا فكما قلنا سابقًا ما مصدر القيمة الأخلاقية؟ وما مصدر الحِس الفني؟ وما مصدر الحس الجمالي؟

يقول الملحد الداروينى المتعصب ريتشارد داوكينز Richard Dawkins: «أنا ضد الداروينية ولا أُطيقها حين يتعلق الأمر بحياتنا»[2].

فلا تستطيع الحركات التجريبية المادية الوضعية أن تمدنا بالقيم المعرفية الأخلاقية، ولا أن تضبط معيارية علومنا الإنسانية!

---

(1) آلة الموحدين لكشف خرافات الطبيعيين، أبو الفداء ابن مسعود، دار الإمام مسلم، ص 577 بتصرف.

(2) اللقاء الذي أجرته قناة الجزيرة انجليزي مع ريتشارد داوكينز دقيقة 42.

وهذا نفس ما يذهب إليه شرودينغر Erwin Schrödinger أبو ميكانيك الكم حين يقرر أن العلم التجريبي عندما يتحدث عن القيمة الأخلاقية أو القيمة الجمالية أو القيمة الفنية، فهو أراجوز نستمع له لنضحك لا لنأخذ كلامه على محمل الجد![1].

وقد صدر مؤخرًا في (2012) كتاب لفيلسوف الوعي الملحد الشهير توماس ناجل Thomas Nagel بعنوان Mind and Cosmos: Why the Materialist Neo-Darwinian Conception of Nature is Almost Certainly False والكتاب أثار ضجة في الأوساط العلمية والإلحادية، ويمثل ردة صريحة للفيلسوف عن كفاية المذهب الطبيعي التجريبي.

وفكرة الكتاب كما يظهر من العنوان: «التدليل على قصور التصور المادي عن الطبيعة»[2].

فالعلم التجريبي لا يُغطي إلا جانبًا ضيقًا جدًّا من حقل المعرفة!

ومن هنا يتقرر أن: الإلحاد عبء على العلوم والمعارف ويُسمم القيمة ويدمر مؤسسات وأكاديميات عملاقة فقط حتى يتسق مع ذاته!

يقول د.عبد الله الشهري: «محاولة إصدار أحكام شمولية universalist-absolutist من واقع تجريبي ضيق هو تصرف لا مبرر له، لذا يعبر القرآن الكريم عن هذا الشعور الوهمي بإصدار أحكام شمولية يعبر عنه بلفظ السلطان Authority فقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ﴾ [غافر: 35].

---

(1) شرودنغر في كتابه الطبيعة والإغريق Nature and the Greeks.

(2) كتاب التدليل على قصور التصور المادي عن الطبيعة، لتوماس نجل.

فهذا التخويل المقترن بذلك السلطان يُمنَح من سلطان يتجاوزنا، وليس شيئًا نمتلكه ﴿ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ ﴾ [الروم: 35][1].

فلا يجوز لك أن تُسمم كل العلوم بدعوى أنها لا تتسق مع فلسفتك المادية الإلحادية، ثم تزعم أن رأيك هو الصواب، وكأن لك سلطانًا تحذف ما يروق لك وتقرر فقط ما يصلح لفلسفتك!

الإلحاد يسمم المثقفين

الإلحاد يقوم على أسس مستقلة ومعارف خاصة شأنه شأن كل الحركات الفكرية التي ظهرت عبر التاريخ، وهو في ذلك يزيح كل الثقافات والمعارف التي تتعارض مع نطاق رؤيته وفلسفته الخاصة كما سنوضح بعد قليل.

ومنذ بداية عصر التنوير على يد الثورة الفرنسية Révolution française التي انطلقت عام 1789م، لم تكن الأجواء مريحة للمثقفين، ولم يكن المستقبل يحمل على يد التنويرين والملاحدة إلا البؤس والشقاء للمثقفين، فبدءًا من إعدام أنطوان لافوزييه Antoine-Laurent de Lavoisier أبي الكيمياء الحديثة Father of Modern Chemistry ومكتشف الأوكسجين، وأول من صاغ قانون حفظ المادة، وقانون بقاء الكتلة، وساعد في تشكيل نظام التسمية الكيميائي، وأول من أنتج الغاز المائي Water - Gas والذي أُعدم عن طريق قص الرأس بالمقصلة guillotined على يد الثورة الفرنسية التنويرية في 8 مايو عام 1794، والذي قال القاضي حينذاك قولته الشهيرة: «إن الثورة لا تحتاج إلى عباقرة».

---

(1) ثلاث رسائل في الإلحاد والعلم والإيمان، د. عبد الله بن سعيد الشهري، مركز نماء للبحوث والدراسات، الطبعة الأولى.

"La République n'a pas besoin de savants ni de chimistes; le cours de la justice ne peut être suspendu[1].

ومنذ ذلك الوقت وحتى الساعة لم يهنأ مثقف واحد في بيئة إلحادية ولم يستقر له بحث، اللهم إلا لو سايرهم في كل ما يقيدونه به في بحثه!

وحين وصل الإلحاد رسميًا إلى الحكم كما في الاتحاد السوفيتي السابق تم تحريم كل العلوم التي تتعارض مع الإلحاد، وقد حارب الملحد جوزيف ستالين Joseph Stalin رئيس الاتحاد السوفيتي السابق بشدة الكثير من أنواع العلوم بدافع إلحادي، فقام بتحريم قوانين مندل للوراثة Mendelian genetics؛ لأن قوانين مندل للوراثة تقوم على الاختيارية، وهذا يتعارض مع الحتمية المادية الإلحادية التي يريدها جوزيف ستالين، ومن أجل ذلك عارض ستالين بشدة قوانين مندل للوراثة، واعتبر أن أي عالم يساند قوانين مندل هو مجرم يجب إعدامه، وبالفعل تم إعدام كثير من علماء البيولوجيا باسم الإلحاد في الحقبة الستالينية، ومن أشهر هؤلاء رائد علم الوراثة الحديثة نيقولاي فافيلوف Nikolai Vavilov.

وعلى الرغم من كون نيقولاي فافيلوف ملحدًا وعلى الرغم من كونه من أسرة عسكرية قوية في الاتحاد السوفيتي، إلا أن كل هذا لم يُثني عزيمة جوزيف ستالين عن إلقاء القبض عليه بتهمة تعليم قوانين مندل للوراثة، وبالفعل تم اعتقال فافيلوف في 6 أغسطس 1940[2].

---

(1) Commenting on this quotation, Denis Duveen, an English expert on Lavoiser and a collector of his works, wrote that «it is pretty certain that it was never uttered». For Duveen's evidence, see the following: Duveen, Denis I. (February 1954). «Antoine Laurent Lavoisier and the French Revolution». Journal of Chemical Education 31 (2): 60-65.

(2) Loren R. Graham (1993). Science in Russia and the Soviet Union: A Short History. Cambridge University Press. p. 130.

وتم حرمان فافيلوف من الطعام ببطء في سجن ساراتوف Saratov prison إلى أن أُصيب بضمور تام في العضلات أعقبه شلل، ووفاة نتيجة التجويع القسري![1].

واليوم تُعد مؤسسة فافيلوف في مدينة بطرسبرج St. Petersburg أكبر مجمع لجينات النباتات في العالم، وأُطلق اسمه على أحد الكويكبات المُكتشفة حديثًا تخليدًا لذكراه[2].

ومن نافلة القول فإن الملحدين إلى اليوم يُصرون على الرؤية الستالينية للحتمية المادية الصارمة ويؤكدون أن الإرادة الحرة أو الاختيارية مجرد وهم، ويحرر ذلك الملحد الأشهر سام هاريس Sam Harris أحد أعمدة الإلحاد الجديد في رسالته الإرادة الحرة Free Will، إذ يقول: « الإرادة الحرة مجرد وهم».

Free well is an illusion[3].

وبعيدًا عن قوانين مندل للوراثة فقد قام جوزيف ستالين أيضًا ضمن سياسته الإلحادية بتحريم كثير من علوم الطبيعة-الفيزياء-[4].

وإذا تركنا الاتحاد السوفيتي واتجهنا نحو الصين في الحقبة التي حكم فيها الملحد ماو تسي تونج Mao Zedong البلاد فالأمر لم يتغير كثيرًا

(1) died imprisoned and suffering from dystrophia (faulty nutrition of muscles, leading to paralysis), in the Saratov prison. http://www.splendidtable.org/story/how-nikolay-vavilov-the-seed-collector-who-tried-to-end-famine-died-of-starvation

(2) http://biodiversity.ucoz.ru/index/genetic_ resources _of_ leguminous _plants _in_the_n_i_vavilov _institute _of_ plant _industry /0-10

(3) Free Will. P.5.

(4) hps.elte.hu/~szegedi/cikkek/coldw.doc.

والعداء للعلم والعلماء والمثقفين ظاهر وبشدة، فقد قام ماو تسي تونج بتدشين مشروع الثورة الثقافية الكبرى Great Proletarian Cultural Revolution:

وفكرة الثورة الثقافية الكبرى ليست نشر الثقافة كما يوحي العنوان، وإنما العكس من ذلك تمامًا، فالفكرة هي قتل المثقفين وتسميمهم فعليًا؛ لأن المثقفين والمتعلمين وأساتذة الجامعات عبء على الإلحاد!

فالمفترض أن تبقى البلاد في ثورة دائمة perpetual revolution وصراع مستمر -وهذه هي النظرة الداروينية لوجود الكائنات الحية على الأرض- فأراد ماو تسي تونج تطبيق ذلك عمليًا[1].

فقد أطلق ماو تسي تونج أوامره لتلاميذ المدارس وطلبة الجامعات أن يقيموا محاكم خاصة لأساتذة الجامعات والمدرسين، فسادت الفوضى في البلاد، وعمّ الخراب وأُقيمت المحاكم في الشوارع واضطُهد الملايين بما فيهم الفيلسوف العظيم وتشن يون Chen Yuen وأُغلقت المدارس وطُلب من المثقفين أن يذهبوا إلى الريف حتى يقوم الفلاحون الأميون بتعليمهم- فقد اعتبر الملاحدة في الصين أن الثقافة الأكاديمية عبء يجب التخلص منه على يد بعض الأميين-!

أدت الثورة الثقافية إلى فوضى اجتماعية واقتصادية عارمة ودُمرت حياة الملايين، ودخلت الثورة الثقافية في كل شيء في المجتمع الصيني؛ وأصبح الصراع على أشده داخل الأسرة الواحدة، وتصارع الابن مع أبيه والتلميذ قتل أستاذه. وقّدرت الإحصاءات أن قتلى هذه المرحلة كانوا بالملايين[2].

---

(1) Feigon, Lee (2002). Mao: A Reinterpretation. Chicago: Ivan R. Dee.
(2) http://necrometrics.com/20c5m.htm#Mao.

وكانت نتيجة الثورة الثقافية هزة في وجدان المثقفين، و رِدّة فكرية لم يسبق لها مثيل، وقد أدى ذلك بالكثيرين إلى الانتحار، ويُذكر أن ماو تسي تونج حين أخبروه أن الناس ينتحرون جراء الثورة الثقافية قال: « الذين يحاولون الانتحار لا تحاولوا إنقاذهم، الصين بلد مليء بالبشر، يمكننا بسهولة الاستغناء عن عدد قليل من الناس»[1].

وقد برّر قائد الشرطة الوطنية في ذلك الوقت زي فوزيشي Xie Fuzhi الضرب والتعذيب حتى الموت الذي يقوم به التلاميذ في المدارس والجامعات والشوارع لأساتذتهم ولأي مثقف معتبرًا كل ما يجري أمورًا طبيعية[2].

أما التصريح المدهش والمرعب الذي لن ينساه التاريخ فكان حين صرّح ماو تسي تونج أنه دفن 46 ألف عالم ومثقف وهم أحياء فقد قال ماو تسي تونج في اجتماع لكوادر الحزب عام 1958: «لقد تفوقنا على تشين شي هوانغ Qin Shi Huang -امبراطور صيني قديم اشتهر بدفن العلماء أحياء- في محاربته للعلماء والمثقفين، لقد دفن تشين شي هوانغ 460 عالم وهم أحياء، أما أنا فقد دفنت 46 ألف عالم وهم أحياء، إنكم أيها المثقفون تنسبوني باستمرار إلى تشين شي هوانغ، إنكم مخطئون!.

«لقد تفوقت على تشين شي هوانغ بمائة ضعف»[3].

---

(1) «People who try to commit suicide — don't attempt to save them!... China is such a populous nation, it is not as if we cannot do without a few people.» MacFarquhar 2006, p. 110.

(2) «Don't say it is wrong of them to beat up bad persons: if in anger they beat someone to death, then so be it.»
http://en.wikipedia.org/wiki/Xie_Fuzhi
MacFarquhar 2006, p. 125.

(3) During a speech to party cadre in 1958, Mao said he had far outdone Qin Shi Huang in his policy against intellectuals: «He buried 460=

لم يكتفِ الملحد ماو تسي تونج بالتصريح بدفن 46 ألف عالم، بل جعل ذلك مدعاةً للفخر والتباهي!

وقد عُذب حتى الموت 1722 مفكر في بكين وحدها عام 1966 كل هذا باسم الإلحاد والفلسفة المادية واختزال الإنسان وتحقير مكانته![1].

ومن عجيب ما يُذكر هنا أن دولة كمبوديا في فترة حكم الملحد بول بوت Pol Pot بين عامي 1976 - 1979 وبتصريح من بول بوت قامت بقتل أي شخص يرتدي نظارة سميكة خشية أن يكون مثقف![2].

ولم يكتفي بول بوت بذلك بل تم إغلاق المدارس والجامعات والمؤسسات التعليمية طوال حقبة حكم الإلحاد في كمبوديا وتحولت العاصمة بنوم بنه Phnom Penh إلى مدينة أشباح، وكان يتم إرسال جميع سكان الحضر في كمبوديا إلى الغابات للعمل في مزارع جماعية، وقررت كمبوديا تحريم الصيد واقتلاع أشجار الفواكه حتى يتفرغ الناس فقط للزراعة، بل وجرى تجفيف كل منابع المياه في الحضر، وإغلاق المستشفيات وتجريم ممارسة الطب، وإغلاق المدارس، وأدت هذه السياسات الإلحادية المجنونة إلى موت مئات

=scholars alive; we have buried forty-six thousand scholars alive... You [intellectuals] revile us for being Qin Shi Huangs. You are wrong. We have surpassed Qin Shi Huang a hundredfold.

Mao Zedong sixiang wan sui! (1969), p. 195. Referenced in Governing China: From Revolution to Reform (Second Edition) by Kenneth Lieberthal. W.W. Norton & Co., 2003. p. 71.

(1) MacFarquhar 2006, p. 124.

(2) «People who they perceived as intellectuals or even those who had stereotypical signs of learning, such as glasses, would also be killed». http://en.wikipedia.org/wiki/Khmer_Rouge#Life_under_the_Khmer_Rouge.

الآلاف من الشعب الكمبودي في مجاعات مرعبة وكوارث إنسانية لم يسمع بها الشعب الكمبودي من قبل، وأوبئة قاسية أرّقت العالم كله، ورفضت الحكومة الكمبودية الملحدة في ذلك الوقت أية مساعدات دولية[1].

إن هذا التسميم المُتعمد للثقافة والمثقفين على يد الإلحاد والملحدين لا يكون إلا في عالم لا يؤمن بالإنسان ولا بالعلم ولا بالتفكير وقطعًا لا يؤمن بالله!

وهكذا قام الإلحاد فعليًا بتسميم المثقفين والفتك بهم!

الإلحاد يسمم الشعوب

جماهير الشعوب المقهورة قد تطمح إلى برامج إصلاحية غير معتادة، وفي الغالب يحمل الملاحدة الذين لم يتردد اسمهم كثيرًا على آذان الشعوب رسالة تبشيرية بفلسفتهم الإلحادية وبأنهم لو وصلوا لقيادة الدول فإن الرخاء والحرية والمساواة ستكون من نصيب المقهورين، فيبادر الذين لا يعرفون جوهر الإلحاد في تجربة هذه الدعايات العريضة، ويقفز الملاحدة إلى السلطة فعليًا في بعض البلاد لكن النتيجة التي تختصر الكثير من السرد أن بضعة سنوات وربما شهور من حكم الملحدين تكون حاسمة في إثبات أن الإلحاد يُسمم الشعوب فعليًا ويغريها بالإبادة الشمولية التي لم يسمع الإنسان عنها إلا في القرن الماضي، وحصريًا في الدول التي حَكَمها ملحدون كما سيأتي بيانه!

حين وصل الملحد بول بوت Pol Pot أو الأخ رقم 1 أو سالوث سار Saloth Sar، -أسماء كثيرة مستعارة لملحد واحد- حين وصل إلى الحكم في

(1) www.paulbogdanor.com/left/cambodia/locard.pdf.

دولة كمبوديا لم يكن الشعب المسكين يحلم بغير ثورة صناعية واقتصادية تنتشله من وحل البؤس، لكن لم يكن هذا الشعب يعلم أن الثلاث سنوات القادمة 1976 - 1979 والتي سيحكم فيها الملحد بول بوت البلاد ستكون أصعب ثلاث سنوات في تاريخ كمبوديا على الإطلاق عبر كل تاريخها!

فقد أباد بول بوت رسميًا 25 % من شعبه باسم الإلحاد والفلسفة المادية خلال 3 سنوات قضاها في الحكم[1].

وهذه النسبة 25 % مُسجلة رسميًا في دفاتر الدولة[2].

ولولا تدخل القوات الفيتنامية في كمبوديا عام 1979 وتوقيف مجازر الملحد بول بوت وهروبه إلى أدغال كمبوديا لربما فاقت أعداد القتلى أعداد الأحياء.

ففي هذه الفترة الوجيزة أجبر بول بوت جميع سكان الحضر والمدن على الانتقال إلى الريف للعمل القسري في مزارع جماعية.

فلم يكن بول بوت يؤمن إلا بالإنسان المادي الذي يسير في حتميات مادية -ترس في آلة- إنسان بلا أدنى معيارية ولا قيمة ولا معنى ولا يحمل داخله مفردات شخصية مستقلة تميزه كونه مخلوقًا لله، ولا يكترث بالغاية وتصبح الأرض من وجهة نظره مادة استعمالية وغايته تحقيق أقصى إشباع ممكن منها لا أكثر!

وظن بول بوت برؤيته الإلحادية أن شعبه كله هو هذا الإنسان!

وفي بداية حكمه أعلن بول بوت عبر راديو كمبوديا الرسمي أن

(1) Craig Etcheson, After the Killing Fields (Praeger, 2005), p. 119.
(2) www.paulbogdanor.com/left/cambodia/locard.pdf.

الحكومة الكمبودية لا تحتاج من شعبها أكثر من مليون إلى مليوني مواطن لإقامة اليوتيوبيا الإلحادية المادية Utopia، أما الباقين فلا حاجة لهم؛ لأنهم بلا فائدة[1].

وأما الذين رفضوا هذه الرؤية الإلحادية المجنونة للملحد بول بوت، فقد قامت القوات الكمبودية الملحدة باصطحاب مئات الآلاف منهم واقتادتهم إلى الحقول الشاسعة وأمرتهم بحفر قبورهم بأيديهم، ثم دفنتهم أحياء، ورفضت إطلاق الرصاصات عليهم؛ لأن طلقات الرصاصة أثمن من أن توضع في جسد «Bullets are not to be wasted».

وأصبحت هذه الحقول التي دُفن فيها مئات الآلاف أحياء باسم الإلحاد تُعرف الآن في الثقافة العالمية باسم «حقول القتل الكمبودية»[2].

وفي دراسات ميدانية لاحقة تبين وجود 20 ألف مقبرة جماعية عملاقة استخدمها الملاحدة لدفن قرابة 3 مليون نسمة من الشعب الكمبودي طبقًا لليونيسيف (UNICEF)[3].

كان بول بوت مثالاً للملحد الذي ينظر للبشر على أنهم حيوانات بلا قيمة ولا غاية ولا معنى، وأن الصراع من أجل البقاء والانتخاب الطبيعي -كما تقرر الداروينية- وقهر الآخرين هو الغاية البيولوجية الوحيدة في هذا العالم.

---

(1)» To keep you is no benefit, to destroy you is no loss».
Children of Cambodia's Killing Fields, Worms from Our Skin. Teeda Butt Mam. Memoirs compiled by Dith Pran. 1997.

(2) http://en.wikipedia.org/wiki/Killing_Fields.

(3) UNICEF estimated 3 million had been killed.
William Shawcross, The Quality of Mercy: Cambodia, Holocaust, and Modern Conscience (Touchstone, 1985), pp. 115-116.

وبعد دخول فيتنام لكمبوديا وإسقاط حكومة بول بوت، عاش بول بوت ما تبقى من عمره في ظل حماية عسكرية لإحدى الكتائب المنشقة وبدعم مادي من جمهورية الصين الشعبية حليفه القديم[1].

وقبل أن يموت بشهور قليلة قتل بول بوت أقرب أصدقائه إليه صون سن Son Sen وأحد عشر فردًا من عائلته، ثم انتحر، وقيل: مات بفشل في القلب[2].

وبعيدًا عن كمبوديا وفي الصين في فترة حكم الملحد ماو تسي تونج Mao Zedong كان الناس يخشون السير تحت ناطحة سحاب في شنغهاي؛ لأنه قد يسقط عليك أحد المنتحرين!

فقد أصبح الانتحار في فترة حكم ماو تسي تونج ظاهرة متكررة كل ساعة طوال اليوم في شوارع الصين[3].

وماو تسي تونج يصنفه النقاد على أنه أكبر مجرم في تاريخ الجنس البشري على الإطلاق، فقد قتل من 40 - 70 مليون نسمة بسبب سياسات التجويع والعمل القسري والإعدامات والإبادة الشمولية وقتل الأثنيات والعرقيات المختلفة![4].

---

(1) http://www.edwebproject.org/sideshow/ khmeryears/fall. html.

(2) http://en.wikipedia.org/wiki/Phnom_Malai.

(3) In Shanghai, suicide by jumping from tall buildings became so commonplace that residents avoided walking on the pavement near skyscrapers for fear that suicides might land on them Time. March 5, 1956.

(4) http://www.hawaii.edu/powerkills/NOTE2.HTM.
Modern China: The Fall and Rise of a Great Power, 1850 to the Present. Ecco Press. p. 351.

وفي يناير من عام 1958 أطلق ماو تسي تونج القفزة الكبرى إلى الأمام Great Leap Forward، وكان يهدف من خلالها إلى تحويل الصين من دولة زراعية إلى دولة صناعية كبرى -الدعاية الإلحادية العريضة الكاذبة التي تحدثنا عنها في بداية المقال-، لكن هذه القفزة الكبرى إلى الأمام تسببت في أعظم مجاعة قاتلة في تاريخ البشرية deadliest famine in history.

فقد فشلت القفزة الكبرى بسبب إلحاد الحكومة، حيث أجبر ماو الملايين من الفلاحين والعمال والمدنيين على العمل في هذا البرنامج الصناعي كأنهم آلات مادية بلا روح، وطلب ماو معدلات عالية من الإنتاج لتحقيق نتائج كبيرة، ولكن لم يستطع الشعب أن يتحول إلى تروس مادية فانهار المشروع، مخلفاً خسائر ضخمة، دفع الشعب وحده الثمن مواجهاً فقر مدقع بلا طعام وبملابس رثة، وانخفض انتاج الحبوب بنسبة 15 %[1].

ومع الوقت ومع إصرار ماو على صحة تحليله الإلحادي للبشر وأنهم مجرد آلات، رفض ماو وقف مشروع القفزة الكبرى، وزادت الأمور سوءًا وتفاقمت الأزمة، وصار العمال الصينيون ينطبق عليهم القول العربي: «إن المنبت لا أرضًا قطع ولا ظهرًا أبقى».

ونظرًا لرؤيته المادية القاصرة وتحليله الإلحادي العقيم، وإنكاره لفروق الخِلقة بين البشر، فقد طلب ماو تسي تونج من الفلاح أن يُنتج الحديد والصلب فانهار إنتاج الصلب، وطلب من الحرفيين أن يزرعوا فانهارت الزراعة، وطلب من التقنيين أن يمارسوا الحرف البسيطة فانهار كل شيء، ودخلت الصين نتيجة القفزة الكبرى إلى عصر المجاعة.

فقد حدثت مجاعة الصين الكبرى Great Chinese Famine وهلك

(1) Spence, Jonathan (1999). Mao Zedong. Penguin Lives.

نتيجة هذه المجاعة 30 مليون صيني بين عامي 1958 - 1962جراء التحليل المادي الإلحادي الساذج للبشر واختزالهم في صيغة لا تحترم تميزهم ولا فروقهم الفردية ولا ملكاتهم الخاصة ولا بصماتهم الذاتية![1].

لكن هل كان ماو تسي تونج يقصد عمدًا تسميم شعبه؟ أم أن الأمر حدث بالصدفة، ونتيجة تراكم ظروف خارجة عن إرادة الجميع؟

في اجتماع سري جرى في فندق جينجيانغ Jinjiang Hotel بمدينة شنغهاي بتاريخ 25 مارس 1959 وقبل أن تتضخم المجاعة أمر ماو تسي تونج حكومته الملحدة رسميًا بشراء ثلث محاصيل البلاد في سابقة لم تحدث في تاريخ الصين، وهذا القرار من شأنه أن يحول البلاد في غضون شهور قليلة إلى مجاعة كبرى لم يظهر لها مثيل في التاريخ.

وسبب هذا التصرف الأرعن من ماو هو إلحاده، فقد أكد ماو تسي تونج أن قضية موت الناس جوعًا ليست مهمة كما يتصور البعض حيث قال: «من الأفضل أن يموت نصف الشعب، على أن يشبع النصف الآخر جيدًا»[2].

إن هذه الرؤية المادية الإلحادية والتي تجعل من ملايين البشر شيء غير مُكترث به، هذه الرؤية المادية لا تُفرزها إلا عقول لا تؤمن بالله ولا تؤمن بالإنسان.

بل لقد رفض ماو تسي تونج أن يفتح مخازن الحبوب أثناء المجاعة[3].

---

(1) http://en.wikipedia.org/wiki/Great_Chinese_Famine.

(2) «When there is not enough to eat, people starve to death. It is better to let half of the people die so that the other half can eat their fill.
Becker, Jasper (1998). Hungry Ghosts: Mao's Secret Famine

(3) Becker, Jasper (1998). Hungry Ghosts: Mao's Secret Famine, p.81.

وكان ماو تسي تونج يُعذب من يملك حبوب في منزله وقد أعدم كثيرين ممن يملكون الحبوب في منازلهم[1].

لقد كان ماو تسي تونج يقصد عامدًا إبادة شعبه!

ونظرًا لكارثية الوضع فقد حنق الشعب بشدة على سياسات الحكومة الملحدة، واضطر ماو في النهاية إلى وقف القفزة الكبرى عام 1962 وانتقلت رئاسة الدولة إلى ليو شاي تشي Liu Shaoqi.

واستطاع الرئيس الجديد أن يفتح سريعًا مخازن الغلال وأن يستورد الحبوب من الدول الرأسمالية مما أوقف المجاعة بعد أن أبادت كما قلنا 30 مليون نسمة باسم الإلحاد وفلسفته الاختزالية المريضة المجنونه!.

وهذه المجاعة الإجرامية المُتعمدة تُذكرنا بمجاعة أوكرانيا الكبرى Ukrainian Great Famine والتي ارتكبها الملحد جوزيف ستالين Joseph Stalin لتأديب الشعب الأوكراني، وقد وقعت أحداث هذه المجاعة خلال عام 1933 في أوكرانيا وراح ضحيتها 4 مليون أوكراني بسبب سياسة جوزيف ستالين التجويعية مع المقاطعات التي لا تُنفذ الأوامر[2].

مع ملاحظة أن أوكرانيا في تلك الفترة كانت ملحدة وتنتهج السياسة الاشتراكية، فكان الصراع إلحادي-إلحادي، والجلادين ملاحدة والمجلودين ملاحدة، فكان هذا نموذجًا مباشرًا على إجرام الملحدين حتى في حق الملحدين أمثالهم!

وقد رفض ستالين أية مساعدات خارجية لأوكرانيا وقام بمصادرة جميع المواد الغذائية -صادر قرابة مليوني طن من الحبوب أثناء المجاعة-، وأمر

(1) Becker, Jasper (1998). Hungry Ghosts: Mao's Secret Famine, p.93.
(2) http://www.unitedhumanrights.org/genocide/ukraine_famine.htm.

بتقييد حركة سكان أوكرانيا الواقعين تحت المجاعة -بحيث يحرمهم من فرصة النجاة-، كل هذا من أجل إذلال الشعب الأوكراني بعد أن ظهرت فيه دعوات قومية تدعو للقومية الأوكرانية Ukrainian nationalism فأراد ستالين تركيع الشعب الأوكراني، وهذه السياسات القمعية أكدت أن ما حدث ليس مجاعة بالمعنى المعهود للمجاعة وإنما إبادة جماعية شمولية[1].

وسياسة التجويع هي أحد سياسات الإلحاد في التعامل مع جموع الشعب؛ لأنها سياسة غير مكلفة ولا مرهقة وتأتي بنتائجها سريعًا ومن الصعب تعقب مرتكبيها.

وفي 28 نوفمبر 2006 قرر البرلماني الأوكراني رسميًّا اعتبار الاتحاد السوفيتي مسئولاً مباشرًا عن مجاعة أوكرانيا عام 1933.

وفي يناير 2010 قررت محكمة أوكرانيا أخيراً وبصفة رسمية اتهام جوزيف ستالين بعملية الإبادة الجماعية للشعب الأوكراني، من خلال تلك المجاعة، والتي كما قلنا راح ضحيتها 4 مليون أوكراني[2].

ولم تكن أوكرانيا هي الوحيدة التي قاست من سياسات التجويع الإلحادية، فستالين طبّق سياسة التجويع في كثير من المقاطعات، ويقرر الباحث في الحقبة الستالينية روبرت كونكويست Robert Conquest أن ضحايا مجاعات ستالين القسرية والإبادة الوحشية وصلت إلى 30 مليون قتيل في أنحاء البلاد[3].

والتاريخ مليء بالعظات لمن تأمل وتبصّر، وقصص الملحدين وجرائمهم

---

(1) http://eng.maidanua.org/node/792.
http://www.paulbogdanor.com/left/soviet/famine/ellman1933.pdf.

(2)http://www.kyivpost.com/content/kyiv/kyiv-court-accuses-stalin-leadership-of-organizing-56954.html.

(3)Conquest, Robert (1991) the Great Terror: A Reassessment, Oxford University Press.

تملأ موسوعات ولا تستطيع مقالة على طولها أن تظهر إلا لمحة عابرة في تاريخ الزمان من حكايا الملحدين، لكن لعل ما ذُكر فيه تبصير بما لم يُذكر، وربما ترتفع همة باحث لتحرير مؤلف في هذا الباب فما أثراه وما أشد الحاجة إليه في هذه الفترة للقارئ العربي!

خلاصة ما نقوله أنه لم تظهر مصطلحات مثل» التطهير العرقي، وأكوام الجماجم، وقتل الطوابير، وحقول القتل the Killing Fields « إلا داخل الدول التي حكمها ملحدون!

﴿ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ ﴾ [البقرة: 205].

الإلحاد يُسمم المُتدينين

تسميم الإلحاد للمتدينين هو بديهة مستقرة في أذهان كل الذين عاصروا الدول الملحدة وكانوا أصحاب ديانات، ويحتفظ التاريخ بما لا يُحصى من المواقف التي تؤكد هذه الدعوى، فقد سُنت قوانين لتحريم الأديان في الدول التي حكمها ملحدون -مثل المادة 52 من الدستور السوفيتي الجديد سنة 1977 والتي تنص على أن: «الدولة ترعى الإلحاد العلمي وتُحرم تلقين الدين مِن قِبل أية جهة»-.

وتمت تسوية معابد أصحاب الديانات بالأرض بمجرد وصول ملحد للحكم، ففي ألبانيا كمثال تم هدم وإغلاق 2169 مسجد وكنيسة، وتم تحويل كاتدرائية شكودرا الكبيرة Shkodër Cathedral إلى قاعة للألعاب الرياضية Palace of Sports بعد وصول الملحد أنور خوجة Enver Halil Hoxha للحكم في ألبانيا[1].

(1) Wayne C. Thompson (2007). Nordic, Central, and Southeastern Europe. Stryker-Post Publications.

فالإلحاد نسق معرفي مستقل لا يقبل مزاحمة أنساق معرفية أخرى كالدين، فالملحد حين تكون في يده السلطة فإنه سيفعل ما بوسعه حتى يقضي على أية سمة دينية، وفي رسائل فلاديمير لينين Vladimir Lenin الرسمية-والتي تعد الآن من وثائق الحكومة الروسية -السوفيتية سابقًا-، يقول لينين حين وصل لرئاسة الاتحاد السوفيتي السابق في أحد تلك الرسائل: «يجب علينا الآن سحق رجال الدين بكل حزم وبلا هوادة، وإخماد كل مقاومة لهم بحيث لا ينسوا ذلك عبر السنين».

بل وقال أيضًا: «في هذا الاجتماع أُصدر قرارًا بإزالة ملكية جميع رجال الدين والكنائس بلا رحمة ولا ندع لهم شيئًا، ويجري هذا القرار في أسرع وقت ممكن وبمنتهى الكفاءة، وكلما زاد عدد مَن نُطلق عليهم النار كان أفضل»[1].

ونتيجةً لهذا القرار الرسمي من لينين بإعدام رجال الدين، يقرر المؤرخ أورنالدو فيجز Orlando Figes أن قرابة 8000 كاهن تم إعدامهم، وعشرات الآلاف من المتدينين بسبب رسالة لينين[2].

---

(1) Lenin said: «we must precisely now smash the Black Hundreds clergy most decisively and ruthlessly and put down all resistance with such brutality that they will not forget it for several decades».

He also said: «At this meeting pass a secret resolution of the congress that the removal of property of value, especially from the very richest lauras, monasteries, and churches, must be carried out with ruthless resolution, leaving nothing in doubt, and in the very shortest time. The greater the number of representatives of the reactionary clergy and the reactionary bourgeoisie that we succeed in shooting on this occasion, the better».

Source: letters from Lenin.

http://www.loc.gov/exhibits/archives/ae2bkhun.html.

(2) Donald Rayfield, Stalin and His Hangmen: The Tyrant and Those Who Killed for Him. Random House, 2004.

وقد قُدرت أعداد الذين قُتلوا على يد الإرهاب الإلحادي في تلك الحقبة القصيرة بقرابة المليون نسمة من أبناء الشعب الروسي[1].

أما الملحد جوزيف ستالين Joseph Stalin خليفة لينين في رئاسة الاتحاد السوفيتي فلم يكن أقل بطشًا للمتدينين منه، فطبقًا للمؤرخ الشهير ريتشارد بيبس Richard Pipes فقد قتل ستالين بين عامي 1937 - 1938 فقط أكثر من مائة ألف رجل دين، وقبل وفاته بأيام قليلة أصدر الملحد ستالين أوامر مباشرة باضطهاد المسلمين والرومان الكاثوليك والمعمدانيين، وتم اعتقال وقتل الآلاف وهُدمت المعابد والكنائس والمساجد[2].

ويكفي أن أوج نشاط رابطة الملحدين العسكرية League of Militant Atheists كان خلال فترة حكم جوزيف ستالين، وهذه الرابطة كانت تضم قرابة ستة ملايين عضو، وقامت رسمياً بقتل وذبح وتعذيب أصحاب الأديان، وهدمت 42 ألف مؤسسة دينية ومسجد وكنيسة عبر دول الإتحاد السوفيتي في الفترة من 1930 إلى 1941 حسب الوثائق الرسمية، وقتلت مائة أسقف وآلاف الرهبان وعشرات الآلاف من رجال الدين الأرثوذكسي، وقد وصل عدد الدوريات الخاصة بالرابطة في العام 1940 إلى 45 ألف دورية تدعو للإلحاد وتُنفر الناس من الدين[3].

أما في الجنوب فقد قام الملحد ماو تسي تونج -رئيس الصين- وما بين عامي 1949 - 1975 بقتل 26 مليون مسلم صيني - الأتراك الأيغور Uighurs -،

(1) Stewart-Smith, D. G. The Defeat Of Communism. London: Ludgate Press Limited, 1964.
http://www.hawaii.edu/powerkills/USSR.TAB2A.GIF.

(2) Pipes, Richard (2001). Communism: A History. Modern Library Chronicles. p. 66.

(3) http://en.wikipedia.org/wiki/League_of_Militant_Atheists.

وفي عام 1964 نشر ماو تهديداته قائلاً: «جميع الحيوانات السُّفلية سوف تُعدم».

وبهذا كان ماو يُخرج معارضيه مِن الإنسانية وكان يَعتبر كُل من وقف ضد الثورة خطأً تطوريًّا.

يقول جيمس رفي رُسي James Revee Rusey: «بالنسبة لماو فإن أعداء الشعب ليسوا بشرًا وليس لهم أدنى حق بالمعاملة الإنسانية»[1].

ومن نافلة القول نؤكد أن الإلحاد المعاصر لم يتغير كثيرًا عن حقبة لينين أو ستالين أو ماو تسي تونج، فها هو الملحد المعاصر سام هاريس Sam Harris أحد أعمدة الإلحاد الجديد يقول في كتابه «نهاية الإيمان» the End of Faith بالحرف: «بعض المسائل من الخطورة بمكان بحيث يمكن أن يكون قتل من يعتقدها أخلاقيًّا»[2].

ويقرر سام هاريس في الكتاب نفسه أن قتل المسلمين بقنبلة نووية تستأصل شأفتهم إلى الأبد أمر غير مستبعد[3].

هذا هو الإلحاد حين يحكم!

هذا هو الإلحاد حين تكون له دولة!

هذا هو مصير كل مؤمن في دولة الإلحاد.

﴿ قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ﴿٤﴾ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ

(1) China and Charles Darwin, James Revee Rusey p.456.

(2) Some propositions are so dangerous that it may even be ethical to kill people for believing them. The End of Faith, p.52

(3) Harris, S. (2006) the End of Faith, the Free Press, P.129.

﴿٨﴾ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٠﴾﴾ [البروج: 4-10].

الإلحاد يسمم الملحدين

الصراعات الكبرى التي شهدها القرن العشرون، والأيديولوجيات التي دارت رحى الحرب بينها في ذلك القرن كانت كلها حصرية بالنزعة الإلحادية والرؤية المادية للوجود!.

فمن الفاشية Fascism في إيطاليا إلى الستالينية Stalinism في الاتحاد السوفيتي إلى الماوية Maoism في الصين إلى النازية Nazism في ألمانيا، لا يستطيع المؤرخ إلا أن يرصد أيديولوجيات مادية صارمة، جعلت من فناء العالم قضية قابلة للتحقق في أية لحظة!.

بل إن الحربان العالميّتان الأولى والثانية كانتا حروب علمانية -علمانية، تحكمهما تصورات إلحادية للأجناس البشرية وخرافات السعي نحو النقاء العرقي، والبقاء للأصلح Survival for the Fittest، وإبادة الأجناس الأدنى Natural Selection، فكانت النتيجة إبادة قرابة 5 % من سكان العالم في حروب مجنونة بلا معنى أرجعت كلًّا من المنتصر والمهزوم ثلث قرن إلى الوراء، وقام الفلاسفة بوضع مبولة في وسط باريس بدلاً من تمثال الجندي المجهول كناية عن نهاية الحضارة.

وخلفت تلك المعارك الإلحادية ترسانات من الأسلحة النووية تكفي لإزالة الجنس البشري كله مراتٍ عديدة[1].

---

(1) كتب القائد النمساوي المجري الجنرال فان هودزاندورف Van Hodzandorf -=

لكننا في هذا المقال نود أن نُركز على الصراع الإلحادي-الإلحادي، وخير مثال نسوقه في هذا الإطار هو جوزيف ستالين Joseph Stalin؛ وجوزيف ستالين هو القائد الثاني للاتحاد السوفيتي، وُلد في مدينة غوري لأب أسكافي وأم فلاحة، وحين بلغ ستالين الخامسة عشرة من عمره طالع كتب المادية الجدلية والفلسفة الإلحادية فترك معتقده الديني وألحد، وبدأ يتأثر بالفكر الماركسي الشيوعي وفي مرحلة لاحقة انضم للينين، وفي عام 1929 أصبح جوزيف ستالين الحاكم الفعلي للاتحاد السوفيتي![1].

كان للإلحاد الأثر الأكبر على تصرفات ستالين ورؤيته للوجود، فقد رأى ستالين البشر كجماعات وظيفية، تأكل لتنتج، ورأى أن الحركة الصراعية هي الصيغة التحليلية الوحيدة للوجود الإنساني -رؤية إلحادية داروينية-.

وقام ستالين بتطبيق رؤيته تلك على الملحدين رفاقه، وبالفعل قتل ستالين مجموعة من أكبر القيادات الإلحادية على الإطلاق في الاتحاد السوفيتي.

حيث قام الملحد ستالين باغتيال الملحد ليون تروتسكي Leon Trotsky ثالث أكبر منظر للفكر الماركسي على الإطلاق ومؤسس وقائد الجيش الأحمر السوفيتي،

=القائد الكبير في الحرب العالمية الأولى- بعد انتهاء الحرب كتب يقول: «الحرب قانون الطبيعة... علينا أن ننسى قليلاً ما تدعونا إليه الأديان».

James Joll, Europe Since 1870, peguin books 1990 p.164

أما فريدريك فوربرنارد Frederick Vorbernard وهو أحد جنرالات الحرب العالمية الأولى فقد كتب يقول: «الحرب حاجة أيديولوجية بقدر حاجة الأحياء في الطبيعة للصراع وتُعطي نتائج مُجدية من الناحية البيولوجية».

Man in process world .pub .co., New York 1961, p.76.

(1) Montefiore 2007, p. 77. Jughashvili's complicity is implied in the memoirs of Constantine Kandelaki, a Social-Democrat and colleague of Jughashvili in Batumi at the time.

حيث أرسل ستالين العميل رامون ماركادير Ramón Mercader والذي اغتال تروتسكي في منفاه بالمكسيك، ومنح ستالين رامون نجمة لينين مكافأةً!

وفي مرحلة لاحقة قام ستالين بالقبض على عائلة ليون تروتسكي وأعدمهم جميعًا![1].

أيضًا أمر الملحد جوزيف ستالين بإعدام الملحد أليسكي ريكوف Alexei Rykov، وأليسكي ريكوف هذا من أكبر أعمدة الاتحاد السوفيتي وكان رئيسًا للاتحاد السوفيتي في الفترة من 1924 - 1929، وقرر ستالين إعدامه بعد محاكمة صورية في عام 1938[2].

وقد أعدم الملحد ستالين ما لا يُحصى من ملاحدة الاتحاد السوفيتي، حتى أعز رفاق عمره مثل نيكولاي بوخارين Nicolai Ivanovitch Boukharine الأمين العام للجنة التنفيذية للكومنتيرن، ورئيس تحرير مجلة الملحدين السوفييت «برافادا» Pravda، وحليف ستالين الأكبر، وقد أرسل بوخارين رسالة إلى ستالين قبل أيام من إعدامه يقول فيها لستالين: «كوبا! لماذا تريدني أن أموت؟»

'Koba, why do you need me to die?'

وكوبا هو اسم ستالين السري أثناء شبابهما!

وقد عُثر على هذه الرسالة في مكتب ستالين بعد وفاته![3].

ولم تمض أيام حتى تم إعدام بوخارين على يد كوبا أو ستالين!

(1) The murder weapon was a hidden cut-down ice axe, not an ice pick Many history and reference books have confused the two Robert Conquest, The Great Terror: A Reassessment, Oxford University Press, 1991, p. 418.

(2) http://www.archontology.org/nations/rus/rus_govt1/rykov.php.

(3) The Unknown Stalin, I.B. Tauris, 2006, chapter 14, p. 296.

وبعدها تم نفي زوجة بوخارين إلى معسكرات الاعتقال![1].

وإذا أردنا أن نسرد جرائم ستالين مع الملحدين رفاق حياته، ربما لا تسعنا الأوقات، فمِن إيغودا Aagoda إلى راكوفسكي Rakovsky إلى كريستينسكي Cristinesca إلى ميخائيل تومسكي Mikhail Tomski إلى ليف كامينيف Lev Kamenev صهر تروتسكي إلى جريجوري زينوفايف Grigory Zinoviev القائمة تطول جدًّا برفاق العمر الملحدين الذين قتلهم الملحد ستالين حين أصبحت في يده القوة والسلطة!

وهذا الأخير جريجوري زينوفايف Grigory Zinoviev قال: إن إعدام الملحدين رفاق ستالين جريمة؛ وفي اليوم التالي مباشرةً تم إعدامه بسبب هذا التصريح![2].

وكان ستالين لا يكتفي بقتل الملحدين رفاق عمره، بل كان يقتل زوجاتهم وأولادهم وكل عوائلهم، وهو نفس ما حدث مع المارشال ميخائيل توخاجفسكي Mikhail Tukhachevsky، قائد الجيش الأحمر السوفيتي ومن أشهر رفاق ستالين، والذي جرى اعتقاله بإشراف رئيس الشرطة السرية نيكولاي يزوف Yezhov, ثم قاموا بتعذيبه حتى أن ورقة اعترافاته كانت ملطخة بالدماء، وحين وقف لاحقاً أمام المحكمة العسكرية المكونة من ضباط تحت إمرته في 11 يونيو 1937 قال: «أشعر كأني في حلم I feel I'm dreaming»[3].

ولم يكتفوا بإعدامه، إذ أرسلوا شقيقاته وزوجته وابنته إلى الكولاج، وأعدموا أشقاءه.

---

(1) http://en.wikipedia.org/wiki/Nikolai_Bukharin.

(2) http://en.wikipedia.org/wiki/Grigory_Zinoviev.

(3) Stalin: Court of the Red Tsar, page 225.

المفارقة أنه بعد مدة قصيرة على إعدام توخاجفسكي تم إعدام خمسة من الضباط الكبار الذين كانوا قضاة محاكمته!

وفي فترة لاحقة، سأل ستالين قائد شرطته نيكولاي يـزوف: ماذا كانت آخر كلمات توخاجفسكي قبل أن يُعدم؟ فقال: «الثعبان -يقصد توخاجفسكي- كان يقول: إنه خادم للدولة والرفيق ستالين، وكان يطلب الرأفة»[1].

هكذا كان ستالين مع رفاقه الملحدين!

هكذا يفعل الملحد حين يُطبق إلحاده!

وما كنّا لنُطلق لقب «الملحد» على ستالين لو لم يفعل ما فعل، فمِن خلال الإلحاد فحسب يمكنك قتل الجميع، وإبادة أقرب الناس إليك، طبقًا لقانون البقاء للأصلح Survival for the Fittest ولا يجوز لملحد أن ينتقدك وإلا فهو لا يفهم الإلحاد!

لكن لماذا قتل ستالين هذا العدد من أعمدة الإلحاد؟

من عجيب ما يُقال هنا: إن الملحد ستالين لم يقتل هذا العدد من الملحدين إلا لأنهم كانوا يرغبون في التبشير بالإلحاد الشيوعي في كل العالم، ويرغبون في احتلال أكبر عدد من الدول الأوروبية، وكان ستالين يرى أن هذه الخطوة قد تدمر الأمة السوفيتية الوليدة، فخاف ستالين أن يُطبق أحد هؤلاء الملاحدة رؤيته الإلحادية تلك واقعيًا، ولذا كان يبادر باستئصال شأفة أي ملحد يُظهر مثل هذه الدعاوى أولًا بأول.

---

(1) The snake said he was dedicated to the Motherland and Comrade Stalin. He asked for clemency.

Stalin: Court of the Red Tsar, page 225

وقد كان تروتسكي يصب جام غضبه على ستالين فالفرصة الإلحادية لن تتكرر كما يرى تروتسكي، والتبشير بالإلحاد الشيوعي لا يجوز لستالين أن يتوقف عنه-عبء الدعوة-، وكان هذا سبب الصدام الرئيس بين ستالين وكل الذين قتلهم، لقد كانت القضية صراع حفنة من الملحدين المجرمين، بعضهم يريد الاحتفاظ بالمكتسبات أولاً -ستالين-، والبعض الآخر يريد التعجيل بتدمير العالم-تروتسكي-"أقصد تبشير العالم بالإلحاد". أقول هذا الكلام حتى لا تأخذكم رأفة بالملحدين الذين قتلهم ستالين، فهؤلاء لو كانت السلطة في يد أحدهم ربما لم تكونوا اليوم لتجدوا أوربا على الخريطة من الأساس! فلم يكن هؤلاء الملاحدة يختلفون إلا في الزمن المناسب لتدمير العالم بالإلحاد، وجاءت الحرب العالمية الثانية لتوقف طموحات ستالين التي أراد أن يعجل بها رفاقه الذين قتلهم![1].

إذن عندما نحاول تحليل الصورة في إطارها الصحيح، فإننا نقول أن الذين قتلهم جوزيف ستالين كانوا أكثر إلحادًا منه، وكانوا أقرب للرؤية الصحيحة للإلحاد، حيث تعتمد رؤيتهم على التغذية الشمولية لكل دول العالم بالإلحاد «الصراعات الداخلية»، وبالأخص دول أوربا، وهذا يعني فتح كل الجبهات وإشعال الفتن في كل الدول وتغذية الصراعات وإبادة كل

(1) When carefully examined the point of conflict between the Stalin and Trotsky groups turns on the theoretical question of whether Theory can be built completely in one land, and that a backward one like Russia, without any help from revolution in other countries. The older view, still held by Trotsky, maintains that more than Russia must be won for the revolution it Socialism is to be a complete success. The newer view, now held by the vast majority of Russian Communists, is that they can do the whole job alone—if they have no foreign war in the meantime.
https://www.marxists.org/reference/archive/strong-anna-louise/1925/12/stalin_vs_trotsky.htm.

المعارضين بأسرع ما يمكن، وهذا هو لُب النظرية التروتسكية Trotskyism التي قاومها جوزيف ستالين بكل قوة ورأى فيها الجنون بعينه، ورأى أن مجرد تطبيقها ينسف الاتحاد السوفيتي ويُسقط فلسفتهم الإلحادية للأبد[1].

فطبقًا للفلسفة التروتسكية الإلحادية عليك أن تُشعل الصراعات في كل مكان -صراع من أجل البقاء بمنظوره المادي الداروينى- فما الماركسية كما يقول بليخانوف Plekhanov إلا تطبيق للداروينية في العلوم الاجتماعية، فالإلحاد صحيح ما كان الإنسان حيوانًا يعيش في صراع دائم، ولذا كان تروتسكي أقرب للإلحاد بكثير من ستالين!

فالإلحاد قد حفر بفلسفته المجنونة قبرًا يكفي لدفن العالم!

وقد كان ستالين أبعد عن جوهر الإلحاد، وأقرب للحلول الذكية التي تقتضي تأخير هذا الإجراء إلى حين يشتد ساعد الدولة، ولذا أتخيل أن ليون تروتسكي لو استطاع أن يصل للحكم بعد فلاديمير لينين وهذا الأمر كان متوقع بشدة، أتخيل أن العالم كله كان سيعيش شتاء نووي مخيف جراء حكم الملاحدة وتطبيقهم لفلسفة إشعال الصراعات في كل مكان في العالم!

وإذا تركنا جوزيف ستالين واتجهنا إلى ماو تسي تونج Mao Zedong -رئيس الصين الملحد- فقد تسبب إلحاده في حقده على الجميع، وخلال فترة حكمه للصين أباد ما لا يُحصى من البشر حتى تم تصنيفه كأكبر مجرم عبر كل التاريخ، فقد قتل من 40 - 70 مليون نسمة[2].

(1) http://en.wikipedia.org/wiki/Trotskyism.

(2) http://www.hawaii.edu/powerkills/NOTE2.HTM.

Modern China: The Fall and Rise of a Great Power, 1850 to the Present. Ecco Press. p. 351.

ومن جملة مَن قام بتصفيتهم ماو تسي تونج أقرب المحيطين به من الملاحدة، فقد أخذ يقتل فيهم بلا هوادة، حتى اتهم النظام الملحد في الاتحاد السوفيتي حليفه القديم بمحاولة اغتياله[1].

فالاتحاد السوفيتي الملحد في تلك الفترة لم يَسلم من جرائم ماو تسي تونج، وصُنف الاتحاد السوفيتي الملحد على أنه عدوٌ للشعب الصيني الملحد، ووقع خلاف شديد بين الملحدين السوفييت وحكومة الصين الملحدة، وكادت تحدث معركة نووية كبرى إلحادية بين نيكيتا خروتشوف Nikita Khrushchev رئيس الاتحاد السوفيتي وماو تسي تونج، وقد قال ماو تسي تونج لخرتشوف مستهزئًا بالحرب مع الاتحاد السوفيتي: « لا يهم أن تفقد الصين 300 مليون في حرب نووية المهم أن يصمد الباقين للنصر »[2].

بل على الصعيد الشخصي الداخلي لم تسلم زوجة ماو تسي تونج في معركته مع الملحدين، فقد حبس ماو تسي تونج زوجته مع ثلاثة من قادة الملحدين في الحكومة الصينية تمهيدًا لإعدامهم فيما يعرف بـ «عصابة الأربعة Gang of Four» إلا أن الموت عاجله![3].

يرى النقاد أنه لا فرق جوهري في طرق الإبادة الشمولية والقتل المليوني بدواعٍ مادية إلحادية بين ماو تسي تونج والاتحاد السوفيتي وألمانيا النازية، فالجميع كانت تُحركهم رؤى إلحادية فجة تستبيح الآخر ولو كان مُلحدًا مثلهم[4].

---

(1) Ion Mihai Pacepa (November 28, 2006). «The Kremlin's Killing Ways».

(2) it would not matter if China lost 300 million people in a nuclear war: the other half of the population would survive to ensure victory».
Jasper Becker (2002). The Chinese. Oxford UP. p. 271

(3) http://en.wikipedia.org/wiki/Gang_of_Four.

(4) Michael Lynch. Mao (Routledge Historical Biographies). Routledge, 2004. p. 230.

يقول ريتشارد فيكارت Richard Weikart: «لقد نجحت الداروينية أو تأويلاتها الطبيعية، في قلب ميزان الأخلاق رأسًا على عقب، ووفرت الأساس العلمي لهتلر وأتباعه، لإقناع أنفسهم ومن تعاون معهم، بأن أبشع الجرائم العالمية، كانت بالحقيقة فضيلة أخلاقية مشكورة»[1].

فقد خلّف الإلحاد وراءه فكرة أن زوال الجنس البشري في أية معركة قادمة هي فكرة قائمة، ولم يعد حتى للملحدين مكان في العالم الإلحادي، فالإلحاد يُسمم الملحدين قبل أن يُسمم غيرهم. وهذا هو الإفراز المتوقع من الإلحاد المادي منزوع القيمة والمعنى.

الإلحاد يسمم جيفارا

(تشي جيفارا Che Guevara 1928-1967)، أو الرفيق جيفارا، ملحد أرجنتيني، قائد حروب عصابات guerrilla leader، أصبح اسمه وصورته شارة عالمية للتمرد في الثقافة الشعبية.

اقترنت شهرته الأساسية بدوره الفعال في الثورة الكوبية مع فيدل كاسترو، وبعد نجاح الثورة كان مسئولاً عن تشكيل فرق الإعدام firing squads للنظام القديم.

اعتبر جيفارا أن سبب عناء العالم يكمن في الرأسمالية والسياسة الأمريكية التي تدعم التكتلات الإمبريالية -الاستعمارية- والأنظمة القمعية عبر العالم، ومن أجل ذلك غالبًا ما تعود صورة جيفارا للظهور في أوساط الشباب مع أية مظاهرة ضد الإمبريالية الأمريكية في أي مكان بالعالم.

(1) Richard Weikart, from Darwin to Hitler, p.215.

وقد كان لنجاح الثورة الكوبية الأثر التفاؤلي الكبير على جيفارا فحاول تصدير الثورة إلى الخارج فذهب إلى الكونغو لكنه فشل فشلاً ذريعًا، ثم اتجه إلى بوليفيا وكان أيضًا الفشل حليفًا له، وقامت القوات البوليفية بالقبض عليه ومن ثَم إعدامه[1].

الصفة اللصيقة بجيفارا طيلة حياته كانت هي العنف والقسوة، وربما يعود سبب قسوته إلى كراهيته الشديدة للأثرياء، فقد طاف جيفارا في مطلع شبابه بدراجته البخارية في عمق قارة أمريكا الجنوبية ورصد بعينه الفقر ومدى البؤس الذي يعاني منه الفلاحون وعمال المناجم، فعاد ناقمًا حانقًا على الأثرياء والرأسماليين.

وأحد صور البطش الذي مارسه جيفارا يعترف به في مذكراته بنفسه فيقول أنه في أثناء الثورة الكوبية وحين كان يقود المتمردين، اكتشف أن أحد الفلاحين قد أخبر الجيش الكوبي بالمكان الذي مروا منه، فقام جيفارا بالقبض على الفلاح وكان يدعى إيتيمو غيرا Eutimio Guerra، وعلم الفلاح أن الإعدام هو مصيره فطلب من جيفارا القتل سريعًا «end his life quickly» وبالفعل قفز جيفارا للأمام ثم أخرج الطلقة النارية في رأس الفلاح، وكتب يقول: «لقد أنهيت المشكلة بطلقة من مسدس عيار 32 مللي في الجانب الأيمن من دماغه وخرجت الطلقة من الفص الصدغي»[2].

وقد اشتهر جيفارا بتشكيل فرق الإعدام السريع ومن بين ما قاله:

---

(1) http://www. Theguardian .com/ books/2000/ aug/ 12/cuba .artsandhumanities.

(2) I ended the problem giving him a shot with a .32 pistol in the right side of the brain, with exit orifice in the right temporal [lobe].
http://en.wikipedia.org/wiki/Eutimio_Guerra
Anderson, Jon Lee (1997). Che Guevara: A Revolutionary Life. New York: Grove Press, p.273.

«الإعـدام رميًا بالرصاص ليس ضرورة للشعب الكوبي وإنما مطلب بشري»[1].

وقد أعدم جيفارا المئات من الشعب الكوبي!

ونظرًا لهذه القسوة فقد وصفه جاكوبو ماكوفر Jacobo Machover مؤلف «معارضة في المنفى»، بأنه الجلاد الذي لا يرحم (ruthless executioner)[2].

واعتبر كثير من الكوبيين ومنهم أرماندو فاياداريس Armando Valladares -الشاعر والناشط الحقوقي الكوبي-، أن جيفارا هو رجل امتلأ كراهيةً «full of hatred a man» فهو الرجل الذي أعدم العشرات دون محاكمة (without trial who executed dozens)[3].

ويقرر الأديب والكاتب الكوبي كارلوس ألبرتو مونتانير Carlos Alberto Montaner أن جيفارا يمتلك عقلية روبسبير «a Robespierre mentality» حيث القسوة تصبح فضيلة[4].

بل يرى ألفارو فارغاس لوسا Álvaro Vargas Llosa -الناشط والكاتب في شئون أمريكا اللاتينية الخارجية- أن أتباع جيفارا مخدوعون لأبعد حد

---

(1) «The executions by firing squads are not only a necessity for the people of Cuba, but also an imposition of the people».
Anderson, Jon Lee (1997). Che Guevara: A Revolutionary Life. New York: Grove Press, p.375.

(2) Behind Che Guevara's mask, the cold executioner Times Online, September 16, 2007.

(3) The Legacy of Che Guevara - a PBS online forum with author Jon Lee Anderson, November 20, 1997.

(4) http://www. freedomcollection .org/interviews /carlos _alberto_ montaner /?vidid=343.
Short interview on Che Guevara with Carlos Alberto Montaner for the Freedom Collection

فهم يتعلقون بأسطورة وهمية «delude themselves by clinging to a myth».

فطبقًا له لم يكن جيفارا أكثر من آلة تقتل بدمٍ بارد

«cold-blooded killing machine»[1].

ويُلقب جيفارا في كثير من الأحياء الكوبية والكوبية-الأمريكية بإسم «جزار لا كابانا the butcher of La Cabaña».

وكان جيفارا سببًا مباشرًا في استمرار النزعة العسكرية الوحشية والصراع الداخلي في أمريكا اللاتينية لسنوات عديدة بسبب حالة التمرد التي بثها في الشعوب اللاتينية!

وعلى الرغم من كل ذلك، وعلى الرغم من كل ما سبق! ستظل صور جيفارا تُطبع على ما لا حصر له من التي شيرتات والقبعات والملصقات، وستظل تلك الصور مصدر ربح للشركات الرأسمالية التي حاربها بكل ما أوتي من قوة.

وسيظل جيفارا الثوري الذي يحلم بإنهاء البؤس مقترنًا بجيفارا الدموي السفاح، فهو جيفارا واحد لكنه يقتل الأثرياء ليطعم الفقراء، وحتمًا هو أخطأ في معادلته تلك بسبب إلحاده، وبسبب بعده عن الدين، فالدين يضبط المعادلة أفضل من الإلحاد حتى ولو كان هذا الدين وثنيًا، فأي دين يقرر أن الغاية لا تبرر الوسيلة، وأن قتل الثري ليس هو الحل الوحيد لإطعام الفقير، لكن رؤية جيفارا الإلحادية الاختزالية القاصرة جعلت منه قنبلة موقوتة تنفجر بغرض الإصلاح فتُفسد أكثر!

---

(1) http://www.independent.org/newsroom/article.asp?id=1535.

ثم إن جيفارا يرى الإنسان مجرد كائن اقتصادي لا يعنيه إلا لقمة عيشه، وهذا تصور اختزالي إلى أقصى درجة، لكنه للأسف التصور الساذج الوحيد الذي يتيحه الإلحاد المادي الفج!

فالإلحاد لن يستوعب الإنسان، فالإنسان ظاهرة متعددة الأبعاد، والفقير قد تكون كرامته أغلى من غناه، وقد تكون حريته الشخصية التي حرمه منها جيفارا -حين كان وزيرًا للصناعة ورئيسًا للبنك المركزي الكوبي ووزيرًا للمالية في نفس الوقت- أغلى من اللقمة التي أراد أن يسد رمقه بها، فليس بالخبز وحده يحيا الإنسان[1].

لكن للأسف هذه هي الرؤية الإلحادية التي أدخلت جيفارا وأدخلت الآلاف مثله من الشباب الرومانسيين الحالمين في حالة من الفوضى والقتل البارد، لتحقيق معادلة اعترف هو نفسه في آخر حياته بخطأها، خاصةً بعد تجربته مع ثورة الكونغو. فقد تبين له أن شعب الكونغو يقبل بشيء من الفقر على حساب القتل البارد الذي كان يريد جيفارا أن يشعله في بلادهم، وخرج جيفارا هاربًا ومعلنًا فشل ثورة الكونغو بعد أن فقد ستة من رجاله الـ12 الكوبيين، وقد اعترف صراحةً أن: «الشعب أفشل الثورة»[2].

فقد تبين له أن الفقير في قمة فقره قد يصفح عن الثري ويتجاوز عنه.

والفقير ينتظر اللحظة التي يتكاتف فيها معه الثري ويعطيه شيئًا من حقه مع الاحتفاظ بإنسانيته واحتفاظ الثري بحياته!.

(1) http://en.wikipedia.org/wiki/Agrarian_Reform_Laws_of_Cuba.

(2)» we can't liberate by ourselves a country that does not want to fight».
«This is the history of a failure».
http://www.theguardian.com/books/2000/aug/12/cuba.artsandhumanities.

والإسلام كدين جعل من الصدقة التطوعية زكاةً مفروضة، وجعل إشباع الجار أصل من أصول الإيمان، قال رسول الله ﷺ: «ما آمن بي من بات شبعان وجاره جائع إلى جنبه وهو يعلم به»[1].

وقال في الحديث الآخر: «ليس المؤمن الذي يشبع وجاره جائع إلى جنبه».

بل إن أول سورةٍ في كتاب الله-سورة البقرة- بها عشرات المواضع المتابعة التي تتحدث عن فضل النفقة في سبيل الله و إطعام الفقراء و إقراض المساكين وحث الناس على البذل والعطاء.

قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٢٧٠﴾ إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾ ۞ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾ لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾﴾ [البقرة: 270 - 274].

هذه هي المعادلة التي لم يرد جيفارا أن يستوعبها؛ لأنها تحمل إطارًا تراحميًّا لا تصادميًّا، وتعاطفيًّا لا تعاقديًّا، وهذه كلها صياغات ميتافيزيقية

(1) صحيح الأدب المفرد للألباني.

مرهقة للملحد، فيتجاوزها سريعًا معلنًا الكفاح المسلح ضد الأثرياء وضد ملاك الأراضي وضد الفلاحين أصحاب المواشي.

وهكذا يُسمم الإلحاد كل فضيلة ويُزهق كل نية صالحة!

إن محاولة تغيير الطبيعة الإنسانية لمواكبة التصور الإلحادي للوجود -بصيغته الشيوعية-، أدت إلى الجنون الذي عانى منه مئات الملايين من البشر، لكن في النهاية ذهب الإلحاد الشيوعي إلى مزبلة التاريخ وانتصر الإنسان بأبعاده التي لم يستطع أن يواكبها الإلحاد الشيوعي، وانتصرت الروح على المادة، والقيمة على لقمة العيش، والكرامة والحرية الفردية على الحتمية المادية الإلحادية الفجة، وخرج بوريس يلتسن رئيس الدولة التي قادت الإلحاد الشيوعي في العالم طيلة ثمانين عامًا من الزمان خرج في أول يونيو 1991 ليقول كلمته الشهيرة: «لم تكن بلادنا سعيدة الحظ فقد تقرر تجربة الإلحاد الشيوعي فينا ودفعنا القدَر في هذا الاتجاه، فبدلاً من اختيار بلدٍ ما في أفريقيا لهذا، شرعوا في إجراء هذه التجربة فينا نحن، غير أننا في النهاية أثبتنا أنه لا مكان لهذه الفكرة، فقد دفعت بنا بعيداً عن الطريق الذي انتهجته دول العالم المتحضرة، وهو ما تعكسه حقيقة أن أربعين في المائة من الشعب يعيشون تحت خط الفقر، بل ويعانون مذلةً دائمة إذ لا يتلقون السلع إلا بعد إبرازهم بطاقات التموين، إنها مذلة دائمة تذكرك في كل ساعة بأنك عبد في هذه الدولة»[1].

لقد سقط الإلحاد الشيوعي بتنظيراته في العالم أجمع قولاً واحدًا!

وسقطت معه جوقة الملاحدة المكرزين -المبشرين- به في بقية دول العالم، وسقطت هيبتهم ووقار أدلتهم التي ظلوا يُقعِّدون لها طيلة قرنٍ كامل

(1) th Congress of the Communist Party of the Soviet Union.

من الزمان، وسقطت الدول التي كانت تكرز بالشيوعية، وسُمع لدحرجتها من أعلى السلم دويٌّ هائل، وتفكك الاتحاد السوفيتي على بضع عشرة دولة، وأصبحت الأحزاب الاشتراكية لا تحمل من الشيوعية إلا دعاوى تحسين مستوى المعيشة ورفع مستوى الدعم والتأمين الصحي، واتفق الجميع على فشل الإلحاد في تحليل ظاهرة الإنسان.

وانتصر الإنسان الحقيقي على الكائن النمطي ذو البعد الواحد الذي حاول جيفارا أن يقولب على شاكلته الإنسان متعدد الأبعاد!.

الإلحاد يسمم المسلمين

كان هناك يومًا ما شخص مجرم أذاق المسلمين الويلات وأباد قرى مسلمة بأكلمها في منطقة البلقان، وأحرق أكباد المسلمين بطول العالم وعرضه في التسعينيات من القرن الماضي، وأرّق كل المصلحين وأذاب عقول أهل البوسنة، وجعل من هتك الأعراض وإهلاك الحرث والنسل غاية في حياته.

إنه السفاح رئيس صربيا ويوغوسلافيا السابق سلوبودان ميلوسوفيتش Slobodan Milošević.

وسلوبودان ميلوسوفيتش كان ملحدًا رسميًا باعترافه، وبسبب ذلك لم يحضر أي رجل دين مراسم دفنه![1].

وقد اتُهم ميلوسوفيتش رسميًا بجرائم ضد الإنسانية وجريمة الإبادة

(1) There were no clergy at the ceremony because Milosevic was an avowed atheist.
http://www.cbc.ca/news/world/milosevic-buried-in-quiet-ceremony-in-his-hometown-1.571728. CBC. 18 March 2006.

الجماعية للمسلمين[1].

وكانت لائحة اتهام ميلوسوفيتش تنص على أنه كان يريد التأسيس لدولة قومية وهي: صربيا الكبرى 'Greater Serbia' وأراد من أجل ذلك إبادة كل الأقليات والأثنيات والأعراق في منطقة البلقان.

وقد كانت بداية القصة في تسعينيات القرن الماضي حين بدأ ميلوسوفيتش في التسوية بين أهل البوسنة والهرسك والحيوانات -نظرة إلحادية حقيرة- فقال: «استقلال البوسنة يذكرني بكاليجولا إمبراطور الرومان حين جعل حصانه عضوًا في مجلس الشيوخ»[2].

وأعلن ميلوسوفيتش بصورة واضحة أنه سيقوم ببث القلاقل في الجبل الأسود وفي البوسنة والهرسك حتى يجد فرصة لإقامة صربيا الكبرى على أشلاء المسلمين في منطقة البلقان.

وبالفعل فقد خرجت المظاهرات في كل مكان تحمل شعارات: الموت للألبان وعاشت صربيا (Albanians Long live Serbia—death to)[3].

والفكرة القومية -صربيا الكبرى- التي يريد سلوبودان ميلوسوفيتش أن يبثها في شعبه هي فكرة إلحادية في محتواها فهي تقوم على الجنس الأفضل والنقاء العرقي، بينما قوام الديانات على التعاون بين الأمم والقبائل ﴿يَٰٓأَيُّهَا

(1) http://news.bbc.co.uk/2/hi/europe/1672414.stm.

(2)http://content.time.com/time/magazine/article/0,9171,983190-2,00.html.
«Bosnia and Herzegovina was illegally proclaimed as an independent state and recognized. That recognition was like when the Roman. Emperor Caligula appointed his horse as a Senator».

(3) Ramet, Sabrina P. (2006). The Three Yugoslavias: State-Building and Legitimation, 1918-2005. p. 351.

ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ﴾ [الحجرات: 13].

ثم إن الأمور الذاتية في الإنسان -الخلقة الإلهية- مثل اللون والصحة والجنس والعِرق وغيره، هذه الأمور التي يقوم الإلحاد بتصنيف البشر خلالها وإعطائهم صك الحياة أو صك الحلقة المفقودة أو صك القضاء عليهم بحجة الانتخاب الطبيعي والبقاء للأصلح، هذه الأمور الذاتية يؤكد الإسلام -أو الدين عمومًا- منذ البدء بعدم جواز حتى السخرية بناءًا عليها فضلاً عن الإبادة والتدمير والتنقية العرقية لجنس دون آخر ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾ ﴾ [الحجرات: 11].

وقال رسول الله ﷺ: «يا أيها الناس ألا إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأحمر على أسود، ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى»[1].

وقال ﷺ: «ابغوني الضُّعَفاءَ، فإنما تُرزقون و تُنصَرون بضُعفائكم»[2].

وهنا يكمن الفرق بين الكهنوت الإلحادي الإجرامي والدين الذي يؤسس لفضيلة الرحمة بين البشر.

نعود إلى ميلوسوفيتش ونؤكد أن حليف مليوسوفيتش في الحكومة

(1) سلسلة الأحاديث الصحيحة للإمام الألباني، رقم (2700).

(2) سلسلة الأحاديث الصحيحة للإمام الألباني، رقم (779).

اليوغوسلافية السابقة بوريسافيتش يوفيتش Borisav Jović أخبر أن ميلوسوفيتش فعليًا كان يطالب بـ: «صربيا نقية عرقيًا».

Republic Ethnically-pure[1].

فكانت بداية المجازر التي اقشعرت لها أبدان المسلمين عبر العالم ومن أوائل هذه المجازر ما جرى في 12 أبريل 1993 حين احتل المجرمون الصرب مدرسة ابتدائية في سربنيتشا وقتلوا داخلها 62 طفل مسلم[2].

وإلحاديًا لا فرق بين إبادة مدرسة أطفال وبين إبادة حظيرة خنازير، يقول بيتر سنجر Peter Singer الأُستاذ بجامعة برينستون Princeton university «حياة رضيع ليست أغلى داروينيًا من حياة شمبانزي أو خنزير»[3].

لكن المجزرة التي هزّت البشرية في ذلك الوقت هي مجزرة سربنيتشا الكبرى Srebrenica massacre التي قام بها الملحد المجرم راتكو ميلاديتش Ratko Mladić وراتكو ميلاديتش كان ملحدًا[4].

وكان جنرالاً في جيش الملحد سلوبودان ميلوسوفيتش، وقام هذا السفاح بقتل 8000 مسلم بوسني في محيط مدينة سربنيتشا في 13يوليو من عام 1995 بهدف التصفية العرقية والإبادة الجماعية[5].

لقد كان المسلمون العزل في قبضة حفنة من المجرمين الملاحدة.

(1) LeBor, Adam (2004). Milosevic: A Biography. p.138.

(2) http://en.wikipedia.org/wiki/Srebrenica_Children_Massacre.
http://www.icty.org/x/cases/oric/trans/en/050713ED.htm.

(3)http://www.lifesitenews.com/news/princeton-professor-singer-and-i-repeat-i-would-kill-disabled-infants.

(4) http://biography.yourdictionary.com/ratko-mladic.

(5) http://www.potocarimc.ba/_ba/liste/nestali_a.php.

قام الملحد المجرم راتكو ميلاديتش بدخول مدينة سربنيتشا يوم 13 يوليو 1995 وجمع الرجال والأطفال من سربنيتشا ثم تعريتهم حتى الخصر، وأدخلهم في مخازن الغلال والمزارع وبدأ يُعمل فيهم النار والذبح بالسكاكين، والتشويه والقذف بالقنابل اليدوية.

يقول أحد الناجين أنه بعد اقتياده إلى أحد مخازن الغلال وبعد رصاصات لا حصر لها انطلقت نحوه ونحو زملاؤه فجأةً شعر بدفء شديد وهو تحت الجثث وكان مصدر الدفء هو الدماء التي أحاطت به من كل مكان والتي ملأت المزرعة بغزارة، وبعد أن توقف القتل والذبح بدأ جنود راتكو ميلاديتش يتفحصون الجثث بحثاً عن شخص فيه حياة، وظل هو يتظاهر بأنه ميت حتى صباح اليوم التالي حيث قفز من الشباك وفر هاربًا[1].

أيضًا يذكر ناجٍ آخر أنه كان محتجزًا مع العشرات في إحدى الشاحنات في مكانٍ ضيق وخانق وكاد العطش يقتلهم، وبدئوا يشربون بولهم بانتظار الموت، ثم فكر أن يقفز وهو وأربعة من رفاقه من الشاحنة وليكن ما يكون. وبالفعل قفزوا مع شدة الألم وشدة العطش والجوع ووجدوا أنفسهم على أكوام من الجثث في قلب إحدى الغابات وكان الوقت فجرًا وظلوا يتسللون منتظرين طلقات نار مفاجئة أو النجاة بعيدة المنال، وبينما هم كذلك إذ وجدوا الحفارات التي أحضرها راتكو ميلاديتش لحفر قبورهم قد ظهرت ووجدوا راتكو ميلاديتش في الموقع يحضر العمليات بنفسه، وفي لحظةٍ فارقة غافلوا الجنود وهربوا بعيدًا[2].

---

(1) http://www.icty.org/#IIA6.

(2) http://www.icty.org/x/cases/krstic/acjug/en/krs-aj040419e.pdf.

صُنفت مجزرة سربنيتشا التي قام بها الملحد راتكو ميلاديتش كأكبر جريمة إبادة جماعية تُرتكب منذ الحرب العالمية الثانية[1].

وفي عام 2005 أي في الذكرى العاشرة لهذه المذبحة قال الأمين العام للأمم المتحدة أن مجزرة سربنيتشا ستظل تطارد الأمم المتحدة إلى الأبد، فقد كان الجميع مقصرون في التصدي للمجرمين[2].

هذه كانت لمحة وإطلالة على سيرة ذاتية لشخصين ألحدا، فكانت النتيجة إهلاك الحرث والنسل والتصفية العرقية للمسلمين الذين وقعوا تحت أيديهم.

فالواقع الذي لا تخطؤه عين أنه لم تظهر مصطلحات مثل« التطهير العرقي، وأكوام الجماجم، وقتل الطوابير، وحقول القتل the Killing Fields إلا داخل الدول التي حكمها ملحدين! ﴿ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ ﴾ [البقرة: 205].

وختاما..

هلك المجرم سلوبودان ميلوسوفيتش في معتقله في 11 مارس 2006 بأزمة قلبية ويرجح البعض انتحاره، هلك الملحد المجرم جزار البلقان «Butcher of the Balkans» كما كان يسميه قاضي المحكمة الجنائية العليا في لاهاي[3].

هلك الملحد المجرم الذي تم تصنيفه طبقًا لمجلة لايف Life magazine في 2010 كواحد من أسوأ الديكتاتوريين في العالم

(1) www.un.org/News/Press/docs/2005/sgsm9993.doc.htm.

(2) http://www.un.org/press/en/2005/sgsm9993.doc.htm.

(3) http://www.theguardian.com/world/2001/jul/01/warcrimes.balkans.

«The World's Worst Dictators»[1].

ومن المضحكات المبكيات أن المحكمة الجنائية الدولية في عام 2007 - أي بعد هلاك ميلوسوفيتش بعام واحد- لم تُدن ميلوسوفيتش، ولتذهب حقوق مئات الآلاف من المسلمين الذين قتلهم ميلوسوفيتش الملحد وعصابته الإجرامية القومية أدراج الرياح.

هذا في الوقت الذي اعترف فيه قائد القوات الصربية فويسلاف سيسلي Vojislav Šešelj أن جميع الجرائم التي ارتكبها الصرب كانت بعلم ميلوسوفيتش وبتوجيهه وبدعمه المباشر ماديًا وعسكريًا[2].

لن تمحو الأيام مجازر الملاحدة بحق المسلمين، ولن ينسى العالم كيف أن ملحد واحد بإمكانه أن يحفر قبرًا يكفي لدفن العالم.

من أجل ما سبق نحن نحذر من الملحدين والإلحاد في بلادنا العربية، من أجل ما سبق نعلنها صراحةً أن: بذرة نشأة ملحد هي بذرة نشأة ميلوسوفيتش جديد ورادكو ميلادتيش جديد!

---

(1) "Power Through Hatred: Slobodan Milosevic». LIFE. 5 December 2010.

(2)"Milošević organized everything. We gathered the volunteers and he gaves us a special barracks, Bubanj Potok, all our uniforms, arms, military technology and buses. All our units were always under the command of the Krajina [Serb army] or [Bosnian] Republika Srpska Army or the JNA. Of course I don't believe he signed anything, these were verbal orders. None of our talks was taped and I never took a paper and pencil when I talked with him. His key people were the commanders. Nothing could happen on the Serbian side without Milošević's order or his knowledge".
LeBor, Adam (2004). Milosevic: A Biography. p.191.

وسينادي الملحد المصري بالقومية الفرعونية حتى يتاح له في مرحلة لاحقة إفناء المسلمين واستئصال شأفتهم.

وسينادي الملحد الجزائري بالقومية الأمازيغية حتى يثير الأحقاد ويخرج الضغائن ويهلك البلاد!

وستظهر قوميات في كل مكان، وعندنا أعداد من الأغرار والمغيبين والسذج والعاطلين ما تكفي تمامًا لملء أي حشد ولتضخيم أية فكرة ولمتابعة أية دعوى مهما كانت هذه الدعوى حقيرة أو إرهابية أو شاذة، والشباب الصغار يغريهم الشاذ ويتلقفون الغريب ويهتمون بالخارج عن النسق.

ودعوى الإلحاد هي جريمة لا تفوقها جريمة على وجه الأرض، فهي تخرب الأخلاق لأن الأخلاق طبقًا لها أمر نسبي ليس له معنى، وبالتالي فكل شيءٍ جائز.

ودعوى الإلحاد ستقوض أركان المجتمع بدعوى التنقية العرقية والجنس الأفضل، والذي يستنكر ذلك سيصبح عبء على الانتخاب الطبيعي والبقاء للأصلح.

ودعوى الإلحاد ستفكك المجتمع إلى قوميات وتغذي الصراعات بين هذه القوميات، فالصراع هو أصل الرؤية الإلحاية للوجود ولظهور الكائنات، وهو شرط لكل حركة، والذي ينظر للبشر بهذه النظرة ستكون عنده بحور الدم أمر بديهي يجب زيادة روافده.

ولذا فمقاومة الإلحاد أولى من مقاومة كل الشواذ والمجرمين والمخربين وقطاع الطرق، فلا توجد جريمة أعظم ولا أخبث ولا أحقر من الإلحاد، فالذي يكفر بالله وينكر وجوده يتفكك عنده كل شيء!

ويتسمم على يده كل خير، وكما يُقال فإن كبائر الفُجار حسنات الملحدين!!!

المقصود مما سبق أن:

الإلحاد يُسمم كل شيء، ولم يكن في العالم خيرٌ إلا في ظلال الدين، ولم يكن فيه خراب إلا في ظلال الإلحاد والوثنية والبعد عن الدين. يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «إنه ليس في الأرض مملكة قائمة إلا بنبوةٍ أو أثر نبوة وإن كل خيرٍ في الأرض فمن آثار النبوات»[1].

لكن قد يسأل سائل ويقول: «إذا كان الإلحاد بهذه السُميَّة الشديدة فلم الحاجة إلى التحذير منه، أليس توضيح الواضحات يُبهمها؟»

المشكلة أن أتباع الإلحاد -وأغلبهم لا يعرفون شيئًا عنه- صاروا يروجون له ويبشرون به بكثافةٍ بين الشباب الصغار حدثاء الأسنان وبين الفتيات الصغيرات فوجب التحذير حتى يتفطّن الشباب ويعي كل راعٍ خطر الإلحاد على رعيته!

التبشير بالإلحاد:

فالتبشير الكهنوتي بالإلحاد صار سمة الملحدين الجدد!

فأسقطوا قطعياتٍ بظنيات، وشكّكوا الناس في الحق والخير والجمال!

مع أن الاستعداد الإدراكي العام والسجل الأحفوري المتطاول لبني الإنسان يؤكدان أن الإلحاد ظاهرة طارئة ووقتية في آن!

ولا شيء يشفع للوجود الإلحادي بطابعه التبشيري الذي نشهده اليوم عند دعاته.

---

(1) الصارم المسلول 256-1.

فالإلحاد فعليًّا أصبح يحمل هَم التبشير بالدوغما Dogma الجديدة، وجدول دعاة الإلحاد الجديد مليء بالزيارات الدعوية التبشيرية في كل مكان، وصار الإلحاد الدين الخفي الأحدث!.

ومقولة أن الإلحاد دين متخفٍّ؛ أصبحت حقيقة واقعة كما يقرر الملحد التطوري ديفيد سلون David Sloan فالإلحاد طبقًا له: «يملك كل سمات الدين المتخفي، بما في ذلك حالة الاستقطاب التي تُشخص نظامه الاعتقادي، بالإضافة إلى سلطة قادته المتعالية على النقد»[1].

فالإلحاد لديه رسالة تتجاوز الاشتغال بالعلم فقط إلى الاشتغال ببلورة رؤية تجاه الحياة وعلاقة الانسان بها.

ومن أجل ذلك وجب التحذير منه وبيان سُميّته الشديدة!

وكمثال واقعي على التبشير الكهنوتي بالإلحاد ما يقوم به الملحد ريتشارد داوكينز Richard Dawkins الذي ينفق من جيبه على حملات دعائية إلحادية كثيرة، وهو مسئول حملة «باص الإلحاد Atheist Bus Campaign» في لندن حيث ينشر على الباصات دعاية للإلحاد[2].

وقد أنفق ريتشارد داوكينز في حملته تلك ما يزيد على 153 ألف جنيه استرليني من أجل نشر لافتات تدعو للإلحاد على 800 أتوبيس تجوب أنحاء بريطانيا[3].

---

(1) Sloan, D. (2012) Atheism as a Stealth Religion; Hoff-post, Posted 12/14/07.

(الاقتباس من كتاب ثلاث رسائل في الإلحاد والعلم والإيمان، د. عبد الله بن سعيد الشهري)

(2) https://www.justgiving.com/atheistbus/.

(3) ibid,.

وقد انتقلت عدوى التبشير بالإلحاد إلى كلٍ من أمريكا وروسيا والسويد وألمانيا وفنلندا.

وتم حجب التبشير بالإلحاد -دستوريًّا- في كلٍ من روسيا والبرازيل واستراليا[1].

لقد أصبح هم التبشير بالإلحاد أمرًا مزعجًا جدًّا لكل مهتم بهذا الملف.

وإذا كان الملحد ينظر للعالم وللوجود ككل على أنه هراء! فلماذا كل هذا الاهتمام والتبشير بشيءٍ لا ينفع ولا يضر؟

ويعترف ريتشارد داوكينز بذلك صراحةً في كتابه «وهم الإله» فيقول: «بعض زملائي يناقشوني، لماذا أنت عدائي جدًّا؟ أليس الجميع هراء؟»[2].

وهذه الروح الإلحادية التبشيرية المتطرفة التي يتمتع بها الملحدين الجدد وبالأخص ريتشارد داوكينز دفعت الملحد الشهير وصاحب ترجمات كتب داروين العالمية مايكل روس Michael Ruse إلى الاعتراف بأن: «ريتشارد داوكينز كارثة حقيقية»[3].

فأن تُبشر بالإلحاد ثم تزعم أن كل شيءٍ هراء فأنت تناقض نفسك!

بل ويقول مايكل روس في موضعٍ آخر: «كتاب وهم الإله جعلني أشعر

(1) http://www.abc.net.au/news/2008-11-26/atheists-snubbed-in-ad-knock-back/220036.

(2) Colleagues come back at me. Why are you so hostile? Isn't it all just harmless nonsense? P.281.

(3) Richard Dawkins is absolute disaster, we are losing this battle. it is just plain silly and grotesquely immoral to claim that Christianity is simply a force for evil.

(من رسالة مايكل روس للفيلسوف دانييل دينيت)

بالخجل من كوني ملحدًا، - داوكينز وجماعة الملحدين الجدد يزدرون حتى من يحاول أن يفهم الدين-، إنه كطالب في السنة الجامعية الأولى يدور بفرح ويصرخ بصوتٍ عالٍ: «مَن خلق الخالق؟» وكأنه اكتشف مسألة فلسفية خطيرة»[1].

مشكلة الملحدين الجدد والتي هم أنفسهم لا يريدون أن يفهموها، أن أسلوبهم الاستفزازي التبشيري، لا يختلف كثيرًا عن أسلوب كهنة العصور الوسطى!.

وقد ورث الملاحدة الجدد منهم هذا الأسلوب، ولذا كتب الفيلسوف الملحد جوليان باجيني Julian Baggini مقالاً نُشر في مجلة Fri Tanke عن عدائية الملحدين الجدد وحقدهم الشديد على كل ما هو ديني فقد كتب يقول: « حركة الإلحاد الجديد مدمرة»[2].

ويقرر جوليان باجيني أن الملحدين الجدد يؤكدون بتصرفاتهم على أن الملحد لا يستطيع أن يعيش بدون أساقفة وقساوسة للإلحاد![3].

فالواقع الذي لا تُخطؤه عين أن الإلحاد الجديد حتى في نسخته العربية صار مُثقلاً بمضامين دعوية تبشيرية كبرى، فمن كتب إلحادية غربية تتم ترجمتها إلى العربية بانتظام، إلى قنوات على اليوتيوب، إلى لقاءات تليفزيونية لا يألون جهدًا في حضورها مُضحين بسلامتهم الشخصية في مقابل الترويج لإلحادهم الكهنوتي، إلى حلقات وفقرات ووثائقيات وأفلام لا تنتهي على اليوتيوب

(1) The god Delusion made me ashamed to be an atheist. Thus, like a first-year undergraduate, he can happily go around asking loudly, «what caused god?» as though he had made some momentous philosoohical discovery Dawkins et al bring us into disrepute.

(2) http://fritanke.no/index.php?page=vis_nyhet&NyhetID=8484.

(3) المصدر السابق.

يترجمونها أو يقومون هم بتصويرها، إلى تسجيل لقاءات مع ملحدين جدد، إلى صفحات لا تُحصى على الشبكة العنكبوتية تضيع فيها الأعمار وتُنفق من أجلها نفائس الأموال، إنه كهنوت تبشيري يدعو للإلحاد.

ولم يعد بالإمكان استيعاب أن من وراء كل هذا الكد والجهد عدم محض Null.

وقد أخبرتني والدة أحدهم أن ابنها كان ينفق بشراسة ويُعنفها لمجرد تأخرها في إعطاؤه ما يرغب فيه من أموال- من أجل الإنفاق على مشاريعهم الدعوية-.

لقد صار الإلحاد الجديد مترعًا بلغةٍ تبشيريةٍ ونكهةٍ وعظيةٍ دعوية من العسير العودة عنها لمن أُشربها قلبه، فجعلوا من كهنوتهم الإلحادي إلهًا من دون الله ﴿ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ ﴾ [الفرقان: 43].

لذا يأتي التحذير من الإلحاد كنتيجةٍ طبيعية لممارسات هؤلاء الكهنة!

لكن هل انتشار الإلحاد في آخر الزمان أمر متوقع؟

نعم! وكهنة الالحاد يحملون هَم التبشير بالإلحاد طمعًا في الوصول بالإنحلال إلى محطته الأخيرة، حيث بالفعل سيأتي اليوم الذي لا يقال فيه: الله الله، كما في الحديث الصحيح!.

فالإلحاد إفـراز متوقع في آخر الزمان حيث سيختفي معنى القيمة والمعيارية، ويتهارج الناس تهارج الحمر-أي يزنون في الشوارع فلا يشعرون بخطأ ولا بمعنى لكلمة خطأ- كما في الحديث.

وحيث تظهر الفتن التي تدع الحليم حيرانًا.

والأحاديث كلها في فتن آخر الزمان.

قال رسول الله ﷺ: «يخرج في آخر الزمان رجالٌ يلبسون للناس جلود الضأن من اللين ألسنتهم أحلى من العسل وقلوبهم قلوب الذئاب، يقول الله عز وجل أبي يغترون أم علي يجترئون فبي حلفت لأبعثن على أولئك منهم فتنة تدع الحليم حيران»[1].

وفي الحديث الآخر قال رسول الله ﷺ: «بادروا بالأعمال فتناً كقطع الليل المظلم»[2].

ولا أستبعد أن تكون هذه الفتن فرضيات علمية تنسيهم الله وتقربهم من الإلحاد، وواقع مرير يلتبس فيه الحق بالباطل وتضمحل فيه معالم الشريعة السمحة!.

من أجل كل ذلك كانت جهودنا مُنصبة على إظهار سُميّة الإلحاد أمام هذا التبشير الغير مُبرر به!.

(1) صحيح الترغيب والترهيب، للمنذري.

(2) صحيح مسلم.

الفصل الثاني

الإلحاد يخالف بديهيات المنطق وأوليات العقل وألف باء علم

الفصل الثاني

الإلحاد يخالف بديهيات المنطق وأوليات العقل وألف باء علم

قانون فيزيائي ينقض الإلحاد

لم يكن يطمع الملاحدة في شيء أكثر من إثبات أزلية العالم المادي، لأن أزلية العالم قد تحررهم ولو جزئيًّا من إلزام الصانع، ولذا كان لإثبات بداية العالم المادي وقعٌ محرج جدًّا وصادم جدًّا عليهم. يعترف الفيزيائي الملحد ستيفن واينبرج Steven Weinberg، أنه كان يتمنى نظرية الكون الثابت الأزلي، لأنها أكثر جاذبية، وأبعد عمَّا نادت به الأديان[1].

لكن أُمنيات ستيفن واينبرج اصطدمت أول ما اصطدمت بحائط العلم نفسه، ولم يعد لها مكان داخل العلم المادي، يقول الفيزيائي البريطاني دينيس شياما Dennis Scaima «لم أُدافع عن نظرية الكون المُستقر لكونها صحيحة، بل لرغبتي في كونها صحيحة، ولكن بعد أن تراكمت الأدلة فقد تبين لنا أن اللعبة قد انتهت»[2].

فاللعبة قد انتهت فعلاً، وبذلك يعترف أنتوني فلو Antony Flew

---

(1) عالم داخل عالم، نيل توروك، ص226.

(2) The Unity of the Universe, N.Y., Doubleday, Dennis William Sciama, introduction.

فيلسوف الإلحاد في القرن العشرين قائلاً: «يقولون إن الاعتراف يفيد الإنسان من الناحية النفسية، وأنا سأُدلي باعترافي: إن نموذج بداية الكون شيء محرج جدًّا بالنسبة للملحدين، ذلك لأن العلم أثبت فكرة دافعت عنها الكتب الدينية»[1].

ولذا لا أكاد أحاور ملحدًا إلا وأرى عنده نزوعًا نحو القول بأزلية العالم المادي، مع أن هذه مسألة تصادم العلم، لكنه هاجس الإلحاد الذي يجعل الملحد يتنكر لقوانين العلم في مقابل أيديولوجيته.

ولذا لم يكن صراع جيمس هارتل وإغراؤه لستيفن هاوكنج إلا لتحرير فرضية يستغنون بها عن فكرة بداية الزمان، لأنهم يعرفون أنه لا مكان للإلحاد في عالم له بداية في الزمان حيث ستصبح الإحالة إلى الماوراء -الخالق- إحالة عقلية مائة بالمائة ومستندها المعطى المادي ذاته، وقد اقترح هاوكنج وهارتل ما يُعرف بالنموذج الكمومي للكون، وهو يعتمد على مفهوم الزمن التخيلي imaginary time للهروب من فكرة بداية الزمان المرهقة لاهوتيًّا.

ويقرر السير هربرت دنجل Sir Herbert Dingle رئيس الجمعية الفلكية الملكية بإنجلترا، أن مفهوم الأرقام التخيلية إذا كان صحيحًا من الناحية الرياضية، فلا اعتبار له في الناحية التطبيقية، ويستدل على ذلك بمثال يعرفه كل التلاميذ الدارسين للرياضيات: إذا كان عدد الرجال المطلوبين لوظيفة ما هو x وكان x في بعض المعادلات لها عدد من الاحتمالات موجبة وسالبة، عدد صحيح وكسر وعدد تخيلي، عدد مركب وصفر ولا نهاية، أو أي شكل من الاشكال التي ولدّتها عقول الرياضيين، فإننا بالتأكيد سنعتبر x

(1) Henry Margentau, Roy A. Vargesse. Cosmos, Bios, Theos. La Salle Il: Open Court Publishing, 1992, 241.

(عدد الموظفين المطلوبين) رقم صحيح موجب ونرفض باقي الاحتمالات، إن الرياضيات لا تستطيع وحدها الاختيار بين البدائل في المثال السابق وسنعتمد على المنطق والخبرة والتجربة.

ومن ثَم فإن الزمن التخيلي الذي نشأ عن وضع الأرقام التخيلية في معادلات هاوكنج لا اعتبار له، وسينقلب إلى زمن حقيقي إذا استُبدل الرقم التخيلي برقم حقيقي، عندها ستظهر الحاجة إلى المسبب الأول.

إذن الجذر السالب ليس كَمية فيزيائية، وبالتالي ليس له وجود فيزيائي.

ونظرًا لسذاجة نموذج هوكنج-هارتل لم يعد يعول حتى الملاحدة الغربيين عليه في تفسير نشأة الكون.

الدليل على أن للكون بداية

أحد أكبر أدلتنا على أن للكون بداية وللزمان بداية هو القانون الثاني للديناميكا الحرارية Second Law of Thermodynamic ولتبسيط هذا القانون:

فأنت لو كان عندك كوب ماء ساخن في الغرفة فإن الحرارة ستنتقل من الماء الساخن إلى جو الغرفة حتى تعادل درجة حرارة الغرفة درجة حرارة الكوب، وهكذا يسري هذا القانون على كل شيء في الكون وفي لحظةٍ ما ستتعادل حرارة كل شيء في الكون وعند هذه اللحظة سيحدث الموت الحراري للكون Thermal Death of Universe.

ولو كان الكون أزليًا لكان المفترض أن يصير الكون متوقف الآن -ميت حراريًا-، لكن في الواقع الكون الآن في حالة أقل من الانتروبي القصوى،

ولم يصل للموت الحراري بعد إذن هو ليس أزليًا، وله بداية ثابتة ظهر معها الزمان والمكان.

بل لقد ظهر الكون عن الحد الأدنى من الأنتروبي، وهذا يعني أنه حدوثه على غير مثالٍ سابق -مُبدع-.

بالمناسبة هذا قانون وليس نظرية!

وهو يسري على كل شيء، على الذرة وعلى المجرة!

القانون الثاني للديناميكا الحرارية يسقط الوثنية

أيضًا للقانون الثاني للديناميكا الحرارية لوزام أخرى تُسقط فلسفات وثنية كبرى مثل الهندوسية والبوذية والديانات الصينية التقليدية.

حيث تقوم هذه الديانات الوثنية على فرضية دوران الزمان -الزمن يسير في دورات cycling - حيث يعيد الزمان نفسه كل بضعة ملايين من السنين، لكن هذا القانون ينسف هذه الفرضية الوثنية، حيث يقرر هذا القانون أن الزمن يسير بطريقة خطية Linear وليس بطريقة دورية cyclic فيستحيل أن تنتقل الحرارة من جسم بارد إلى جسم أسخن.

يستحيل أن ترتفع درجة حرارة الكوب الساخن على حساب الغرفة الباردة، وبالتالي هذا القانون ينسف الفكرة الدورية للزمن والعوالم.

وأصبح هذا القانون يمثل أكبر ضربة يوجهها العلم لفلسفة دينية على الإطلاق وكانت الضربة من نصيب الديانات الهندوسية والبوذية والصينية التقليدية، وهذه كبرى الديانات الوثنية في العالم.

فقد تبين أن الزمن يسير باتجاه خطي للأمام وليس دوري ولا رجعي للخلف.

وهذا قانون لا ينكسر ولا ينخرم وبالتالي ففرضية دورية الزمان كما في الوثنية الشرقية أو أزليته كما في الوثنية الإلحادية تجعله في صدام مباشر مع قوانين الطبيعة ذاتها!

ويمكن استخدام هذا القانون لتحرير حجج أكبر ضد الإلحاد مثل:

1- إسقاط التطور: فالتطور يقوم على أن الزمن عامل بناء ومع الزمن يحدث تطور للأنواع، لكن القانون ينص على أن الزمن عامل هدم، وأن الطبيعة المادية لا تكفل مزيد من التعقيد مع الوقت بل الأصح مزيد من الهدم والتفكك والتبسيط.

2- إثبات العناية الإلهية والتدخل الإلهي في كل لحظة: فالتدخل الإلهي في كل ثانية وفي كل جزء من مليار جزء من الثانية - كل فيمتو ثانية يحدث تدخل إلهي - وإلا لتوقفت الحياة، والفيمتو ثانية هي الفترة الكافية لحدوث تفاعل كيميائي يمكن رصده.

وأي تفاعل كيميائي يحدث داخل الخلية يسير عكس قانون الديناميكا الحرارية الثاني، فهذا القانون يشترط أن الكون يسير نحو الهدم والتبسيط والتفكك، بينما التفاعل في الخلية يسير نحو البناء والتعقيد فالحياة تسير عكس قوانين الطبيعة وهذا لا يحدث إلا في حالة تدخل إلهي في كل لحظة.

وهذا ينسف أيضًا المذهب الربوبي القائل بالعزلة الالهية - تعالى الله عما يقولون -.

إذن القانون الثاني للثرموديناميك ينسف الوثنية وينسف الإلحاد وينسف الربوبية، وبذلك يكون الإيمان بالله قيوم السماوات والأرض -القيوم بذاته المقيم لغيره- حقيقة لا تنفك عن المتفكر في خلق السماوات والأرض ﴿ ٱلَّذِينَ

﴿يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا سُبْحَـٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾﴾ [آل عمران: 191].

لكن قد يقول قائل: قانون الديناميكا الثاني يُثبت بالفعل بداية العالم ويُثبت سقوط الفلسفات الوثنية، لكن التفاعلات داخل الخلية تسمد طاقة باستمرار من الخارج، وبالتالي قد يحدث البناء داخل الخلية بما لا يخالف القانون الثاني للديناميكا الحرارية!

الرد:

هنا يظهر إشكال: فنقص الأنتروبي في مكانٍ ما ليس له ما يبرره ذاتيًّا وليس له ما يبرر استمرارية نقصه على نحو مضطرد في هذا الجزء -الخلية- في مقابل زيادة الأنتروبي في الجملة إلا بتدخل خارجي-انكسار نموذج الغلق في الديناميكا الثاني-.

وبالتالي فأن يحدث مصادفةً نقص الأنتروبي في جزءٍ ما هذا بالفعل لا يمنعه قانون الديناميكا الثاني طالما أن الكون في الجملة يتجه نحو زيادة الأنتروبي، لكن أن يصبح النقص في الأنتروبي ظاهرة مطردة -مستمرة- بانتظام في هذا الجزء دون بقية الأجزاء ولا ينفك عنه، فهذا مما يجعل الإشكال له وجه وقولنا بتدخل إلهي كل فيمتو ثانية، وانكسار الغلق أقوى منطقيًّا من افتراض انتظام وقوع مصادفة نقص الانتروبي منذ لحظة ظهور الحياة على الآرض وحتى الساعة، وعدم حدوث العكس الذي هو زيادة الانتروبي والذي هو المفترض أن يحدث في كل لحظة وفي أي لحظة وفي أي مكان على الأرض ومع ذلك العكس دائماً يحدث.

ولا يمكن تفسير هذه المصادفة السعيدة طوال هذه المدة وعلى طول هذه الأنظمة.

فيصبح القول بالتدخل أقوى منطقيًا وأقرب ذهنيًا وأسهل تحليليًا.

وقد يقول آخر: أن الأنتروبي يزيد داخل الأنظمة المغلقة والأرض نظام مفتوح فهي تستمد طاقة ثابتة وباضطراد من الشمس، وهناك طاقة من باطن الأرض، وهناك تبادل الليل والنهار والتبادل الحراري الحادث عن هذه الظاهرة وما إلى ذلك.

الرد:

في الواقع زيادة الأنتروبي فعليًا أمر قطعي في الأنظمة المغلقة، وأمر ظني قوي في الأنظمة المفتوحة.

لكن هنا نحن لا نتحدث عن الأرض ليصادر شخص ما على الاستدلال ويقرر أن الأرض نظام مفتوح وليست نظام مغلق، وإنما حديثنا عن المنظومة الحياتية، والمنظومة الحياتية من وجهة نظري هي نظام مغلق لأنها لا تتفاعل مع البيئة المحيطة باكتساب طاقة تلقائيًا ولا إراديًا وإنما التفاعل إرادي لا تلقائي وهذا يعني أن النبات لكي يكتسب طاقة من التربة عبر جذوره فإنما يستخدم خواص مستقلة هادفة واعية مثل الخاصية الأسموزية، وعندما يكتسب طاقة من الشمس فإنه يوفر لها حبيبات اليخضور "الكلوروفيل"، ويضع فيها خصائص عالية الدقة والتوجه بحيث يحصل على الاستفادة من الكلوروفيل وإلا فإنه لن يستفيد بشيء.

وهنا يظهر جليًا أن المنظومة الحياتية لو تُركت بلا إرادة ولو تركت بصيغة تلقائية منذ البدء فلن يحدث لها إلا زيادة في الأنتروبي وبالتالي يصبح السؤال هو: ما مصدر الوعي والإرادة ولماذا تسير المنظومة الحياتية ككل عكس منظومة كونية وهي القانون الثاني للديناميكا الحرارية وتسير عكس زيادة الانتروبي؟

إلا إذا كان هناك تخطيط مسبق ووعي و إرادة.

إذن المنظومة الحياتية منظومة مغلقة في أصلها ولم تنفتح إلا بصنع مسبق و إرادة وتخطيط سابقين، وهنا يصبح قفز الملحد بتقرير أن المنظومة الحياتية منظومة مفتوحة هو مصادرة على المطلوب، فلابد أن نعرف أولاً كيف تكون نظام مفتوح مع أنها ذاتيًا لا تكون نظام مفتوح وإنما الذي يتيح لها هذه الخاصية هو الوعي والإرداة وهي خصائص لا تكسر القانون الثاني للديناميكا الحرارية إلا بتدخل -إلهي- يعطيها هذه السمة وهذه المزية.

وقد أظهرت الكيمياء الحيوية خطأ من يزعم أن المحصلة الإنتروبية للنظام بوجه عامٍ تزداد ولا يلزم من ذلك في رأيه زيادة إنتروبية جميع أجزاء النظام.

فتفاعل الأحماض الأمينية ماصة للطاقة وليست طاردة لها، وبالتالي هي من المفترض أن تزيد الأنتروبية!

دعونا في البداية نتفق على قانون الزيادة في الانتروبي S▲:

S=q/t1▲

حيث q: مقدار الحرارة المضافة للنظام أو الممتصة منه.

و t1: درجة حرارة النظام قبل امتصاص أو فقدان المقدار q.

نستطيع من القانون السابق تحديد ما إذا كان النظام قد قلت انتروبيته S▲ سالبة، أو زادت S▲ موجبة.

فإذا فقد النظام طاقة حرارية تصبح q سالبة فيصبح ناتج القسمة على t1 سالباً، أي أن النظام قد قلت انتروبيته، ويحدث العكس لو اكتسب النظام طاقة حرارية.

فتفاعل الأحماض الأمينية ماصة للطاقة وليست طاردة لها. وهذا ينطبق على أي تفاعل بناء anabolism.

وهو ما يعني ببساطة أن التفاعل هو الذي يمتص الطاقة من الطبيعة لا العكس، وهذا يعني زيادة الانتروبي والفوضى في نظام التفاعل مما لن يمكنه من الصمود لما يكفي حتى يتمكن من بناء بروتين كامل.

وبالتالي بدون تدخل إلهي، لن تكتمل المنظومة الحيوية!

قانون رياضي ينقض الإلحاد

يفترض الإلحاد أن الوعي قضية مادية مستقرها الدماغ.

وبما أن الذرات التي تُشكِّل مادة الدماغ هي من نفس نوعية الذرات المادية التي تشكل مادة الأرض والعالم المادي.

وبما أن تفاعلات مادة الدماغ هي أحداث لجزيئات أولية تخضع لقوانين فيزيائية.

وهذه الذرات بتفاعلاتها ليس لها أن تختار بين التجريد والواقع، فهي تسير في حتميات مادية لا تنفك عنها.

وبالتالي وبناءًا على ما سبق فأنت في مجموع ذراتك يستحيل أن تُدرك مُتغير يتراوح بين الواقع والتجريد.

إذ كيف يستقي دماغك المادي معنى شيء غير موجود في عالمه؟

ثم ما حاجتك إلى ذلك التجريد إذا كان نظامك البيولوجي لا يقتضيه؟

فإذا كنت مجرد مادة وعالمك الداخلي والخارجي مادي مجرد- كما يقتضي الإلحاد- فلن تُدرك إلا أحداثًا وآثارًا مادية!

ويستحيل أن تستوعب التجريد ولا القيمة الصفرية في الرياضيات 0.

والقيمة الصفرية في الرياضيات هي أساس علوم البرمجيات، وأساس اتصال الشبكات وأساس جهاز الكمبيوتر الذي تم إخراج هذا الكتاب من خلاله.

فإذا كان للإلحاد معنىً فلن تقرأ شيئًا مما أكتب.

وإذا كان الإلحاد صحيحًا فلن تستوعب الرياضيات التجريدية.

بل لن يتم التأسيس لعلوم أكاديمية وفلسفية عملاقة تقوم عليها مؤسسات ضخمة قوامها الأكبر هو الفروض العقلية.

لو كنّا أبناء العالم المادي لما كان للتجريد الرياضي معنىً، ولانهارت علوم كاملة أولها البرمجيات.

فوجود الإنترنت وبرمجة الكمبيوتر التي استطعنا من خلالها الانتهاء من هذا الكتاب لأكبر دليل على سخافة الإلحاد والتحليل المادي!

قانون قيّمي ينقض الإلحاد

وقبل أن نتعرض لهذا القانون دعوني أحكي لكم قصة جميلة:

كان في الأمم السابقة أولياء صالحون، وعباد زاهدون، وكان جريج العابد أحد هؤلاء الصالحين الذين برّأهم الله عز وجل، وأظهر على أيديهم الكرامات، بعد أن تربص به المفسدون، وحاولوا إيقاعه في الفاحشة، وتشويه سمعته بالباطل، وقد قص علينا خبره - نبينا ﷺ - في الحديث الذي رواه البخاري و مسلم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة، عيسى ابن مريم، وصاحب جريج، وكان جريج رجلا

عابدا، فاتخذ صومعة فكان فيها، فأتته أمُّه وهو يصلي، فقالت: يا جريج، فقال: يا رب أمي وصلاتي، فأقبل على صلاته، فانصرفت، فلما كان من الغد أتته وهو يصلي، فقالت: يا جريج، فقال: يا رب أمي وصلاتي، فأقبل على صلاته، فانصرفت، فلما كان من الغد أتته وهو يصلي، فقالت: يا جريج، فقال: أي رب أمي وصلاتي، فأقبل على صلاته، فقالت: اللهم لا تمته حتى ينظر إلى وجوه المومسات، فتذاكر بنو إسرائيل جريجا وعبادته، وكانت امرأة بغي يُتَمثَّلُ بحسنها، فقالت: إن شئتم لأفتِنَنَّه لكم، قال: فتعرضت له فلم يلتفت إليها، فأتت راعيا كان يأوي إلى صومعته، فأمكنته من نفسها، فوقع عليها، فحملت، فلما ولدت قالت: هو من جريج، فأتوه فاستنزلوه، وهدموا صومعته، وجعلوا يضربونه، فقال: ما شأنكم، قالوا: زنيت بهذه البغي فولدت منك، فقال: أين الصبي، فجاءوا به، فقال: دعوني حتى أصلي، فصلى، فلما انصرف أتى الصبي فطَعَنَ في بطنه، وقال: يا غلام، من أبوك؟ قال: فلان الراعي، قال: فأقبلوا على جريج يقبِّلونه ويتمسحون به، وقالوا: نبني لك صومعتك من ذهب، قال: لا، أعيدوها من طين كما كانت، ففعلوا».

الآن انتهت القصة؛ ولا يعنينًا تكذيب الملحد لها-فليست الحجة في صحتها فنحن لا نحتج على الملحد بما لا يؤمن به، وإنما الحجة في القيمة التي تكمن ورائها-، الذي يعنينًا هو تسليمه بصحة القيمة التي ترتكز عليها القصة.

والقيمة هنا هي: التمرد على المرأة البغيّ، وتسجيل الإعجاب بما قام به جُريج العابد!.

لكن لو كان الإلحاد صحيحًا لأصبح من المستحيل أن يقاوم جريج العابد إغراءات المرأة البغي!

ومن المستحيل بنفس الدرجة أن نُفضّل نحن مقاومته على استسلامه لها!

إن ما قام به جريج العابد محال إلحاديًا ومحال تطوريًا، فكيف يُفوّت جريج العابد فرصة تمرير جيناته؟

- ألسنا مجرد مستعمرات لناسخات الـDNA وRNA كما يقول ريتشارد داوكينز في كتابه «الجين الأناني»؟

إن انبهارك بصمود جريج العابد يعني أنك أنت الآخر تؤمن أن الإلحاد مجرد وهمٌ فارغ!

لو كان الإلحاد صحيحًا لما استوعب جريج العابد معنى التمرد، ولما استوعبنا نحن معنى التعفف!

فالتمرد والتعفف مصطلحات لا تنتمي إلى هذا العالم المادي ولا يمكن تحليلها في إطار الإلحاد!

فإذا كان تصرف جريج العابد يستحق المديح فهذا يعني ببساطة أننا لسنا مفّصلين على الطراز المادي الدارويني، وأن الإلحاد مجرد دعاية حمقاء، ولعبة يريد تطبيقها الأخسرين أعمالاً!

قانون منطقي ينقض الإلحاد

تخيل وجود جنين ملحد في بطن أمه!

كيف ستقنع هذا الجنين بوجود عالم آخر عجيب وعظيم خارج بطن أمه؟

عالم به نواميس مختلفة، وشمس وقمر وبحار وبه أنهار وعوالم لا تنتهي وسعداء وفجار.

تخيل أن هذا الجنين له أخٌ توأم نزل قبله، وسألته أين ذهب أخاك، أليس يقول في رباطة جأش الملحد: أخي خلا منه المكان ومات ودُفن تحت في الأعماق، ولا حياة خارج ما نحيا ولا غذاء لنا إلا في الأحشاء؟

والمسكين لا يعلم أن أخاه ذهب لدنيا جديدة وعالم أرحب وأوسع من بطن أمه، وتحكمه قوانين وموازين ونُظم تختلف أو تقترب من حياته الأولى، وهو بعد لحظاتٍ ذاهبٌ إليها!

تخيل الآن أيها الملحد! لو عُرض فيلم في التليفزيون فقُطع في وسَطه وقيل انتهى؛ لما صدّق أحد من المشاهدين أنه انتهى، ولنادوا ماذا جرى للبطل؟ وأين تتمة القصة؟

ذلك لأنهم ينتظرون بفطرتهم وما جُبلوا عليه أن تنتهي القصة، ويُسدد حساب أبطالها.

فيكف يصدق عاقل أن قصة الحياة تنتهي بالموت ولم يُسدَّد الحساب بعد؟

والقرآن الكريم يربط الاستشهاد بصحة البعث ويوم القيامة، بدليل يشاهده منكر البعث كل يوم ولا تخطئه عينه، ألا وهو دليل مراحل الخلق وتبدلها فلا الذي في بطن أمه يصدق أن هناك عالم أعظم بقوانين جسدية أخرى خارج بطن أمه، ولا الذي يسير على ظهر الأرض يظن أن هناك عالم آخر ينتظره به نواميس أخرى أحكم وأعجب.

فقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ

أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ [الحج: 5].

فكيف رأى الملحد الولادة موتًا، والموت فناءٌ كامل؟

قانون أخلاقي ينقض الإلحاد

في البداية الأخلاق نوعان:

أخلاق مصلحية منفعية أنانية مادية، وهي تسمى أخلاق المجتمع - أُعاملك بأدب كي تعاملني بأدب - وهذه ليست الأخلاق الأصيلة التي يؤسس لها الأخلاقيون - أنبياء ومصلحين -، عبر كل العصور والأزمان.

وهناك النوع الثاني من الأخلاق وهي تسمى الأخلاق الأصيلة، وهذه الأساس واللب والحقيقة. وهي التي أسس لها المصلحون عبر التاريخ. مثل أخلاق: الصدق والعدل والأمانة والتضحية والإيثار والقناعة والحِلم والرضا وكل معاني حُسن الخُلُق.

لكن هذه الأخلاق تأتي مباشرةً ضد المصلحة الشخصية، فهي غير مربحة عمليًا.

بل هي ضد المادة، وضد العقل.

ولم يتم البرهنة عليها عمليًا أو عقليًا إلى يومنا هذا.

فالعمل الأخلاقي في الأساس لا يكون أصيلاً إلا لو انتفت عنه الفائدة المادية أو الرياء أو أية منفعة شخصية.

لكن هذا النوع من الأخلاق لا يمكن تبرير وجوده في عالم إلحادي مادي.

بل إن وجوده أو الاعتراف بوجوده هو أكبر ضربة يمكن توجيهها للفكر الإلحادي على الإطلاق!

فالإنسان من منظور مادي أرضي هو كائن عضوي ذو ثلاثة أبعاد، حدود الطبيعة هي حدوده، يسري عليه ما يسري على الظواهر الطبيعية، فهو شيء بين الأشياء يمكن دراسته في إطار دوافعه الاقتصادية والمادية فحسب.

وبالتالي فإن أي حديث عن الأخلاق الأصيلة هو ضرب من القول بالميتافيزيقيا، وإدخال عناصر غير مادية على النموذج الإلحادي المادي المُجرد.

فالأخلاق في هذا الإطار تمثل ثغرة في النظام الطبيعي، تمثل تمردًا على قوانين المادة.

وقد دخل الإنسان إلى التاريخ برأس مال أخلاقي مبدئي هائل. ومن هنا فقد ظهرت تلك اللحظة التي صنعت عصرًا جديدًا كما يقول علي عزت بيجوفيتش رحمه الله في كتابه: «فالأخلاق الأصيلة التي ظهرت مع الإنسان أكدّت منذ اللحظة الأولى على أصالة ظهوره و تمرده على الطبيعة التي نشأ منها»[1].

وفي هذه اللحظة صار الإنسان هو المركز والطبيعة هي الهامش.

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ ﴾ [الأحزاب: 72].

والماديون الذين يحاولون تحليل ظهور الأخلاق في إطار المادة، هم يقدِّمون أسهل طريقة لإسقاط الإلحاد، لأن المادة مهما تعقّدت لن تأتي بأنساقٍ غير مادية كالأخلاق!

فالمادة مهما تعقّدت لن تنتج شيئًا سوى المادة.

---

(1) الإسلم بين الشرق و الغرب، لعلي عزت بيجوفيتش.

فالأخلاق الأصيلة وقيّم الإنسان الأولى التي دخل بها العالم، وحريّته وترّفعه وتمرّدة على المادة كلها أنظمة لا يمكن بحالٍ ردها إلى العالم المادي المجرد!.

إن كل هذه الأمور لتؤكد على تلك المقدمة السماوية التي دخل بها الإنسان إلى العالم!.

فالأخلاق ثغرة معرفية كبرى في النسق الكوني؛ ولذا لا يمكن إخضاعها لقوانين الطبيعة وحتميات ماركس التاريخية، أو حتميات داروين العضوية، أو حتميات دوركايم الإجتماعية.

وهذا الاختلاف بين الأخلاق والطبيعة يُعبِّر عن نفسه في الاختلاف بين المؤشِّر في العلوم الطبيعية والمؤشِّر في العلوم الإنسانية كما يقول الدكتور عبد الوهاب المسيري رحمه الله.

فأقل تحرير للنظر في مسألة الأخلاق يجعلك تدرك وبسهولة أنها تسير عكس الطبيعة أو بمعنى أدق لا علاقة لها بالطبيعة.

فالأخلاق ثغرة في الزمان فهي نتاج خلق، والله خلقها كاملة؛ لأن الله لا ينتج ولا يشيد وإنما يخلق، وكل هذا كما قلنا يؤكد أصالة ظهور الإنسان.

بينما في عالم الطبيعة توجد الأشياء وجودًا موضوعيًّا، فالأرض تدور حول الشمس، والشمس بدورها تتحرك. هذه حقائق طبيعية مادية.

أما في عالم الأخلاق فكم من أشياءٍ فعلناها وكنا لا نريد أن نفعلها، وكم من أشياءٍ وددنا أن نفعلها ولكن لم نفعلها أبدًا.

إذن هناك - كما يقول بيجوفيتش - عالمان عالم القلب وعالم الطبيعة، هذه العلاقة بين الإرادة والفعل تعكس التناقض المبدئي بين الإنسان والعالم.

أضف إلى ما سبق؛ إذا ارتكب إنسانٌ جريمة وأصَرَّ على أنه فعلها بدون قصد، هنا يسعى كل محامي لإثبات عدم القصد. مع أنه بالمنظور المادي والعقلي الجريمة وقعت وانتهت على أرض الواقع، والمجرم أيضًا معترف أنه ارتكبها، لكن يتدخل القانون لمعرفة القصد والنية، ومعرفة حالة النفس أثناء ارتكاب الجريمة هل جرت بقصدٍ أم لا.

وهنا نضع النفس في مركز أعلى من الحقائق، وأعلى من الواقعة المادية المجردة، فنحن في الحقيقة لا نحكم على ما حدث في العالم لكن نحكم على ما حدث داخل النفس.

فالإنسان ليس مُفصلاً على طراز داروين.

إن الأخلاق ثغرة في نظام الطبيعة المادي فهي ثغرة معرفية، وثغرة زمانية، وثغرة قيمية، و ثغرة عقلية، فالأخلاق كما قلنا عقليًا غير مربحة بل ضارة بل هي أكبر عبء على صاحبها.

وقد تساءل برنارد ماندفيلBernard mandeville أستاذ علم الأخلاق الإنجليزي عن: ما أهمية الأخلاق لتقدم المجتمع والتطور الحضاري؟

وأجاب ببساطة: لا شيء بل لعلها تكون ضارة.

والأخلاق والدين هما أقدم الأفكار الإنسانية تزًا، وقد ظهرا سويًا مع الإنسان، والإله هو الشرط الوحيد لسمو الإنسان وحريته وأخلاقه ومبادئه وقيمه.

فالأخلاق الأصيلة تستمد قيمتها من عالمٍ آخر؛ عالم لا علاقة له إطلاقاً بعالمنا المادي المجرد، وبدون هذا العالم الآخر تتحول الأخلاق إلى مجرد لغو فارغ، ووهم يستحيل أصلاً التنبؤ بوجوده لعدم وجوده!

فما بالنا والأخلاق موجودة، بل هي ركيزة أية أمة أو حضارة. بل وحتى أعتى الملحدين لا يمنع نفسه من الادعاء بالتزام الأخلاق، مع أنه بذلك ودون أن يدري يُسقط المنظومة الإلحادية بأكملها.

فالأخلاق كقيمة تنقض الإلحاد!

قانون بديهي ينقض الإلحاد

لو كان الإلحاد صحيحًا لما ألحد أحد!

داخل العالم المادي تسير الذرات في نسقٍ ثابت لا يتخلف، ويدور الإلكترون حول النواة بسرعة ألف كيلو متر في الثانية الواحدة باضطرادٍ وانتظام.

وذرات دماغك هي نفس الذرات التي يتشكل منها العالم المادي.

وتسود الحتمية المادية في كل شيءٍ حولك، وفي هذا الإطار يصبح الحديث عن المعنى أو القيمة أو الغاية حديثًا غير مفهوم، حديثًا لا ينتمي إلى هذا العالم المادي ولا يمكن ضبطه في إطار هذه الصرامة الحادة!

فالعالم المادي لا يوجد فيه شر ولا خير... لا قداسة ولا نجاسة... لا صواب ولا خطأ.

وقد عبّر ريتشارد داوكينز Richard Dawkins -عرّاب الملحدين في العالم- عن ذلك قائلاً: «الكون في حقيقته بلا شر ولا خير»[1].

وبناءً على ما سبق: يستحيل أن يكتشف إنسان وجود أخطاء في دينه -على حد زعمه- فيلحد إلا لو استقر في ذهنه مسبقًا وجود الخطأ والصواب ووجود الخير والشر.

(1) The universe we observe has ... no evil and no good River out of Eden, p.131-132.

أُكرر مرةً أخرى: يستحيل أن يكتشف إنسان وجود أخطاء في دينه، فيلحد إلا لو استقر في ذهنه مسبقًا وجود الخطأ والصواب ووجود الخير والشر.

فلولا وجود الخير والشر لما استوعب إنسان وجود الخطأ في دينه والذي على أساسه قرّر أن يُلحد!

لكن هذا يعني خطأ الإلحاد؛ لأننا كما قلنا لو كنّا أبناء هذا العالم المادي لما أدركنا وجود الخطأ ولا الصواب، ولا الخير ولا الشر، وبالتالي لن يُلحد أحد؛ لأننا المفترض أننا لا نعرف الخير ولا الشر ولا الصواب ولا الخطأ!

لكن هناك ملحدون؛ إذن هناك خير وشر؛ إذن الإلحاد خطأ!

فلولا استقرار خطأ الإلحاد في ذهن الإنسان. وأن هذا العالم ليس مبنيًّا على نسق الإلحاد وأن هذا العالم يوجد به خير وشر وصواب وخطأ. لولا هذه المقدمة لما ألحد أحد ولما اكتشفنا وجود خطأ أو شر.

فلولا وجود القيمة والمعنى والهدف والغاية والذين افتقدهم الملحد في دينه -كما يزعم- لما ألحد!

ولولا معرفته بالخطأ والصواب والخير والشر، لما قرر أن إلحاده خيرٌ من دينه -كما يزعم-!

وهنا يصبح الإلحاد دليلاً على خطأ الإلحاد، ويصبح الكفر دليلاً على سقوط الكفر!

إنها مفارقة غريبة لكنها حقيقية، وعجيبة لكنها واقعية!

فلن يستطيع الإنسان أن يحصل على المعنى أو القيمة أو الغاية أو أن يستوعب شيئًا من القيم وضد القيم إلا بمددٍ من عالمٍ آخر وناموسٍ آخر ومقدمةٍ أخرى تمامًا -مقدمة سماوية-.

ولن يستطيع الإنسان أن يدرك معيارية وجوده في هذا العالم إلا بقبس لا يوجد في هذا العالم ما يبرهن على معناه.

ويمضي الإنسان في هذا العالم باحثًا عن المعنى والغاية والقيمة؛ لأنه يعلم وجود هذه الأشياء ولأنه يستقر في وعيه معناها، ولأنه يدرك أنها معانٍ سلمية تمامًا.

وهذا يُقدم توكيد مستمر لمعنى وجود الإنسان في هذا العالم!

ويقدم توكيد أكبر على مدى سخافة الإلحاد، وعجزه حتى عن تحليل وجوده من خلال نفس مقدماته، وعجزه عن تحليل ظاهرة الإنسان!

فلو كان الإلحاد صحيحًا لما ألحد أحد ولا أدرك أحد معنى كلمة إلحاد، ولما أدرك أحد معنى كلمة خير أو شر أو صواب أو خطأ!

المقصود مما سبق أن:

الإلحاد يخالف بديهيات المنطق وأوليات العقل وألف باء علم، فهو يخالف قوانين لا نظريات، ومُسلّمات لا مُقدمات، وحقائق لا ظنيات، وقيم معرفية لا أوهام لكن قليلٌ مَن يتدبر!

الفصل الثالث

التطور معالجة جديدة!

الفصل الثالث

التطور معالجة جديدة!

محاكمة النشوء قبل الارتقاء

منذ أن وضع تشارلز داورين Sharles Darwin كتابه الأشهر «في أصل الأنواع On the Origin of Species» في العام 1859، والجدال لم يتوقف بشأن صحة «الداروينية» أو الصيغة الأحدث «التطور»، وقد لا يتوقف الجدال في المستقبل المنظور لدواعٍ تتجاوز حيز العلم بكثير وتمسّ عقائد وأديولوجيات لدى الطرفين.

فالملحد يريدها تطور؛ لأن الكائنات على وجه الأرض إما جاءت عبر تطور وارتقاء وإما خلق مباشر ولا بديل ثالث، وبالتالي إذا سقط التطور سقط الإلحاد وسقطت مدارس المادية قولاً واحدًا.

لكن الطرف الآخر قد يكون أقل حماسةً؛ فالتطور لا يشكل خطرًا على الدين كما يشكل نفيه نسفًا للإلحاد.

لكن في وسط هذا الجدال الذي لا يرحم قليل مَن يلتفت إلى أصل الموضوع وهو النشوء- أي بداية ظهور الحياة- قبل الحديث عن الارتقاء-أي تطور الأنواع.

فالأولى أن يتم التنظير للأصل قبل الفرع، وللجذع قبل الغصن. لكن

سارت السفن بما يشتهي الملحد، فنحن لو انطلقنا من الأصل -النشوء- ما سَلِم للملحد فرع -الارتقاء- لأن الأصل يقع خارج أُطر العلم الرصدي والتجريبي حتى الساعة.

فقليل مَن يدرك حتى من المتحمسين من كلا الطرفين أن النشوء باعتراف كبار الملحدين يستحيل تفسيره في إطار المادة أو العشوائية أو الرؤية التطورية.

وإلى اليوم يبقى سؤال كيف بدأت الحياة على الأرض؟ باتفاق كل مَن يُعتد برأيه من البيولوجين وعلماء الكيمياء الحيوية بلا إجابة[1].

فإذا كان السؤال الأول في الداروينية بلا إجابة فكيف نتطلع إلى القطع بما بعده؟ .

لكن قد يرى متفائل أن القضية قصور في أدوات البحث سيجد لها العلم جوابًا ذات يوم، وهذا ليس تفاؤلاً وإنما جهل بأبجديات علمي البيولوجيا والكيمياء الحيوية، فطبقًا لحسابات عالم الفلك الإنجليزي الملحد فريد هويل Sir Fred Hoyle، فإن فرصة الحصول على فقط مجموعة الإنزيمات لأبسط خلية حية تصل إلى 10 أس 40,000 مع أن عدد الذرات في الكون كله لا تتجاوز 10 أس80[2].

---

(1) Today as we leave the 20th century, we still face the BIGGEST PROBLEM that we had when we entered the 20th century: how did life originate on earth source: Jeffrey Bada, Earth, February 1998, p.40.

(2) the chance of obtaining the required set of enzymes for even the simplest living cell without panspermia was one in 1040,000. Since the number of atoms in the known universe is infinitesimally tiny by comparison (1080).

وفي هذه اللحظة يستنتج فريد هويل أن مجرد طرح احتمالية ظهور البرنامج المنظم للخلية الحية، بالمصادفة في الحساء البدئي لبيئة الأرض الأولى على أنه نوع من الهراء على أعلى مستوى ممكن

Is evidently nonsense of a high order[1].

وفريد هويل لمن لا يعرفه هو عالم فلك بريطاني شهير وصاحب مصطلح الانفجار العظيم Big Bang وكان ملحدًا، إلا أن أبحاثه في فرضيات نشأة الحياة على الأرض جعلت إلحاده يهتز بشدة «greatly shaken» كما يقول عن نفسه[2].

وقد اعترف هويل صراحةً أن أبسط بديهيات العقل حين تتحرى لحظة الظهور الأولى للحياة فإنها تُسلم لحقيقة التصميم والإبداع كونها بديهة ماثلة أمام الأعين، يقول هويل: «ولو تابعنا بشكل مباشر ومستقيم في هذه المسألة، ودون أن نبالي بالخوف من مخالفة الرأي العلمي السائد، نصل إلى استنتاج مفاده أن المواد البيولوجية بما تحويه من قياس ونظام يجب أن تكون ثمرة تصميم ذكي، ولا توجد أي احتمالية أخرى يمكنني التفكير بها»[3].

أما ديفيد بيرلنسكي David Berlinski عالم الرياضيات والبيولوجي

(1) The notion that not only the biopolymer but the operating program of a living cell could be arrived at by chance in a primordial organic soup here on the Earth is evidently nonsense of a high order.Sir Fredrick Hoyle and Chandra Wickramasinghe, Evolution from Space (New York: Simon & Schuster, 1984), p. 148.

(2)http://www.uncommondescent.com/intelligent-design/fred-hoyle-an-atheist-for-id/.

(3) Hoyle, Fred, Evolution from Space, Omni Lecture, Royal Institution, London, 12 January 1982; Evolution from Space (1982) pp. 27-28.

الأمريكي الشهير، فيؤكد أن مسألة النشوء وكل ما كُتب فيه مِن قبل الماديين مجرد خيال علمي لا أكثر![1].

وديفيد بيرلنسكي شخص لا أدري agnostic ظهرت رؤيته لخرافية ما كُتب عن نظريات نشأة الحياة في إطارها المادي أثناء عمله كمساعد باحث في البيولوجيا الجزيئية molecular biology بجامعة كولومبيا Columbia University، وتبين له كما تبين لفريد هويل من قبل أن احتمالية الظهور العشوائي لأبسط خلية خلية ممكنة، هو نفس القدر من احتمالية تشكيل طائرة بوينج 747 بعد إعصار يجتاح كومة من الخردة[2].

فأبسط خلية ممكنة هي منظومة معلوماتية تحتوي على تشفير داخل الجينوم الخاص بها، وحين يتم فك هذا التشفير تظهر خصائص الخلية ووظائفها، ولا يمكن أن تقوم الخلية بتشفير ما ستحتاج إليه؛ لأنها أصلاً لا تعرف ما تحتاجه قبل أن تظهر، وهي لن تظهر بدون تشفير مسبق، هذه أبسط بديهيات العقل التي إن تجاهلناها تجاهلنا بعد ذلك كل شيء!.الكون في حقيقته بلا شر ولا خير.ت بيجوفيتش الطراوةن حرام زومباس

فالتشفير هو عملية خلق متقنة مبدعة لا يوجدها إلا خالق موجد -سبحانه وتعالى-، ولذا حين اكتشف فرانسيس كريك Francis Crick جزيء الـ DNA المعجز، اعترف كريك وكان ملحدًا أن نشأة حياة على الأرض شيء مستحيل تلقائيًا ووضع من أجل ذلك كتابه:

«الحياة نفسها نشأتها وطبيعتها Life Itself: Its Origin and Nature»[3].

---

(1)https://web.archive.org/web/20080420082802/http://www.slate.com/id/2189178/entry/2189179/.

(2)http://www.jstor.org/discover/10.2307/2024776?uid=3737928&uid=2&uid=4&sid=21104849695011.

(3) Crick, F. H. C. and Orgel, L. E., 1973, Icarus, 19, 341.

فنشأة الحياة -النشوء- هي القضية التي إن صلحت وفق النسق الديني صلح ما بعدها وتهاوت كل دعاوى الملحدين، وإن تجاوزناها دخلنا مع الملحد جدالاً لا يرحم وفروضًا لا تنتهي.

ومؤخرًا وتحديدًا في 9 ديسمبر عام 2004 كتب الملحد الشرس في ذلك الوقت أنتوني فلو Antony Garrard Newton Flew كتب يقول: «إن الحجج الأكثر إثارة للإعجاب على وجود الله هي المدعومة بالاكتشافات العلمية الحديثة، وتلك الحجج الخاصة بالخلق المبدع للحياة أقوى بكثير عما كنت قد رصدتها من قبل»[1].

فالسؤال الفلسفي الذي لم تتم الإجابة عليه حتى الآن طبقًا لأنتوني فلو هو بشأن نشأة الحياة إذ كيف للكون الذي يتشكل من مادة عمياء بلا عقل أن يُنتج كينونات تحكمها الغائية، والمقدرة على التكاثر والكيمياء المشفرة، إننا الآن لا نتعامل مع بيولوجيا إنها فئة مختلفة تمامًا من المشكلة[2].

فحتى تشارلز داروين نفسه كان يؤمن أن الحياة قد «نُفخ فيها بإعجاز من قبل الخالق» وهي الكلمة الشهيرة لداروين في آخر كتابه أصل الأنواع The Origin of Species في طبعاته الأولى.

---

(1) Habermas, Gary R. (9 December 2004), «My Pilgrimage from Atheism to Theism: An Exclusive Interview with Former British Atheist Professor Antony Flew».

(2) The philosophical question that has not been answered in origin-of-life studies is this: How can a universe of mindless matter produce beings with intrinsic ends, self-replication capabilities, and 'coded chemistry'? Here we are not dealing with biology, but an entirely different category of problem».

There is a God: How the World's Most Notorious Atheist Changed His Mind, New York: Harper One, p. 124.

وبعد اكتشاف الجزيء المعجز DNA الذي يُشكل جينوم الخلية الحية ويشفر وظائفها، لم يعد بالإمكان الحديث عن ترف الصدفة أو الحساء البدئي لبيئة الأرض الأولى أو كل تلك الفروض التي كان يعبث الملحد يومًا ما من خلالها في بديهياتنا العقلية.

يقرر اللاديني فرانسيس كريك Crick Francis مكتشف جزيء الـ DNA سابق الذكر أن نشأة بروتين واحد وظيفي بسيط بالصدفة هو ضرب من الاستحالة يكاد يفوق 10 أس 260 مع أن عدد ذرات الكون ككل لا تتجاوز 10 أس 80، هذا في بروتين وظيفي بسيط مع أن أدنى الكائنات به آلاف البروتينات، وفي النهاية يعترف فرانسيس كريك قائلاً: «كرجل منصف، ومُسلح بالعلم المتاح لنا الآن، أستطيع أن أقرر بشيء من المنطق، أن نشأة الحياة معجزة»[1].

(1) «If a particular amino acid sequence was selected by chance, how rare an event would this be?

«This is an easy exercise in combinatorials. Suppose the chain is about two hundred amino acids long; this is, if anything rather less than the average length of proteins of all types. Since we have just twenty possibilities at each place, the number of possibilities is twenty multiplied by itself some two hundred times. This is conveniently written 20200 and is approximately equal to 10^{260}, that is, a one followed by 260 zeros.

« Moreover, we have only considered a polypeptide chain of rather modest length. Had we considered longer ones as well, the figure would have been even more immense. The great majority of sequences can never have been synthesized at all, at any time.» pp. 51-52.

«An honest man, armed with all the knowledge available to us now, could only state that in some sense, the origin of life appears at the moment to be almost a miracle, so many are the conditions which would have had to have been satisfied to get it going.» Life Itself: Its Origin and Nature, P.88.

لكن وقبل أن نختم لابد وأنه قد قفز إلى ذهنك سؤال: كيف بقي كل هؤلاء العلماء الملحدين على إلحادهم مع قطعهم بوجوب التدخل والإبداع والخلق؟

ستبقى إجابة هذا السؤال إلى مقالنا التالي بمشيئة الله تعالى

أحجية البانسبرميا Panspermia

تحدثنا في المقال السابق عن العلماء الملحدين الذين ظلوا على إلحادهم مع قطعهم بوجوب التدخل والإبداع والخلق لحظة نشأة الحياة، فبأي مبررٍ يا ترى بقي هؤلاء على إلحادهم؟

طالما أن التدخل الإلهي ظاهر على كل المستويات، وطالما أن الأمر بهذا الوضوح، كيف استساغ هؤلاء الإلحاد؟

في واقع الأمر أحدث اكتشاف جزيء DNA المعجز في خمسينيات القرن الماضي، واكتشاف خريطة الجينوم Genome داخل خلية كل كائن حي على وجه الأرض، تلك الخريطة المعقدة المركبة اللغوية المنتجة القانونية ضربة موجعة للملحدين.

ونقول معقدة مركبة لغوية منتجة؛ لأن الحياة ليست إلا تنفيذ للخريطة الجينية المقننة الهادفة وهذا يجعلها دالة على مقنن هادف، فصفة الأثر دالة على صفة المؤثر.

فالحياة تسير بنظام دقيق منتج هادف واعٍ، تحت إشراف خريطة جينية ظهرت بمنتهى الضبط منذ البدء!

وهذه الخريطة الجينية قانونية فهي تُنشئ قوانين غاية في الضبط والتعقيد فسونار الطبيب أو رادار المرور قد صممها مصمم وفق قانون دقيق ومحكم ليؤدي الغرض الذي صُنع من أجله، وبنفس القياس العقلي نقول أن سونار

الخفاش قد صممه مصمم ليؤدي قانون وظيفي دقيق ومحكم ومحدد فالخفاش يستخدم تقانة عالية لتحديد المواقع بالصدى echo location.

أمام هذه التحديات العملاقة التي لا تمهل الملحد اضطر الملاحدة إلى فرضية من أعجب وأغرب ما يكون أبقت لهم إلحادهم هوينًا، فقد اعتنق هؤلاء فرضية البانسبرميا Panspermia والبانسبرميا هي فرضية تزعم أن الحياة جاءت إلى الأرض من الفضاء الخارجي!

وهذه الفرضية تشتمل على خلل معرفي ومنطقي يصل إلى حد السخافة العقلية!

لكن في البداية علينا أن نعلم أن البانسبرميا مجرد فرض عقلي حتى اللحظة، ولم تحصل على سند علمي أو رصدي واحد على الإطلاق، ولذا تصنف في قائمة العلوم الزائفة غير الحقيقية pseudo-science حتى الساعة[1].

لكن قبل تحرير الخلل المنطقي في هذه الفروض السخيفة دعونا نذكر الخبر التالي للتوضيح: سأل الإعلامي الأمريكي بين شتاين Ben Stein الملحد الشهير ريتشارد داوكينز Richard Dawkins عما إذا كان يرى مانعاً من أن يكون أصل الخلية الحية الأولى تصميمًا ذكيًا من عمل بعض كائنات اليوفو UFO - كائنات حية في الفضاء الخارجي - في زمان سحيق، فقرر داوكينز أنه لا يرى ما يمنع ذلك، بل إنها تعد- على حد قوله- جديرة بالاهتمام!

لهذا لم يجد بين شتاين إلا أن عقَّب على جواب داوكينز بتلقائية وفطرية تامة قائلاً: «إذن هو لا مانع عنده من قبول فكرة التصميم الذكي عموماً، وإنما يعترض على نسبتها إلى الخالق تحديدًا !»[2].

---

(1) http://www.ideacenter.org/contentmgr/showdetails.php/id/849.

(2) http://www.youtube.com/watch?v=9M_ZF8r5e7w.

إن افتراض كائنات ذكية أنشأت الحياة على الأرض، هذا الافتراض يفتح تسلسلاً لا ينتهي فمَن الذي خلق تلك الكائنات الذكية؟ وهكذا. ولا يجيب عن السؤال!

ثم كيف لصاحب افتراض كهذا أن يَعيب على الجواب الديني، بل إن الجواب الديني أكثر منطقية وتناسقًا مع نفسه، ويمتلك دعمًا نقليًا مباشرًا - النص المُقدس-، ويمتلك مستند عدم المعارِض- حيث لم تترك لنا تلك الكائنات تلك الدعوى العريضة، التي تُثبت قيامها بذلك -، أيضاً الجواب الديني أكثر عقلانية لعدم وجود التسلسل اللانهائي بداخله والذي هو مستحيل عقلاً، فالتسلسل اللانهائي تضطر فرضية اليوفو للتسليم به أو العودة للقول بالخالق الأبدي المستقل عن حدود الزمان والمكان.

وفي كلتا الحالتين تنهار أُحجية البانسبرميا.

يقول أبو الفداء بن مسعود: «فرضية مُصمم ذكي أنشأ الحياة على الأرض، هذا ليس جواباً في حد ذاته، وإنما هو إرجاء المطلب المعرفي الذي يرومه السائل إلى درجة من درجات تسلسل لا نهائي لا يوصلنا إلى جواب البتة!

فما فعل المُلحد بهذا في الحقيقة إلا أن أضاف في الطريق إلى إثبات العلة الأُولى الفاعلة- الله -، افتراضًا متهافتًا لعلّةٍ وسيطة لا يجد العقلاء من القرائن ما يوحي- ولو من بعيد - بوجودها أصلاً!

لكنه الهروب من التكليف الديني إلى دين بلا قيود ولا إلزامات، إنه دين اليوفو دين الملاحدة الجديد!»[1].

---

(1) آلة الموحدين لكشف خرافات الطبيعيين، أبو الفداء ابن مسعود، دار الإمام مسلم للنشر، ص 365.

ويقول أيضًا في هذه النقطة: «ثم إن من مسلمات مُعطياتنا عن حدث الخلق الأول سواءاً للكون أو الحياة؛ أن منظومة الخلق تلك جاءت بنواميس وقوانين كونية حتمية، فكيف يُقال: إن أولئك الغرباء الذين هم داخلون في جملة تلك النواميس وخاضعين لها، قاموا بكسر تلك النواميس والقوانين وأوجدوا عندنا حياة؟»[1].

لكن يبدو أن الإلحاد مضطر إلى التسليم بفرضيات من هذا القبيل؛ لأنها الوحيدة المتاحة في مقابل الدين!

إن هذه الفرضيات هي فقط ترحيل للمشكلة إلى حيث نكون غير موجودين وانتهى الأمر على ذلك!

ثم إن عملية إبداع مصمم بهذا الذكاء هي عملية مدهشة للغاية، وتحتاج إلى قوانين خاصة هي الأخرى، وبالتالي ربما نكتشف أن الذين افترضوا هذه الفرضيات سيُجابهون يوماً ما بإلزامات ماورائية أعظم بكثير مما لو كانوا تخلّوا عن تلك الفكرة. إننا ننتقل خطوة ما ورائية أعلى وأكثر عمقاً بهذه الفرضيات!

ومن العجيب أن فرانسيس كريك Francis Crick مكتشف الـ DNA يقرر في كتابه «الحياة ذاتها Life Itself» أن نشأة حياة على الأرض شيء مستحيل تلقائيًا، وبما أنه الآخر ملحد فهو يلجأ إلى نفس دعوى فريد هويل ويقرر أن فرضية البانسبرميا مخرج جاهز من هذا الإشكال الذي يحمل إلزمات ميتافيزيقية-ماورائية لاهوتية دينية-[2].

عند هذه النقطة يحلو بنا أن نرحل إلى قضية الارتقاء «التطور» ونعرضها

(1) المصدر السابق ص 366.
(2) Crick, F. H. C. and Orgel, L. E., 1973, Icarus, 19, 341.

على مقصلة العلم، بعد أن أثبتنا سخافة البانسبرميا ومغالطات الملتحفين بالإلحاد، وتأتي محاكمة الارتقاء -التطور- تنزلاً منّا مع الخصم، وإلا فإننا كما قلنا في المقال السابق ليس من المنطقي ولا العقلي أن نتجادل في التطور ولم ينضبط للمخالف النشوء، لكن نعتبر هذا من باب عدم ترك مقولة لقائل، وسنُحاكم في رحلتنا هذه «التطور» إلى قيود العلم لننظر أتهتدي بقيوده أم أن قصور أدلتها جعلها من الذين لا يهتدون!

فإلى الرحلة مع مقالاتنا القادمة إن شاء الله...

التطور والبرازخ الحقيقية

مقدمة:

إذا قلت لأحد الملحدين أن نظرية النسبية العامة لأينشتاين قد لا تكون صحيحة خاصةً، وأنها لا تتوافق مع نظرية الكم، فإن الملحد لن يعير لكلامك اهتمامًا وقد يُصدِّق عليه أو يؤكد قوة النسبية العامة، أما أن تتعرض لنظرية التطور أمام الملحد بأدنى نقد فإن الملحد ساعتها سيرتجف ويرتجف مقعده وتتسع حدقة عينه ويصاب بارتشاح وتعرّق شديدين، ثم يمطرك بوابلٍ من الشتائم والازدراء والتسخيف والنقد لمستواك العلمي، وقد تكون مقدمتك تلك بالتشكيك في صحة التطور نهاية الحوار بينكما!

إن الأمر يتجاوز حدود العلم بكثير لدى الملحد ليمس أدق ما ينعقد عليه قلبه، ألا وهو: إيمانه بجميع مقدمات الإلحاد دون تحليلٍ ولا تحرير!

وأحد هذه المقدمات هي صحة التطور قولاً واحدًا!

فأنت إذا أسقطت التطور أسقطت إلحاده بالتبعية، فالكائنات الحية على وجه الأرض مصدرها إما الخلق المباشر وإما التطور ولا بديل ثالث.

ولذا فنقد التطور هو نقد مباشر لعقيدة قومٍ وغرس أمةٍ من البشر تسمى «الملحدين».

وحين يأتي العلم بما لا يشتهي الغرس فإننا لا نسمع كثيرًا عن ذلك، فالأدراج لا تُفتح إلا لما يقوي الغرس، ولذا نادرًا ما تفتح الأدراج!

لكن بعض مَن يحاول أن يتحرى الإنصاف منهم قد يخرج عن النسق فيأتي بعجائب من داخل الأدراج ما كنّا لنتوقعها، ولا لنتوقع كيف يعاني هؤلاء الملاحدة مع إلحادهم، وكيف أنهم يعالجون إلحادهم بين الفينة والأخرى بأصنافٍ من المعالجات، فيتأبى عليهم بمرضه وعجزه!

المهم أن من جملة الذي حاولوا الخروج على النسق كان الملحد اللاأدري الشهير مايكل دانتون Michael John Denton.

ومايكل دانتون عالم كيمياء حيوية بريطاني شهير، حصل على الدكتوراة في الكيمياء الحيوية من الكلية الملكية بلندن King's College London وتفرغ للبحث في الكيمياء الحيوية والجينات في جامعات كثيرة.

ومايكل دانتون هو شخص ملحد لا أدري (agnostic)[1].

وقد تبين له من خلال الأبحاث المتواصلة أن التطور بالفعل نظرية في أزمة! فقام بوضع كتابه الأشهر: «التطور: نظرية في أزمة Evolution: A Theory in Crisis».

واعتبر دانتون في كتابه هذا أن نظرية التطور في وضعها الراهن أشبه

(1) Denton describes himself as an agnostic, and his book was released by a secular publishing house.
Evolution in the Antipodes: Charles Darwin and Australia, Tom Frame, p.291.

بالطعام الذي لم ينضج فحسب، وإنّما لم يُطبخ أصلًا ويراد للآخرين أكله ولو بالقوّة![1].

فبحسب دانتون فإن أشكال الحياة كما تصفها الداروينية تعاني فعليًا من برازخ وفجوات حقيقية عملاقة، ومفاوز شاسعة (great divisions)[2].

ويُسخف دانتون جملة ما يروج له دعاة الداروينية الجديدة مثل ترويجهم للتشابه الجيني الجزيئي بين الكائنات الحية كعلامة على حدوث التطور فيقول: «إن كل نوع من الأحياء يُعَد -على المستوى الجزيئي- فريداً ووحيداً وغير مرتبط بوسطاء. ومن ثَم فقد عجزت الجزيئات -شأنها شأن المتحجرات- عن تقديم الوسطاء الذين يبحث عنهم علماء الأحياء من دعاة التطور منذ زمنٍ طويل؛ فعلى المستوى الجزيئي، لا يوجد كائن هو جد مشترك أعلى أو كائن بدائي أو راقٍ مقارنةً بأقربائه... ولا يكاد يوجد شك في أنه لو كان هذا الدليل الجزيئي متاحاً قبل قرنٍ من اليوم، فربما لم تكن فكرة التطور العضوي لتجد أي قبول على الإطلاق»[3].

وخلاصة ما ينتهي إليه مايكل دانتون في كتابه أن الداروينية بقيت كما كانت وقت داروين مجرد فرضية تخمينية من دون دعم مباشر بالحقائق وبعيدة عن أي دليل توثيقي[4].

ومن عجيب ما يُذكر هنا أن: فيليب جونسون Phillip E. Johnson أستاذ القانون بجامعة كاليفورنيا -والأب الروحي لمدرسة التصميم الذكي-

(1) Denton, M. (1985) Evolution: A Theory in Crisis, Adler & Adler

(من مقدمة كتاب تصميم الحياة، دار الكاتب، ص7)

(2) ibid,.

(3) Theory in Crisis, p.290-291.

(4) Theory in Crisis, p.77.

كان ملحدًا، لكنه ترك الإلحاد على أثر قراءته لكتاب «التطور: نظرية في أزمة»[1].

أيضًا مايكل بيهي Michael J. Behe عالم الكيمياء الحيوية الأمريكي الأشهر، وأستاذ الكيمياء الحيوية بجامعة ليهاي Lehigh University في بنسلفانيا، كان ملحدًا معتنقًا للتطور لكنه تحول عن الإلحاد والتطور بالكلية بعد أن قرأ نفس الكتاب «التطور: نظرية في أزمة»[2].

ثم وضع بيهي في مرحلةٍ لاحقة كتابه الشهير: «صندوق داروين الأسود Darwin's Black Box»[3].

إذن الهجوم المباشر على التطور ليس مِن قِبل المناوئين للنظرية كما يبدو -وكما يزعم الملاحدة- وإنما مِن قِبل المنتظمين في سِلكها أيضًا.

يقول التطوري إدوارد وايلي Edward O. Wiley أن آخر ما وصلت إليه النظرية بشأن ظهور الأنواع - الإنتواع speciation - ما يلي: «لقد قُتِلت هذه العملية -أي: الانتواع- بحثا، والحق أنَّ إشكالَ ما هو النوع، وإشكال كيف ظهرت الأنواع، بعيدان عن الحل»[4].

أما الانتخاب الطبيعي عمدة التطور وقوام النظرية وأصل الداروينية الكلاسيكية والداروينية الجديدة، فلم يدخل حتى الساعة دائرة العلم

(1) Berkeley's Radical: An Interview with Phillip E. Johnson, Touchstone Magazine, 2002.

(2) The Evolution of a Skeptic: An Interview with Dr. Michael Behe, biochemist and author of recent best-seller, Darwin's Black Box, 1996.

(3)http://www.amazon.com/Darwins-Black-Box-Biochemical-Challenge/dp/0743290313.

(4) Wiley, E.O. (1992) the Evolutionary Species Concept Reconsidered, p.79 (من مقدمة كتاب تصميم الحياة، دار الكاتب، ص9)

التجريبي ولا العلم الرصدي، وإنما تخمينات أركيولوجية - أحفورية- لا أكثر.

يقول عالم البيولوجيا التطورية والوراثة السكانية الأمريكي الشهير ويليام بروفاين Provine: «الانتخاب الطبيعي لا يعمل على أي شيء. فلا هو ينتخبُ لصالح شيء أو ضده، ولا هو يقهر، ولا يُكثّر، ولا يخلق، ولا يعدّل، ولا يُشكّل، ولا يشغّل، ولا يقود، ولا يصطفي، ولا يحافظ على شيء ما، ولا يدفَع، ولا يكيّف. الانتخاب الطبيعي لا يقومُ بشيء»[1].

وهي نفس النتيجة التي توّصل إليها الداروينيَيْن الملحدَين جيري فودور Jerry Fodor.

وماسيمو بياتيلي بالماريني Massimo Piattelli Palmarini، حيث لم يجدا بدًا من تخطئة داروين رأساً، وصنَّفا في تهافت مفهوم الانتخاب الطبيعي كتابهما: «الأمر الذي أخطأ فيه داروين What Darwin Got Wrong». وكان مما صدّرا به كتابهما ما يلي: «هذا ليس كتاباً عن الله، ولا عن التصميم الذكي، ولا عن الخلق. ليس أيًا من أحدنا متورطٌ في شيءٍ من ذلك. لقد ارتأينا أنه من المستحسن أن نوضح هذا منذ البداية؛ لأن رأينا الأساسي فيما سيأتي يقضي بأن هناك خطأ ما - وربما خطأ لدرجة قاتلة - في نظرية الانتخاب الطبيعي»[2].

وهكذا يبقى التطور تصورًا حتى عند دعاته قابلاً للنقد والتحري والرصد وليس دينًا أو حِجرًا محجورًا يمتنع علينا الاقتراب منه بناءًا على رغبة الملاحدة في عدم الاقتراب منه!

---

(1) Provine, W.B. (2001) the Origins of Theoretical Population Genetics, p.199.

(2) Fodor, J. & Piattelli Palmarini, M. (2011) What Darwin Got Wrong, p.15 (من مقدمة كتاب تصميم الحياة، دار الكاتب، ص10).

ومن أجل ذلك سنعرض إن شاء الله في المقالات القادمة نقدًا متخصصًا متأنيًا للتطور بمقصلة العلم لنرى هل سيصمد أم لا!

هل سينضبط بمعايير العلم أم يتحرى التخمينات الافتراضية والاستدلالات الدائرية فينقلب من فرضية إلى علم زائف Pseudo-Science؟

الصنع المتقن:

تبين لعلماء البيولوجيا والكيمياء الحيوية مؤخرًا أن الخلق الإلهي أو الصنع المتقن أو كما يسميه الغرب التصميم الذكي يمكن رصده تجريبيًا، وبذلك أصبح جزءًا من العلم![1]

وردة فعل الملحدين على أدلة الصنع المتقن ومحاولة إثبات خطأه، تعني أنه خاضع للتقويم العلمي[2].

ومؤخرًا ظهرت أكثر من خمسين ورقة علمية مُحكّمة peer-reviewed تتحدث عن الصنع المتقن والخلق الإلهي -التصميم الذكي- في الكائنات الحية، وقد نُشرت الأوراق في أكبر المجلات العلمية في العالم[3].

وقد تفردت مجلة الطبيعة Nature المجلة العلمية الأشهر على الإطلاق بنشر شيء من هذه الأوراق[4].

---

(1) عبارة «الصنع المتقن» أولى من عبارة «التصميم الذكي» لأن أصلها قرآني وفيها استغناء عن الإيحاءات المشكلة للتعبير الأجنبي، وما يترتب عليها من ضرورة التحوط والتحرز (عبد الله الشهري من مقدمة كتاب تصميم الحياة، دار الكاتب، ص12).

(2) أي: نظرية تقبل الخطأ تصبح نظرية علمية، يُنظر: «مفهوم القابلية للخطأ Falsifiability عند فيلسوف العلوم الأشهر كارل بوبر Karl Popper».
http://en.wikipedia.org/wiki/Falsifiability

(3) http://www.evolutionnews.org/2012/02/intelligent_des056221.html.

(4) http://www.nature.com/nature/journal/v431/n7005/full/431114a.html.

فقضية الصنع المتقن دخلت حيز العلم الرصدي والتجريبي وأثبتت وجودها وبقوة.

أما على المستويات التعليمية والاختصاصية فقد شقت أيضًا أبحاث الصنع المتقن -التصميم الذكي- في الكائنات الحية طريقها، وبدأ علماء الأبحاث في تأسيس المخابر المكرّسة لأبحاث رصد الصنع المتقن، مثلا: أسس دوغلاس أكس Douglas Axe- خبير البيولوجيا الجزيئية سابقاً في جامعة كامبريدج- المعهد البيولوجي Biologic Institute[1].

وأسس روبرت جاكسون ماركس Robert J. Marks II - بروفيسور هندسة الحواسيب والكهرباء الشهير بجامعة بايلور Baylor University - مختبر المعلوماتية التطورية (The Evolutionary Informatics Lab)[2].

وأصبح لدى كلٍ من جامعات كورنويل Cornell University وستانفورد Stanford University وبيركلي University of California, Berkeley تجمعات طلابية تعرف بنوادي IDEA (التصميم الذكي والحذر من التطور) التي تدعم رصد الصنع الإلهي المتقن في الكائنات الحية[3].

وتنظر الهيئات التدريسية ومشرّعو الولايات والمحاكم في أمريكا إلى إمكانية تعليم الصنع المتقن في المدارس الحكومية ضمن المناهج العلمية[4].

فالصنع الإلهي المتقن لم يعد دعوى دينية فحسب وإنما قوة علمية تزداد

(1) www.biologicinstitute.org.

(2) www.evoinfo.org.

(3)http://en.wikipedia.org/wiki/Intelligent_Design_and_Evolution_Awareness_Center.

(4) جون بيل(Jon. A. Buell) رئيس مركز الفكر والأخلاق دالاس- تكساس، تصميم الحياة، دار الكاتب، ص16.

وضوحًا بشواهدها كل يوم ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ ﴾ [فصلت: 53].

ولم يعد الإتقان الإلهي في الخلق دعوى مجردة من التجريب والرصد بل حقيقة ماثلة في المعامل والبحوث البيولوجية ﴿ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ [النمل: 88].

نتقدم بهذه الكلمات بين يدي نقد التطور من أجل التأصيل لحقيقة هامة وهي أنه إذا سقط الأصل سقط الفرع وإذا تهاوى الجذع تهاوت الأوراق، فإذا ثبت الإتقان الإلهي رصديًا فلا مكان للتطور العشوائي، ولا مكان للفروض والتكهنات والتخمينات التي لا يضعف عقل عن توليدها.

وقد كانت بداية البحوث لرصد الصنع الإلهي المتقن في الكائنات الحية على يد عالم الكيمياء الحيوية الأمريكي مايكل بيهي Michael Behe أثناء قيامه بأبحاثه في جامعة ليهاي Lehigh University في بنسلفانيا.

حيث رصد بيهي خلال دراساته التعقيد المدهش في السوط البكتيري Flagellum، وكيف أن هذا السوط البكتيري الدقيق للغاية يتكون من مائتي جزيء بروتين بالغ التعقيد، إذا جاء أحدها مكان الآخر أو اختفى أحدها، فلن تظهر منظومة السوط البكتيري بالكلية!

ويتحرك السوط البكتيري بمعدل عشرة آلاف حركة في الدقيقة، وهو قادر على عكس اتجاه حركته في جزء من أربعين ألف جزء من الثانية، وحجم الموتور المُحرك للسوط هو واحد على مائة ألف من البوصة، ولم يستطع الإنسان صناعة موتور بحجمه ولا أن يقترب من كفاءته، إلى الحد الذي دفع هاورد بيرج Howard Berg عالم البيولوجيا بجامعة هارفارد إلى اعتبار أن السوط البكتيري أكفأ آلة في الكون، وقام الرياضيون بحساب

نشأة هذا السوط بالصدفة فوجدوا أن الاحتمالية تصل إلى واحد في 10 أس 1170 مع أن ذرات الكون كله لا تتجاوز 10 أس 80 ذرة[1].

إن اجتماع التفرد مع التعقيد في السوط البكتيري ينتج منظومة التعقيد المتفرد SC specified complexity وهي من بصمات الصنع المتقن!

ولا تخلو خلية في الكائن الحي ولا عضية داخل خلية ولا إنزيم داخل عضية ولا بروتين داخل إنزيم ولا كودون Codon داخل بروتين ولا ذرة داخل كودون ولا كوارك quark داخل ذرة، لا يخلو شيء من ذلك من تعقيد متفرد SC، إنها سمة الوجود بأكمله.

﴿ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ [النحل: 13].

وقد رصد مايكل بيهي أنظمة حيوية أخرى عالية التعقيد خلال دراسته مثل: آلية «تجلط -تخثر- الدم» والتي بدون هذه الآلية يهلك الإنسان -الجنين والأم- فور ولادته!

وتعتمد هذه الآلية على عشر خطوات تستخدم عشرين مركبًا حيويًا شديد التعقيد، أيضًا هذه الآلية ترتبط بالزمان والمكان فلا يعقل أن يتخثر الدم في مكان غير مكان النزف أو في وقت متأخر عن الطبيعي -وهذا تعقيد إضافي على الآلية.

أيضًا هذه الآلية تحتاج لتناغم فوري وسريع بين الكبد والأوعية الدموية ونخاع العظم والمخ.

إننا هنا نصل إلى مرحلة الصنع المتقن منذ اللحظة الأولى!

---

(1) https://www.youtube.com/watch?v=a_5FToP_mMY.

ومن نافلة القول أن قواعد الـDNA التي تحمل شفرة بناء البروتين الذي يُشكل السوط البكتيري وعوامل التجلط وكل منظومة حيوية في الكائن الحي، تحمل هذه القواعد تعقيد متفرد في بنائها وتراتبها والشيفرات التي تحملها يفوق تعقيد كل ما نعرفه من اللغات!

يقرر كارل ساغان في برنامج الكون Cosmos الشهير أن رسالة واحدة من منظومة التعقيد المتفرد SC تصل إلينا من الفضاء سنجزم من خلالها بوجود حياة تحاول التواصل معنا![1]

فلماذا لا نستخدم نفس المقاييس في تقييم الظواهر الموجودة في كوكبنا؟

أليست كل شيفرة داخل جينوم الكائن الحي هي تعقيد متفرد SC؟

أليس هذا دليلاً على الصنع المتقن بنفس درجة دليل القياس العقلي على رسالة الفضاء الخارجي؟

بل إن الصنع المتقن لا تنتهي عجائبه ولم نحط بشيءٍ منه بعد!!

ولنفهم أمر التعقيد المتفرد داخل جينوم الكائن الحي، فإن بروتين بسيط يتكون من 100 حمض أميني لابد أن توجد نسخته مشفرة في نواة الخلية بنظام تتابع القواعد النيتروجينية، في الوقت الذي يمكن لهذا التتابع أن يأتي على 10 أس 130 بديل آخر، أحدها فقط هو القادر على التشفير لهذا البروتين ومن هنا يأتي التعقيد المتفرد SC.

إن شريط الـDNA يمتاز أيضًا إلى جانب التعقيد المتفرد بالثراء المعلوماتي والقانونية-يُنظم عمل قانون معين داخل الكائن الحي- كما وضحنا بالتفصيل في مقالٍ سابق.

---

(1) Cosmos, Video Source.

كذلك لا يمكن أن تكون هناك آلية بلا حياة ولا عقل -عشوائية الحساء البدئي للأرض الذي تشكلت من خلاله الحياة كما يزعم التطوريون- تُولد معلومات تحمل الحياة والعقل!

فما هو مصدر الكم المعلوماتي الهائل التي تحمله أول شفرة وراثية؟

بل إن أبسط إنزيم يتعامل مع شريط الـ DNA يتكون من أكثر من عشر جزيئات من البروتين، لو تعطل بروتين واحد أو اختفى أو حدث خلل في سلسلته يتوقف عمل الإنزيم الذي يتوقف تبعًا له عمل شريط الـ DNA، وبالتالي لن يكون للكائن الحي وجود.

والأغرب من ذلك أن شفرة هذا الإنزيم توجد أيضًا داخل شريط الـ DNA فالقضية تعقيد غير قابل لأقل قدر من الاختزال أو التدرج إما أن تظهر كل المنظومات فجأةً أو لا يظهر.

يقول [ويليام ستوكس] William Stokes العالم الدارويني: «لو أحضرنا مليارات الكواكب مثل كوكب الأرض، وامتلأت كل هذه الكواكب عن آخرها بالأحماض الأمينية، وانتظرنا عليها مليارات السنين، فلن نحصل على بروتين واحد»[1].

فكيف وأبسط كائن حي على الإطلاق - الميكوبلازما Mycoplasma - يحتوي على آلاف البروتينات المتخصصة؟

فالقضية عقلية ورصدية؛ والتكاسل عن إعمال العقل مصدر رئيس لكل كفر.

﴿ وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ [الملك: 10].

---

(1) W. R. Bird, the Origin of Species, p.305.

الطفرات:

يعتمد التطوريون على مبدأ أن الطفرات Mutations قد تغير كل شيء وتنتقل بالكائن الحي إلى كائن آخر تمامًا![1]

هذه الدعوى العريضة إما أن تخضع للرصد العلمي والتجريبي، وإما أن تدخل في سياق حكايا أو حواديت وأحاجي منتصف الليل المسلية ولا مكان ثالث لهذه الدعوى!

لكن بدايةً: ما هي الطفرة؟

الطفرة هي: تغير في نسق الجينوم Genome -المادة الوراثية الخاصة بالكائن الحي-.

والمفترض أن يترتب على الطفرة ظهور وظائف جديدة في الكائن الحي نتيجة بروز بروتينات تخصصية صادرة عن التغير في المادة الوراثية؛ ومع تكاثف الطفرات تتغير خصائص الكائن الحي بالكلية ليتحول إلى كائن آخر.

هذا هو السيناريو الذي يرسمه التطوريون في كتبهم ويروجون له في محاضراتهم، لكن تبقى المشكلة الأساسية هل هذا سيناريو تخيلي أم حقيقة علمية؟

دعونا نتحرى الوضع!

حقيقة الأمر أنه خلال عقود من صراع الإنسان مع الفيروسات نشأت 10أس 20 سلالة فيروسية جديدة -وهو رقم يعادل نصف عدد الكائنات الحية التي وُجدت على الأرض منذ بدء الخليقة- دون تكوين بروتين واحد جديد[2].

---

(1) http://www.brooklyn.cuny.edu/bc/ahp/BioInfo/MUT/Mut.Definition.html.

(2) Michael J. Behe, Darwin's Black Box.

بل إن عمليات ظهور سلالات جديدة لم تُظهر بروتينان جديدان صالحان للعمل في تناغم new protein-new interaction sites ولم يحدث على الإطلاق تجريبيًا أو رصديًا ظهور رتب جديدة orders أو طوائف classes أو شُعب (phyla)[1].

فإذا كنّا عاجزين رسميًا عن رصد ظهور بروتين واحد الذي هو لبنة أي تغير وظيفي في الكائن الحي -لبنة أي طفرة- فبالأحرى نحن نتحدث عن خيال علمي وليس عن علم له احترامه التجريبي والرصدي!

لكن إذا كانت فكرة الطفرات بهذه الهشاشة فكيف يُروج لها التطوريون -خاصةً الجدد- باعتبارها أصل الأصول في التطور؟

الحقيقة أن الشيء الوحيد الذي نرصده علميًّا، والذي يتحدث عنه التطوريون ليس الطفرات التي هي توليد لبروتينات جديدة، وإنما طفرات وظيفية في بنية بعض الجينات-تطّفر-، حين يحدث لها خلل في ترتيب قواعدها النيتروجينية نتيجة التعرض لمؤثر ما في الغالب![2]

فهنا لا يتشكل بروتين جديد وإنما تختل إحدى القواعد النيتروجينية داخل أحد الجينات، فيختل البروتين الناشئ فتختل الوظيفة.

وقد كانت ذبابة الفاكهة عصب ومحور بحوث التطفر حيث تُعَدُّ ذبابةُ الفاكهةِ حالةً ملائمةً لمثل هذه الدراسة، فالجينوم الخاص بها يمكن التلاعب به بسهولة. أضف إلى ذلك مدة حياتها القصيرة ودوراتها التكاثرية المتتابعة. كل ذلك يسمح للعلماء بملاحظة وتتبع العديد من الأجيال.

(1) ibid,.

(2) http://www.nature.com/scitable/topicpage/dna-replication-and-causes-of-mutation-409.

وبالتالي خضعت ذبابة الفاكهة للعديد من التجارب، حيث تم قذفها بإشعاع لزيادة معدل الطفرات، ولدى العلماء حالياً فكرة واضحة جدًا عن نوعية الطفرات التي يمكن أن تحصل[1].

وبعد رصد ملايين الأجيال تبين أنه ليس هناك أيّ دليل على أنَّ الطفرات في ذبابة الفاكهة تخلق بُنًى جديدة، فما قامت به الطفرات هو مجرد تغيير للبنى الموجودة، فمثلاً أنتجت الطفرات أجنحة مجعدة أكبر من المعتاد وأصغر من المعتاد، كما أنتجت مجموعة مضاعفة من الأجنحة -مجموعتان إحداها لا تعمل وهي مؤذية للكائن-، لكنها لم تخلق نوعاً جديداً من الأجنحة.

أيضًا ولّدت الطفرات مُسُوخاً ذات سيقان تنمو حيث يجب أن تنمو قرون الاستشعار، في حالة تعرف باسم سيقان الاستشعار (Antennapedia)[2].

لكن حتى هذه المسوخ ليست إلا مجرد إعادة ترتيب لبُنى موجودة وإنْ كانت بطرق غريبة.

الخلاصة: لم تحول الطفرات ذبابة الفاكهة إلى نوع جديد من الحشرات، فقط أنتجت الطفرات ببساطة ذبابات فاكهة متغايرة.

لكن لتوليد حزمة تكيفية نحن لا نحتاج طفرات ضارة -تطفر- بداهةً ولا حتى بروتين جديد صالح متدرج، إنما الأمر يتطلب تغيرًا منظمًا وكاملاً في آنٍ واحد. ونحن لم نرصد تغيرًا واحدًا فضلاً عن تنظم هذا التغير فضلاً عن ظهوره جملةً واحدة!

الأمر في عبارة واحدة: «الطفرات حدوتة مُسلية لا أكثر!».

---

(1)http://www.exploratorium.edu/exhibits/mutant_flies/mutant_flies.html.

(2) تصميم الحياة، د.ويليام ديمبسكي ود.جوناثان ويلز، ترجمة د.مؤمن الحسن وآخرين، دار الكاتب ص83.

ولو قمنا بتحليل الأمر عقليًّا، فإنتاج بروتين واحد يتطلب معلومات وظيفية جديدة، فعندما ينشأ شريط داخل الـ DNA وهذا الشريط يقوم بتوليد بروتين جديد يؤدي وظيفة جديدة للكائن، فنحن بصدد شريط معلومات ظهر فجأة داخل الـ DNA فالأمر معلومة information قبل أن يكون مجرد تراص لقواعد نيتروجينية!.

فالقواعد النيتروجينية مثل حروف اللغة كي تنتج جملة صحيحة تعطي معنًى صحيح يستقر في مكان مناسب لابد من معاني معينة تستقر في نفس واضعها، ثم يجمع واضعها الحروف التي تشكل هذا المعنى!

وفي الواقع لا يوجد دليل على إمكانية عزو المعلومات داخل الـ DNA إلى مجرد طاقة ومادة أبداً، وكما قال نوربرت وينر Norbert Wiener أحد مؤسسي نظرية المعلومات: «المعلومات هي معلومات، ليست مادة أو طاقة، لا يمكن لأي مذهب مادي لا يعترف بهذا أن يستمر هذه الأيام»[1].

فالمعلومة مستقلة عن تراص الحروف وعن تراص القواعد النيتروجينية بل هي معنى قبل أن تتحول إلى شيء مادي يتم الترميز له بمجموعة من الحروف في اللغة أو القواعد النيتروجينية في الجينوم DNA.

فالمعلومات في النظم البيولوجية مستقلة عن مكوناتها المادية.

فما هو مصدر المعلومات المطلوبة لبناء المعنى والذي يتولد عنه الشيفرة التي يجري ترميزها داخل الجينوم؟

هذا هو السؤال الذي إن لم تتم الإجابة عنه فلا معنى لتحليل ما بعده!

فالعقبةُ هنا أكثرُ من مجرد بنية بيولوجية جديدة من نوعٍ ما، إنها معلومة

(1)Norbert Wiener, Cybernetics, p.132 (المصدر السابق ص 83).

ستظهر في صورة شفرة تتحول هذه الشفرة إلى بروتين، ثم يؤدي هذا البروتين وظيفة متخصصة لتظهر في النهاية المعلومة المطلوب ظهورها في الكائن الحي بمنتهى الضبط والدقة!

والمصدر الوحيد المعروف القادر على توليد معلومات هو بداهةً الحكمة والإرادة والقدرة والصنع المتقن الذي هو بكلمة واحدة «الخلق» ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾﴾ [المؤمنون: 14]!

فإذا قمنا بتحليل قضية الطفرة بعيدًا عن الرصد العلمي فالأمر بدهيًّا يحتاج إلى معلومة والمعلومة لا يتيحها إلا الخلق!

وهنا تبرز أكبر بديهيات أدلة الصنع المتقن من قلب العلم والرصد المباشر! لكن ستظل للسفسطة مكانها في العقول وللتخمينات المرجوحة أولويتها لأهل الأهواء!

في البدء كانت الأحفورة

بينما تقوم نظرية الداروينية الجديدة «التطور» Evolution على مسألة الطفرات والتي تعرضنا لها بالتفصيل في المقال السابق، فإن قوام الداروينية الكلاسيكية Darwinism على الحفريات -الكائنات المتحجرة fossils-، وإن كانت إحدى النظريتين لا تستغني عن حجج الأُخرى وأدلتها!

ولقد تعرَّفنا اليوم، وبعْدَ 150 عاماً من نشر نظرية التطور لداروين، على آلاف الكائنات المتحجرة التي لم تكُن معروفة لداروين. لكن بقيت الفجوات بين المجموعات التصنيفية الرئيسية للحيوانات عصيَّةً على الملء. فمنذ أن ظهرت نظرية داروين وعلماء الأحافير في حيرة من أمر الندرة الشديدة في الأحافير الانتقالية.

كان من الممكن تفهُّم وجود الأمل أيامَ داروين بأن تظهر الروابط المفقودة مع الوقت، حين كان علم الأحافير في بدايات تشكُّله. حيث أن علماء الأحافير في ذلك الوقت لم يقوموا بالبحث كما ينبغي.

أما اليوم فقد استُخرجت أعداد مذهلة من الأحافير، وسرعة اكتشاف المزيد منها تفوق قدرتنا على تصنيفها.

وكلما ازدادَ عددُ الأحافير المكتشفة من قِبل علماء الأحافير ازداد وضوحُ تعارض الأحافير المكتشفة مع ما تفترضه نظرية داروين. إنَّ نمطَ الأحافير المكتشفة ليس نمطاً متشعّباً بشكلٍ تدريجي، بل إنَّه يشكل عناقيد مجتمعة تفصل بينها فراغات. قد لا يكون ذلك مفاجئاً كونه نفس النمط الذي نجده بين الكائنات الحية اليوم. فمثلاً توجد العديدُ من سلالات الأحصنة لكنها منعزلةٌ بشكل واضح عن الماشية، وبالمثل يوجد العديد من تنوعات الذرة، لكن لن يصعبَ على أحد التفريق بينها وبين القمح، وتتجمع التنوعات حول نمطٍ واحد، بدلاً من ظهورها متدرجة كما تفترض الداروينية[1].

فلا يوجد مثلاً سلاسل متدرجة من الأحافير تملأ الفراغ بين الأسماك والبرمائيات أو بين الزواحف والطيور، بل تظهر الأحافير كاملة النمو والتمايز والوظيفة من أول ظهورٍ لها في السجل الأحفوري. وتُظهر أحافير الأسماك الأولى كل الصفات المعروفة للأسماك اليوم. وكذلك تُظهرُ الزواحفُ في السجل الأحفوري كلَّ صفات الزواحف الحية اليوم. هذا النمط ظاهر عبر السجل الأحفوري ككل.

(1) تصميم الحياة، د.ويليام ديمبسكي ود.جوناثان ويلز، ترجمة د.مؤمن الحسن وآخرين، دار الكاتب ص103 - 104.

فالسجل الأحفوري لا يقدّمُ أيَّ دليلٍ على أنّ الشُعب المنقرضة مرتبطة مع بعضها بمراحل تطورية وسيطة.

إن الأشكال الانتقالية التي يُزعم وجودها. عددها اليوم أقلّ مما كان معروفاً أيام داروين. فالتطوريون مثلاً اضطروا لنفي بعض الحالات التقليدية المشهورة للتغيرات الداروينية في السجل الأحفوري، كتطور الحصان في أمريكا الشمالية بعد ظهور المزيد من المعلومات المفصلة حول ذلك[1].

فالزعم بأن الزمن كفيل بإظهار الحلقات المفقودة جاء بنتيجةٍ عكسية غير مُتوقعة!

يقول عالم الفيزياء النظرية -والحاصل على الدكتوراة في فيزياء الكم النظرية- أميت جوسوامي Amit Goswami أن: «أنصار نظرية التطور يفعلون اليوم كما كان يفعل أنصار نظرية أن الأرض هي مركز الكون، فهم الآن يمارسون نفس عناد السابقين، حيث كان السابقون يقومون برسم عدد لا نهائي من الحلقات والحلقات، ليبرروا دوران الأفلاك حول الأرض ليتمكنوا من التمسك بنظريتهم، وأنصار الداروينية يفعلون اليوم الشيء نفسه تجاه أي اكتشاف يُغير أو يناقض مبادئ النظرية ومبادئ آليتها، بأن يقوموا بتعديلات لا نهائية للنظرية الأُم لتواكب تلك الاكتشافات، فكان المفترض لو أن الأمر كما يزعمون أن تتحقق توقعات النظرية في كل كشف أحفوري جديد لكن الحاصل أنه لا شيء يتحقق البتة، بل إن كل كشف جديد يتطلب رسم دوائر جديدة لا أكثر، وصارت النظرية حبلى بالدوائر عاجزة عن التنبؤ بشيء ولا يقدم الكشف الأحفوري إلا إضافة دوائر جديدة حول النظرية.

(1) http://www.darwinismrefuted.com/natural_history_2_12.html.

-ويقول في موضع آخر على موقعه الرسمي أن- الجميع يعلمون الآن بشأن الفجوات الأحفورية، وخلافاً لتوقعات عدد كبير من علماء الأحياء، لم تمتلئ الفجوات الأحفورية يومًا ما حتى مع آلاف آلاف الحلقات الوسيطة المتوقعة!

إذن ما هو الدليل-على النظرية-؟

ما الذي يحاول هؤلاء إثباته بالضبط؟»[1].

وهي نفس النتيجة التي توصل لها كولين باترسون Colin Patterson -من كبار علماء الحفريات-، والذي عمل في مجال التطور طيلة عشرين سنة، ثم قال: « لقد استيقظت ذات يوم واكتشفت أنني بعد عشرين عامًا من العمل في التطور لا أجد دليلاً عليه سوى تخمينات اعتباطية».

وقال: «نعم أتفق معكم تمامًا، لا توجد أحفورة واحدة نستطيع أن نجادل بشأنها»[2].

---

(1) Everybody is by now familiar with the fossil gaps. Contrary to a great number of biologists' expectations starting with Darwin, the fossil gaps have never filled up with the thousands upon thousands of predicted intermediates. The vast majority of the gaps are real; about this there is no doubt. So what do they signify? What do they prove.
Neo-Darwinists, and the majority of biologists, fall into a dogmatic worldview insisting that the fossil gaps mean nothing. They are sold on a promissory evolutionism—faithfully believing that eventually the gaps will fill up.
http://www.amitgoswami.org/2014/11/05/darwins-mistake/

(2) «I fully agree with your comments on the lack of direct illustration of evolutionary transitions in my book. If I knew of any, fossil or living, I would certainly have included them. . .I will lay it on the line, There is not one such fossil for which one might make a watertight argument.»
- Colin Patterson, (Creation Science Foundation, Revised Quote Book, 1990).

لقد أوضح كولين باتريسون وغيره أن مشكلة التطور تقوم على الفروض الفلسفية والأُطر التأويلية لا أكثر، ولو كانت النظرية تملك دليلاً علميًا واحدًا لتوقف الجدل بشأنها منذ زمنٍ بعيد.

أما الملحد اللاأدري الشهير ديفيد بيرلنسكي David Berlinski فيرى أن التطور طبقًا لمعطياتنا الأحفورية من مفهوم رياضي-وهو مجال تخصصه- مستحيل! حيث يؤكد أن التطور وهم وخرافة من منظور إحصائي رياضي، وطبقًا له فإنه عندما تقرر البقرة أن تتحول إلى حوت -كما يفترض التطور- فإنها بحاجة إلى 50 ألف تغير جسدي بها، ولابد أن تكون هذا التغيرات متزامنة، ولابد أيضاً من وجود ملايين الكائنات الوسيطة في كل تغير، والنتيجة التي نعرفها جميعاً أنه لا وجود لأيٍ من هذه الكائنات الوسيطة وفي النهاية يبقى السؤال:مَن هو الموجه لهذا التغير؟[1].

من العدل أنْ نقولَ أنَّ علماء الأحافير قد شغلوا أنفسهم بجهودٍ ملحمية لاكتشاف الروابط المفقودة باحثين في آلاف السفوح الرسوبية وفي أطنان الصخور الصلبة (ليس فقط الأحجار الرملية أو الصخور الطينية بل حتى في صخور الكوارتز التي تحتاج لتقطيعها إلى شرائح رقيقة)[2].

نستنتج أنَّ ندرةَ الأحافير الانتقالية لا تعود لنقصٍ متأصلٍ في السجل الأحفوري، ولا إلى قلّة الجهود المبذولة لاكتشافه.

خلاصة ما في الموضوع أن: الداروينية لا تملك الدليل إلّا من غياب الدليل الأحفوري الذي وضعت النظرية من أجل تفسيره.

---

(1) http://www.youtube.com/watch?v=OMw3OzQfVvI.

(2) تصميم الحياة، د.ويليام ديمبسكي ود.جوناثان ويلز، ترجمة د.مؤمن الحسن وآخرين، دار الكاتب ص116.

وحين بذل العلماء جهوداً جبارة في الأحافير فمن العدل أن نتخلى عن مثالية التطور كحقيقة علمية لتفسير تنوع الكائنات الحية.

يعترف التطوري الشهير هنري جي Henry Gee والذي يعمل محررًا علميًا في مجلة الطبيعة Nature أيضًا أن هوس صحة التطور من خلال الأحافير أصبح سرابًا، فيقول: «لا تُدفن الأحفورة مع شهادة ميلادها، وأصبح من المستحيل عمليًا محاولة ربط هذه الأحافير في سلاسل مقبولة من نمط سبب ونتيجة... إنّ أخذ سلالة من الأحافير وادعاء أنها تمثل خطًا تكاثريًا لا يعتبر فرضية علمية قابلة للاختبار، وإنما هو تأكيد على قصة تحمل نفس القيمة العلمية للقصص التي تروى قبل النوم»[1].

التشابه الجيني بين الإنسان والشمبانزي

قوام نظرية التطور على الأحافير والطفرات والتشابه الجيني بين الإنسان والشمبانزي، والمسألتان الأولى والثانية فصّلنا فيهما في المقالات السابقة وبقيت مسألة التشابه الجيني بين الإنسان والشمبانزي والتي نُفرد لها هذا المقال!

يزعم التطوريون أن نسبة التشابه الجيني بين الإنسان والشمبانزي تقترب من 98 % وهذا يقطع بوجود السلف المشترك[2].

حيث تُؤخذ هذه المعلومة كدليل قاطع على تطور الإنسان والقرود من أسلاف مشتركة!

لكن ماذا يعني هذا التشابه الجيني؟

---

(1) Henry Gee, In Search of Deep Time, p.116 (م. س. ص135).

(2)http://www.sciencedaily.com/releases/2006/10/061013104633.htm.

دعونا في البداية نُفَصِّل الأمر: يتكون الجينوم من أربعة أسس نكليوتيدية Nucleotides فقط وهي C وG وT وA وبتراتب هذه القواعد جنبًا إلى جنب تعطي شفرات لإنتاج بروتين. فمثلاً بروتين الهيموجلوبين يتكون من آلاف القواعد النكليوتيدية التي تصطف بترتيب معين ودقة متناهية، ولو تبدّل حرف مكان آخر أو سقط حرف فإن هذا يعني خلل في الهيموجلوبين الناشئ. فالأسس النكليوتيدية مثل حروف اللغة عندما تجمع بعض الحروف تستطيع تكوين جملة مفيدة، ولو سقط منها حرف فقد ينقلب المعنى تمامًا.

هذه المقدمة التبسيطية تطرح ثلاث قضايا في غاية الأهمية:

القضية الأولى: أن التشفير نتاج خلق. فعندما يتم تشفير معلومة ستُستخدم في مرحلةٍ لاحقة -بناء بروتين متخصص-، هذا يعني بالبداهة العقلية أن واضع التشفير يعلم قيمة هذه المعلومة ويعلم كيف توضع وبأي ترتيب ستوضع، فالتشفير هو منظومة معلوماتية Know How وليس منظومة مادية والمعلومة لا ينتجها إلا عالم وقادر وصانع وقبل ذلك بداهةً هو موجود، فالتشفير لمن تدّبر يُسقط فكرة الإلحاد ككل!

القضية الثانية: ما المانع أن يصنع الخالق بنفس الطريقة أغلب المنظومات الحياتية؟

أليست هذه شهادة على وحدة الصانع؟

﴿ تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ﴾ [الملك: 3]!

القضية الثالثة: توجد أربع قواعد نكليوتيدية كما أوضحنا، وبالتالي فإن أي تراص عشوائي سيأتي بدرجة تشابه تتجاوز 25 %، وبناءً على ذلك فأي دعوى تزعم التشابه لابد أن تأخذ هذه النسبة في الحسبان.

أضف إلى ما سبق أن: جينوم الشمبانزي أكبر بنسبة 10 % من جينوم الإنسان[1].

وبالتالي فإذا قمنا بترتيب DNA الخاص بالإنسان مع DNA الخاص الشمبانزي فإن 10 % من DNA الشمبانزي لن يكون له مقابل عند الإنسان، وعند النظر إلى المسألة من هذه الزاوية نجد أنه لا بد أن يكون الفرق بين DNA الشمبانزي والإنسان 10 % كحد أدنى على الأقل[2].

لكن مؤخرًا أشارت التقديرات إلى أن جينوم الإنسان والشمبانزي أكثر تقاربًا من ناحية الحجم، وبغض النظر عن التقديرات الحالية، فدعوى التقارب بنسبة 98 % ظهرت حين كانت الحسابات تقول بوجود فارق 10 % في حجم الجينوم بين الإنسان والشمبانزي فكيف استقام لهم ذلك؟

لكن على كل حال فإن القول بتشابه DNA الإنسان والشمبانزي بنسبة 98 % قول مضلل في الأصل؛ وهو يعود إلى العام 1987 حين قام عالمان تطوريان أحدهما يدعى سيبلي Sibley والآخر يُدعى ألكوست Ahlquist بدراسة 30 - 40 بروتين في الشمبانزي ومقارنتها بتلك الموجودة في الإنسان، واستنتجا أن نسبة التشابه في الجينات بين الإنسان والشمبانزي هي 98.5 % وتم نشر البحث في مجلة تطورية شهيرة آنذاك[3].

(1) C. Pellicciari, D. Formenti, e. A. Redi, and M. G. Mandfredi Romanini, DNA Content Variability in Primates, Journal of Human Evolution 11, p.131-141.

(2) تصميم الحياة، د.ويليام ديمبسكي ود.جوناثان ويلز، ترجمة د.مؤمن الحسن وآخرين، دار الكاتب ص32.

(3) Sibley and Ahlquist, Journal of Molecular Evolution, vol. 26, pp. 99-121.

لكن تطايرت أنباء بحث سيبلي وألكوست وسارت به الركبان في شتى بقاع الأرض، حيث هناك قوافل من المتعطشين لأي دليلٍ يثبت لهم صحة التطور فوجدوا في بحث سيبلي وألكوست مبتغاهم.

المزعج في هذا البحث أنه قديم فقد تم عام 1987، ولم نكن قد انتهينا بعد من مشروع الجينوم البشري ولا حتى قد ابتدأنا فيه![1]

أيضًا يوجد في الإنسان ما يزيد على 100 ألف بروتين مُشفر داخل DNA فلا يُعقل أن يتم تعميم دراسة 30 - 40 بروتين على 100 ألف بروتين، ثم الخروج بنتيجة شمولية كتلك النتيجة التي زُوِّجَ لها من قِبل التطوريون، إنه نوعٌ من التدليس لا أكثر.

ومما يُلفت النظر أن هذا البحث جرى من خلال تجربة قليلة الاستخدام وهي تجربة DNA التخليطي أو التهجيني DNA Hybridization، وهي

(1) بدأ العمل في مشروع الجينوم البشري Human Genome Project عام 1990 وتم الانتهاء منه عام 2001 تحت قيادة عالم البيولوجيا الشهير فرانسيس كولينز Francis Collins، وفي أثناء العمل في المشروع ترك فرانسيس كولينز الإلحاد بعد أن تأمل منظومة الخلق الإلهي في تجلياتها البديعه وكيفية تشفير الوظائف الحيوية بمنتهى الضبط والدقة.

http://en.wikipedia.org/wiki/Human_Genome_Project

وفي مرحلةٍ لاحقة وضع فرانسيس كولينز كتابه لغة الإله Language The God of.
وقد خرج العالم الشهير مايرز Gene Myers في الأخبار عام 2001 بعد أن تم الانتهاء من مشروع الجينوم البشري وتحدث عن الميتافيزيقيا التي تخترق العلم وعن ثمة خالق لابد من وجوده حتمًا ونشرت جريدة سان فرنسيسكو كرونيكِل San Francisco Chronicle صبيحة ذلك اليوم تحت عنوان:

Human Genome Map Has Scientists Talking About the Divine

علماء خريطة الجينات البشرية يتحدثون عن الخالق..!!

http://www.sfgate.com/business/article/Human-Genome-Map-Has-Scientists-Talking-About-the-2950445.php

تجربة غير دقيقة -حيث يتم تسخين جزء من جينوم الإنسان والشمبانزي اللذان يشفران لـ30 - 40 بروتين ثم سُمح لهما بالاقتران وقياس نسبة الأسس النكليوتيدية المتزاوجة-، وقد قام أحد العلماء ويدعى ساريش Sarich باستخدام نفس التجربة على نفس البروتينات التي قام بها العالمان واكتشف أن مصداقية أبحاثهم مثيرة للجدل، فالبيانات مبالغٌ فيها إلى حدٍ كبير، ونسبة التشابه أقل من ذلك بكثير[1].

وبغض النظر عما جرى في الثمانينيات والدعوى العريضة التي لم تكن توازيها دقة بقدرها، بغض النظر عن كل ذلك؛ فمشكلة دراسة تراص القواعد النكليوتيدية والتي يبلغ عددها أكثر من ثلاثة مليارات قاعدة أمر عسير للغاية، وقد وصفت مجلة أبحاث الجينوم Genome Research العلمية المحكّمة المرموقة أن مقارنة جينوم الإنسان بذلك الخاص بالشمبانزي هو يشبه البحث عن إبرة في أكوامٍ من القش[2].

وعلى الرغم من تسليم المجلة بنسبة تقارب بين الإنسان والشمبانزي تصل إلى 96 % وليس 98 % إلا أنها تعترف بأن التراص بين القواعد النكليوتيدية ليس كل ما في الأمر.

فالقضية «معلومات» مُشفرة لوظائف متخصصة ستظهر في الكائن الحي كما فصّلنا منذ قليل.

ثم إن مسألة التشابه في القواعد النكليوتيدية والتركيبية والوظيفية بين الكائنـات الحية بديهة طبيعية لا تحتاج للتدليل عليهـا بالإثبات أو النفي!

---

(1) Sarich et al. 1989. Cladistics 5:3-32.

(2) Comparing the human and chimpanzee genomes: Searching for needles in a haystack http://genome.cshlp.org/content/15/12/1746.full.

فهي ضرورة حياتية لازمة للسلسلة الغذائية والهرم الغذائي، فما لا يريد أن يدركه التطوريون أن التشابه أمر حياتي حتمي، فمثلاً لنفترض أن جزيء البروتين الذي يتكون من قواعد نيتروجينية وجزيئات سُكر خماسية في الإنسان هو مثلاً قواعد زرنيخية وجزيئات كوبلت في البقر، فساعتها لن تكتمل السلسلة الغذائية ولن يستفيد الإنسان من البقر وسيكون كل كائن حي بمثابة سُم للكائن الحي الآخر، وتنهار منظومة الأسباب التي خلق الله بها العالم وتتوقف الحياة. فالتشابه ضرورة غذائية حتمية يعرفها الناس بالبداهة لاكتمال السلاسل الغذائية، وهو دليل على وحدة الصانع لو تدّبرنا!

والتشابه الشديد مع الإنسان ليس أمرًا حصريًّا بالشمبانزي! لكن هم يريدون التركيز على ذلك لدعاوى أيديولوجية ومقدمات عقائدية معلومة. وإلا فنسبة التشابه بين الإنسان والدجاج عالية للغاية طبقًا لبحث أجرته جامعة كامبريدج University of Cambridge[1].

أيضًا نسبة تشابه الجينوم الخاص بالإنسان مع ديدان النيماتود nematode يصل إلى 75 % وهذا حتمًا لا يعني أن 75 % من جسد الإنسان مطابق للديدان[2].

ونسبة التشابه بين الإنسان وذبابة الفاكهة 60 %.

وإذا أردت المزيد من العجائب في تشابه الجينوم بين الكائنات الحية فخذ هذه المعلومة المدهشة والمضحكة في آن:

(1) New Scientist, v. 103, 16 August 1984, p. 19.
(2) Hürriyet daily, 24 February 2000.

نسبة التشابه بين الإنسان والفأر 99 %![1].

فهل الإنسان أقرب للفأر من الشمبانزي؟

ألسنا لو اعتمدنا أحجية التشابه الجيني تلك، يمكننا أن نسقط بها شجرة التطور ككل؟

هل تريد المزيد؟

نسبة التشابه بين الإنسان ونبات الموز يزيد على 50 %![2].

وفي مجلة ساينتيفك أمريكان Scientific American التطورية الشهيرة عدد ديسمبر 2009 والتي تقوم بتعريبها مؤسسة الكويت للتقدم العلمي أخذت المجلة لها عنوانًا رئيسًا في ذلك العدد وهو: ما الذي يجعلنا بشرًا what makes us human?، وقامت الباحثة كاتبة المقال بدراسة متتالية الـ DNA في أحد الجينات ويُطلق عليه HAR1 في كلٍ من الإنسان والشمبانزي والدجاج، واكتشفت أن المتتالية للـ DNA بين الشمبانزي والدجاج تختلف في قاعدتين فقط من أصل 118 قاعدة بينما يصل الاختلاف بين الإنسان والشمبانزي إلى 18 قاعدة[3].

وهذا يُشكك في دلالة DNA وقدرته على التمييز بين الكائنات الحية المختلفة، وأن الأمر لا يعدو كونه مجرد متتاليات لقواعد نيتروجينية، وليس معنى أن مقاس حذاء الإنسان أقرب لمقاس حذاء التمساح من مقاس حذاء الفيل أننا والتماسيح من أصل واحد، فهذه سطحية في البحث.

---

(1) http://www.nature.com /nature /journal/ v420/ n6915/ full/ 420509 a.html.

(2) http://seriousfacts.com/50-of-human-dna-is-the-same-as-a-bananas/.

(3) مجلة Scientific American عدد ديسمبر 2009 تعريب مؤسسة الكويت للتقدم العلمي.

ولذا يقول هنري جي Henry Gee المحرر العلمي في مجلة الطبيعة Nature الشهيرة عن مسألة وجود نسب بين الإنسان والحيوان بناءً على تراص القواعد النكليوتيدية عن أن الأمر لا يعدو مجرد حدوته، فيقول: « وكل ما في الأمر أنها مجرد حكاية أو حدوته من أحاجي منتصف الليل المسلية التي قد تكون مُوَجِّهَةً أو مُرْشِدَةً للإنسان في كثيرٍ من الأحيان، إلا أنها ومع ذلك لا تستند لأيّ أساسٍ علمي»[1].

فمسألة النسب والقرابة بين الإنسان والحيوانات بناءً على تراص القواعد والمتتاليات وهم وخرافة؛ ونحن في حاجة ماسة وعاجلة إلى عدم الدفع بالعلم إلى دائرة الخرافة[2].

والعلماء عليهم أن يكفوا عن أن يكونوا علماء أنساب.

فالإنسان لا يمكن تصنيفه كالأشياء بمجرد دراسة مجموعة المتتاليات النكليوتيدية التي تُكون الجينوم الخاص به، أو بدراسة حجم الجمجمة أو بدراسة خطوط الكف!

الإنسان لا يمكن فهمه أو قولبته بدراسة متتالياته ومقارنتها بغيره، وإلا فلا نلوم على مَن يستخدم تفاصيل الوجه أو مقاس الجمجمة في تحديد الشخصية وتصنيف البشر فكلها علوم زائفة Pseudo-science وحريٌّ بالعلم أن يتخطاها حتى يُبقى على احترامه!

---

(1) Henry Gee, In Search of Deep Time, New York, The Free Press, 1999, p.116-117.

(2) John R. Durant, «The Myth of Human Evolution», New Universities Quarterly 35.

التطور الصغير المفقود

ظهرت ملايين الأنواع الجديدة من الكائنات الحية لا شك في ذلك.

تضع هذه الحقيقة مشكلة أمام التطور الدارويني، فبحساب صغير وطبقًا لما تفترضه الداروينية فإن عدد أنواع الكائنات الحية على زمن ظهورها يعني ببساطة كائن حي جديد يظهر للوجود كل بضعة ساعات. هذه حقيقة لا علاقة لها بكونك تطوريًا أو رافضًا للتطور!(1)

لكن هذه الحقيقة لم نتحرى ولو جزء يسير منها يقنعنا أننا نمضي في الاتجاه الصحيح.

فلم يتم رصد تحول كائن حي إلى كائن حي آخر على الإطلاق، وقد ذكر عالم الجراثيم بجامعة بريستول آلان لينتون Alan H. Linton عام 2001م حقيقة هذا الأمر فقال: «لا يوجدُ أي منشور علمي يدّعي تطورَ نوعٍ ما إلى نوعٍ آخر. والجراثيم هي الشكل الأبسط من أشكال الحياة المستقلة، وهي مثاليةٌ لمثل هذا النوع من الدراسات فزمن الجيل 20 - 30 دقيقةً ويمكنُ الحصولُ على الجماعات خلال 18 ساعة. وخلال 150 عامًا من انطلاق علم الجراثيم لم يسجَّلْ تطور نوع جرثومي إلى نوع آخر نهائيًا، ونظرًا لانعدام الدليل حول تغير الأنواع في الشكل الأبسط من أشكال الحياة وهو الجراثيم، فلن يكونَ مستغربًا فقدانُ الدليل حول تطور الكائنات الحية الأرقى متعددة الخلايا»(2).

---

(1) يوجد على ظهر الأرض حاليًا ما يزيد على 3 مليون نوع من الكائنات الحية، وأضعاف هذه الأنواع منقرضة بحسب الداروينية، وأضعاف أضعاف هذه الأرقام المفترض أنها حلقات وسيطة، بحساب هذه الأعداد على زمن ظهورها منذ لحظة الانفجار الكبير، فإن الناتج هو كائن حي يظهر للوجود لأول مرة كل بضعة ساعات.

(2) CAlan Linton, Scant Search for the Marker, the Timer Higher Supplement (April 20.2001) Book Section 29. =

وهذه كانت نفس النتيجة التي توّصل لها عالما الأحياء التطورية مارغيليوس Lynn Margulis وساغان Dorion Sagan حيث ذكرا في عام 2002 ما يلي: «لمْ نستطعْ اقتفاءَ دليلٍ مباشرٍ على الانتواع -ظهور الأنواع الجديدة- سواءً كان في جزر الجالاباغوس البعيدة Archipiélago de Colón أو في أقفاص مختبرات خبراء ذبابة الفاكهة أو في الرسوبات المتكدسة». لا يزالُ الدليلُ الحاسمُ على التطور مفقودًا[1].

لقد كان داروين Charles Darwin يظن منذ قرابة القرن ونصف من الزمان أنَّ الأنواعَ طيِّعَةٌ للتغيير بشكلٍ لا نهائي، فهي تتغير تطوريًّا بلا انتهاء. إلّا أنَّ عقوداً من الأدلّة المتجمعة قد تحدت هذا الاعتقاد.

فكل ما رصدناه هو مجرد تغيرات ضمن النوع الواحد، فزيادةُ نسبةِ العثّ الإنجليزي peppered moths الغامق خلال فترة الثورة الصناعية لم يكن أكثر من مجردُ تنوعٍ لوني ضمن نوع العث نفسه، وقد وفّرت لنا علوم الهندسة الوراثية أبقارًا وفيرةَ اللحم ودجاجاً ألذَّ في الطعم وذُرَةً أغنى بالبروتين؛ لكن الماشيةَ ظلّت ماشية والدجاج ظلَّ دجاجاً والذُّرَة ظلت ذرة.

كل ما في الأمر أنه ازدادَ إنتاج النباتات والحيوانات المدجنة بشكلٍ كبيرٍ من خلال استغلال التنوع الوراثي؛ لكن في كل الحالات استنفذ التنوع أقصى حد ولم يعدْ بالإمكان حصول المزيدِ من التغيُّرِ فيها.

(تصميم الحياة، د.ويليام ديمبسكي ود.جوناثان ويلز، ترجمة د.مؤمن الحسن وآخرين، دار الكاتب ص152-151).

(1) Lynn Margulis and Dorion Sagan, Acquiring Genomes: A Theory of the Origins of Species, p.32 (م.س. ص152).

وفي النهاية لم يستطعْ أحد أبداً أنْ يثبتَ إنتاج علوم الهندسة الوراثية لنوعٍ واحدٍ جديد فضلاً عن إنتاج الأعضاء الجديدة والنظم الجسدية المطلوبة من أجل حصول التطور الكبير.

فكل الأدلة تشير إلى نتيجةٍ واحدة: لم نر حتى الآن أي انتواعٍ أولي فضلاً عن أن نرى تطوراً كبير المستوى(1).

لكن هنا قد يتساءل أحدهم قائلاً: أليست مقاومة البا كتريا للمضادات الحيوية صورة أولية مبسطة من تغير الأنواع في الكائنات الجرثومية؟

في حقيقة الأمر هذا ليس تطورًا بالمفهوم الاصطلاحي للتطور، بل هو أقرب إلى الانتكاسة Devolution منه إلى التطور Evolution، ففي مقاومة البا كتريا للمضادات الحيوية ما يحدث هو الانتقال الأفقي للجينات Horizontal Gene Transfer والمقصود به هو انتقال الجينات المسئولة عن مقاومة البا كتيريا ضد المضاد الحيوي من خليةٍ إلى خليةٍ أخرى، وهي خاصية شائعة في البا كتيريا، و انتقال جين المقاومة من خلية بكتيرية إلى خلية بكتيرية أخرى يؤدي إلى ا كتساب هذه الأخيرة لصفة جديدة لم تكن موجودة فيها من قبل.

نضيف إلى هذا حقيقة هامة؛ وهي أن البا كتيريا التي تكتسب جينات المقاومة ضد المضادات الحيوية (أو أية جينات أخرى) تظل كما هي حاملة لكل الصفات والسمات الطبيعية والبيولوجية لنوعها وفصيلتها، ولا تتحول إلى كائن مختلف، فالبا كتيريا المسببة لمرض معين في الإنسان مثلاً تظل كما هي تسبب نفس المرض وأعراضه وعلاماته وتسلك نفس السلوك، الفرق

(1) تصميم الحياة، د.ويليام ديمبسكي ود.جوناثان ويلز، ترجمة د.مؤمن الحسن وآخرين، دار الكاتب ص156-155 بتصرف.

الوحيد يكمن في مقاومتها للمضادات الحيوية التي تحمل جينات مناعية ضدها[1].

لكن لماذا هي انتكاسة وليست تطورًا؟

لأن مقاومة المضاد الحيوي في الغالب تتم من خلال التضحية بأجزاء من الشفرة الوراثية بحيث لا يتعرف عليها المضاد الحيوي، وتقوم الباكتريا بعد ذلك بنقل هذا الجين المبتور إلى الخلايا الجرثومية المجاورة، فالمناعة التي تكتسبها الميكروبات نتيجة عمليات تكسير وليس بناء.

وبعد أن يختفي المضاد الحيوي تبدأ السلالات التي لم تفقد أي جزء من شفرتها الوراثية في التكاثر مجددًا، حيث تصبح أقوى من السلالة التي قاومت المضاد الحيوي وفقدت جزءاً من شفرتها.

وخير مثالٍ على ذلك: «عقار الكلوروكوين Chloroquine» المضاد لطفيل الملاريا Malaria؛ حيث تم تطوير هذا العقار في ثلاثينيات القرن الماضي وظل العقار فعالاً طيلة خمسين عامًا، وفجأةً وبحلول الثمانينيات أصبحت تقريبًا كل سلالات الملاريا لديها مقاومة لهذا العقار، فتوقف الأطباء عن وصفه للمرضى. وبعدها مباشرةً ماتت السلالات المقاومة للعقار وحلت محلها الطفيليات الغير مقاومة للعقار؛ إذن فالسلالات المقاومة لم تكن نسخة أكثر صلاحية، وإنما سادت المشهد لفترةٍ قصيرة.

وقد رصدت مجلة الأمراض الوبائية The Journal of Infectious Diseases

(1) Bjrkholm, B., I. Nagaev, O.G. Berg, D. Hughes, and D.I. Andersson. 2000. Effects of environment on compensatory mutations to ameliorate costs of antibiotic resistance. Science 287:1479-1482.

(من مقال للدكتور هشام عزمي -أخصائي التخدير والعناية المركزة بمعهد ناصر للبحوث والعلاج- على منتدى التوحيد)

الصادرة عن أوكسفورد Oxford Journals دراسة خاصة بهذا الشأن خرجت منها بنتيجة أن: طفيل الملاريا المقاوم لعقار الكلوروكوين حدثت له طفرات وتحورات تضمنت فقدان للوظيفة الأصلية لأحد الجينات داخل الملاريا، فالطفرة التي تمنح المقاومة هي أقل صلاحية من النمط العادي[1].

أضف إلى ما سبق أن: هذه الطفرات تحدث داخل نفس النوع ولم يثبت أبدًا أن مثل هذه الطفرات خلّقت مثلاً مادة وراثية جديدة داخل DNA بل لم تُخلَق حتى موقع ربط واحد بين بروتين وبروتين في غشاء الخلية البكتيرية. تخيّل إلى أي حد وصل الوضع؟[2].

والخلاصة: لا تُنتج تغيرات الهندسة الوراثية أبنية جديدة داخل الخلايا، ولا تزيد المعلومة الجينية، ولا التعقيد البيولوجي؛ وبالتالي يستحيل أن تحلل الطفرات تطور النوع نحو الأفضل فضلاً عن ظهور أنواع جديدة لديها كومة عملاقة منضبطة من القواعد النيتروجينية مشفرة لوظائف جديدة ستظهر في كائن جديد!

وقد نشرت مجلة علم الأحياء النمائي Developmental Biology التطورية مقالاً اشترك فيه مجموعة من علماء الأحياء وانتهى إلى أن: «التغيرات في مجالات الهندسة الوراثية قد تؤدي إلى التكيف مع البيئة لكن هذا لا يعني ظهور الأصلح، ويبدو أن أصل الأنواع -مشكلة داروين- يبْقى مشكلةً غير محلولة»[3].

---

(1) http://jid.oxfordjournals.org/content/184/6/770.long.

(2) Michael J. Behe, Darwin's Black Box.

(3) Scott F. Gilbert, John M. Opitz, Rudolf A. Raff, Resynthesizing Evolutionary and Developmental Biology , Developmental Biology Magazine, Vol173, P.357-372.

وفي اعترافٍ غير مسبوقٍ -ربما-؛ اجتمع أكثر من مائة وخمسون باحثًا في ملف التطور حول العالم في أحد المؤتمرات بجامعة شيكاغو University of Chicago لبحث آليات ظهور الأنواع، وكان السؤال المحوري في المؤتمر حول ما إذا كانت تغيرات الهندسة الوراثية وطفرات الجراثيم كافية لشرح ظواهر التطور الكبير -ظهور الأنواع الجديدة- وكانت الإجابة الواضحة هي: «لا»[1].

إنّ عجزنا عن رصد تطور أولي طيلة عقود من التجارب والاختبارات مع كائنات أولية ومعقدة يعني أن قضية التطور برُمتها خارج إطار العلم التجريبي والرصدي حتى الساعة، وهذا يدفعنا إلى التعامل مع التطور كفرضية قد تبدو مبهجة لبعض أصحاب الأيديولوجيات المادية لكنها تظل عصّية على التثبت فضلاً عن الجزم بصحتها!

تقارب الشكل الخارجي في الكائنات الحية

من السهولة بمكان حساب سرعة دوران قمر صناعي حول الأرض أو زمن دورانه باستخدام قانون الجذب العام لنيوتن Newton's law of universal gravitation أو ما يُسمى قانون التربيع العكسي، حيث قوة تجاذب أي جسمين في الكون تتناسب طرديًا مع حاصل ضرب كتلتيهما وعكسيًا مع مربع المسافة بينهما. كما ينص القانون[2].

ويمكن باستخدام نظرية النسبية العامة General Relativity لأينشتاين رصد انزياح الضوء لحظة مروره بتجمع مجرّي[3].

(1) http://www.sciencemag.org/content/210/4472/883.extract.

(2) http://en .wikipedia. org/wiki/Newton%27s _law_of_ universal_ gravitation.

(3) http://www.space.com/17661-theory-general-relativity.html.

أيضًا من خلال معادلات الحركة البراونية Brownian motion نستطيع التنبؤ باتجاه الجزيئات داخل السوائل[1].

هذا الرصد الدقيق والحساب المنضبط للظواهر باستخدام هذه النظريات يسمى بـ «المعيارية القانونية». فسواءً في قانون التربيع العكسي لنيوتن أو النسبية العامة لأينشتاين أو معادلات البروانية كلها يمكن التأكد منها في كل لحظة وإثبات صحة ما تتنبأ به، وبالتالي هي كلها نظريات علمية لها معيارية قانونية!.

أما حين ننتقل إلى نظرية التطور، فإننا لا نمتلك تلك التجربة التي لها «المعيارية القانونية»، وبالتالي لا نستطيع أن نجزم أن التطور نظرية علمية!

فلا يوجد داخل التطور مثل هاته الصياغات التجريبية الحاسمة في النظريات العلمية.

ولا نعثر داخل أدبيات التطور إلا على مصطلحات من قبيل « فجأةً - طفا - بزغ - قفز» وهي ألفاظ قد تُستخدم في التعاويذ السحرية لا في الأوراق العلمية ذات المعيارية القانونية.

وسنتعرض في هذا المقال لأحد هذه التعاويذ التي يدفع بها التطوريون في وجه خصومهم، ألا وهي تعويذة: «تشابه الشكل الخارجي للكائنات الحية كدليل على التطور والسلف المشترك!».

وبادئ ذي بدء؛ هذه التعويذة تعني أنه لا يوجد شيء آخر يمتلكه صاحب دعوى التطور، فلولا فقدان الدليل لما احتجّ التطوري بتخمين حمّال أوجه مثل تخمين التشابه.

(1) http://www.space.com/17661-theory-general-relativity.html.

وحُجة التشابه بين الكائنات الحية ليست حجة علمية تجريبية، وإنما حُجة اصطلاحية لغوية متعلقة بالتعريف الاصطلاحي لمعنى كلمة «تشابه»!

ثم ماذا يفيد التشابه؟

ومن أين لنا أن التشابه دليل تقارب؟

ولم لا يُستخدم التشابه كدليل على وحدة الصانع -أليس في التشابه بين الكائنات الحية دليلاً مباشرًا للمؤمنين بالخالق الواحد-؟

ولم يفد التشابه التقارب التطوري؟ لم لا يعني التشابه مثلاً: التماثل في الخلق والخِلقة حيث الكائنات الحية خلقت بنظام متماثل ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ﴾ [الأنعام: 38].

ولم يفيد التشابه السلف المشترك ولا يفيد سير العالم بنسقٍ واحد ﴿ تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ﴾ [الملك: 3]؟

وما لا حصر له من الأسئلة!

وهنا نحن الآن خارج دائرة العلم تمامًا حيث أخذ الجدال طابع الطرح الفلسفي!

أما داخل دائرة العلم فحتى لو افترضنا أن نظرية داروين صحيحة، فإنَّ أحدنا لن يتأكد نهائيًا من أنَّ السمات المشتركة المتشابهة في أحفورتين هي نتيجة تحدرهما من أسلافٍ مشتركةٍ، أو نتيجة تقارب أو نتيجة تماثل حيث كلها تخمينات قائمة وقد تصير كلها خاطئة!

فتشابه الهيكل المعدني للسيارات على اختلاف موديلاتها وأصنافها لا يعني بداهةً انحدارها من سلفٍ مشترك، بل هي مُصممة على نَسق معين وليست منحدرة أحدها من الأخرى!

لن تستطيع الأحفورة مهما كانت مكتملة ومُعبِّرة أن تثبت علاقتها بسلفٍ لها أو خلفٍ جاء بعدها!

كتب غاريث نيلسون Gareth Nelson خبير الأحافير بالمتحف الأمريكي للتاريخ الطبيعي كتب يقول: «فكرة الذهاب للسجل الأحفوري من أجل الحصول على استنتاج تجريبي لعلاقة السلف - الخلف بين الأنواع، والأجناس، والعائلات، أو كل ما كان، أو ما يمكن أن يكون، ما هو إلا وهمٌ خبيث»[1].

وإذا نظرنا في سجلات الكائنات الحية على وجه الأرض فمن المُلفت للانتباه أنّنا نستطيع تصْنيف الكائنات الحيَّةِ لمجموعاتٍ منفصلة، كأنواعٍ وأجناسٍ وعائلاتٍ ورتبٍ وصفوفٍ وشعبٍ وممالك بمنتهى الضبط تمامًا!

ما لغز هذا التمايز الشديد وهذه الخنادق الضخمة الحقيقية بين ممالك الكائنات الحية لو كانت القضية سلف مشترك أوحد؟

أضف إلى ذلك أنك لن تستطيع إثبات علاقة قرابة بين كائنين، إلا في حالة واحدة فقط وهي تطابق الـ DNA الخاص بهما وساعتها فقط ستعلم أنك أمام توأم متماثل!

ومن أجل ذلك وبسبب فقدان الأدلة، يضطر التطوريّون للاعتماد على التشابهات الخارجية بين الكائنات الحية من أجل بناء فرضيات التطور ورسم شجرة الأنساب، فلا يمتلكون داخل العلم ما يؤكد مزاعمهم فيستخدمون في النهاية تخمينات التشابه!

---

(1) From a presentation by Gareth Nelson in 1969 to the American Museum of Natural History, quoted in David M. Williams and Maire C. Ebach, «The Reform of Palaeontology and the Rise of Biogeography- 25 Years after 'Omogeny, Phylogeny, Palaeontology and the Biogenetic Law' (Nelson, 1978),» Journal of Biogeography31 (2004): 709.

لكن حجة التشابه هذه التي يستخدمها التطوريون تحتوي على إشكالية ضخمة تُفجِّر الوضع كليًّا أمامهم، فهل فكّرت يومًا في تشابه عين الأخطبوط وعين الإنسان؟

هل فكّرت يومًا في تشابه تقنية السونار Sonar التي يستخدمها الخفاش والدلافين؟

هل فكّرت يومًا في تشابه أجنحة الحشرات وأجنحة الطيور؟

كل هذه تشابهات موجودة في الطبيعة، ومع ذلك يقطع التطوريون قبل غيرهم بعدم وجود أي نوعٍ من التقارب بين أصحاب هذه التشابهات!

وهنا تظهر الإشكالية الضخمة! إذ كيف سار التطور في مساراتٍ متباينةٍ منتهى التباين لينتهي إلى نفس النتائج؛ فأجنحة الطيور تختلف تمام الاختلاف في بنيتها وديناميكيتها ومسارها التطوري المزعوم عن أجنحة الحشرات ومع ذلك يؤديان في النهاية المهمة ذاتها وهي الطيران!

إنَّ القدرةَ على الطيران الديناميكي تحتاج لمجموعة معقدة من الأنظمة التي تؤثر في كل عضوٍ من الجسم.

ومع ذلك ظهر الطيران متكاملاً وبمنتهى الضبط وبشكل مستقل تمامًا ودون علاقة تقارب أربع مرات: في الطيور والحشرات والثدييات -الخفاش- والزاحف المجنح pterosaurs.

إذن التشابه لم يكن دليلاً على التقارب!

فلماذا نجزم بالتقارب في كائناتٍ أخرى حين نلحظ ظواهر متشابهة بينهم؟

أيضًا قانون الإبصار يوجد بمثالية في الإنسان -أدق وأنقى عدسة على

الإطلاق- وفي حيوان الأخطبوط، ومع ذلك على المستوى التشريحي لا علاقة لعين الإنسان بعين الأخطبوط![1].

فالعين هنا تختلف تمامًا عن العين هناك، فهل سلك التطور طريقان مختلفان ليصل في النهاية لنفس النتيجة بالضبط وبنفس الكفاءة؟

وإذا كان التشابه هنا أيضًا ليس دليلاً على التقارب فلم نجزم أنه دليل على التقارب في صورٍ أخرى؟

أيضًا تكنولوجيا السونار تختلف تمام الاختلاف تشريحيًّا في الخفاش عن طيور الزيت عن الدلافين عن الحيتان وجميع هذه الكائنات تتمتع بهذه التكنولوجيا بمثاليةٍ عالية، ومع ذلك تختلف تشريحيًّا تمام الاختلاف[2].

فهل سلك التطور عشرات الطرق ليصل لنفس النتيجة في النهاية؟

ولو تبصّرت الفراء الشوكي للشيهم Porcupine الأفريقي تراه يختلف تشريحيًّا تمام الاختلاف عن الفراء الشوكي للشيهم الأمريكي![3].

مثال آخر وهو: الباندا العملاقةُ والباندا الصغيرة الحمراء. فإحداهما تُصنف ضمن عائلة الراكون Procyon والأخرى ضمن عائلة الدببة. إذن التشابهات الشديدة بينهما ليستْ نتيجةً تناظراتٍ تطورية، فنوعي الباندا لمْ يرثا الصفات المشتركةَ بينهما من سلفٍ مشتركٍ[4].

(1) http://www.ncbi.nlm.nih.gov/pmc/articles/PMC509264/.

(2) http://en.wikipedia.org/wiki/Animal_echolocation.

(3)http://www.thehatchreport.com/information/african-north-american-porcupines.html.

(4) تصميم الحياة، د.ويليام ديمبسكي ود.جوناثان ويلز، ترجمة د.مؤمن الحسن وآخرين، دار الكاتب ص174.

تطرح مثل هذه الحوادث -وهي كثيرة في الطبيعة- سؤالاً حول إمكانية اعتماد الصفات المتشابهة كأدلّة معتمدة على العلاقات التطورية!

فهذه أمثلة بسيطة تثبت عجز التطور عن استيعاب وتحليل التشابه بين الكائنات الحية!

فمرةً يقرر التطوريون وجود تشابه ومرةً ينفون، ولا توجد قاعدة لإثبات التقارب لمجرد التشابه إلا التخمين، وعندما يختلف التركيب الداخلي مع وجود التشابه الخارجي ينفون سريعًا التقارب!

هذه هي التعويذة التي تحدّثنا عنها في بداية المقال!

إنها تعاويذ سحرية وتخمينات افتراضية، وليست علمًا له تلك «المعيارية القانونية» القاطعة.

أليس الأدق عقليًا أن: نُسلِّم بوجود خالقٍ ضابطٍ للنظم ومتقن لها! خلقها بحكمةٍ وقانونٍ داخلي كلي ذو علمٍ محيط يسيطر على نظم الكائنات الحية المختلفة!

أليس الأصح والأقرب أن تكون هذه خطة خلق؟

إن اعتماد التشابه كدليلٍ على السلف المشترك هو مغالطة فلسفية عقيمة، تسمى مغالطة الاستدلال الدائري Circular Reasoning وهي في اللغة تعني: «توقف الشيء على ما يتوقف عليه».

فليس معنى وجود كائنين متشابهين في الشكل المورفولوجي -الإطار الشكلي والبنائي- والتشريحي والوظيفي أن لهما أب واحد common archetype، هذه مغالطة؛ لأن الأصح رصد التفريع من الأب أولاً، أما ما يحدث هنا فهو استدلال دائري وفلسفة تأويلية افتراضية.

فهذا من باب وضع العربة قبل الحصان - كما يقول المثل الإنجليزي-.

ومن أجل ذلك فقد اقترح عالم الكيمياء الدقيقة والفيزياء الحيوية الأمريكي كارل ووس Carl Woese في عام 2002م أنَّ على علم الأحياء أنْ يتجاوزَ المبدأ الداروينيَّ في السلف المشترك[1].

وكتب في عام 2004م أن: «جذورَ الشجرة التطورية الشاملة هي جذورٌ مصطنعةٌ، وذلك ناتجٌ عن الالتزام بالشكل الشجري للحياة رغم كونه غيرَ مناسب»[2].

إن الشيء الذي يبدو واضحًا هو فشل التطور كليًّا في إثبات وجود سلف عالمي مشترك للحياة، كما فشل في تحديد تواريخ موثوقة لظهور الأنواع، كما فشل في تحديد العلاقات التطورية -إنْ كانت موجودةً أصلاً- بين أشكال الحياة القائمة، وفشل أيضاً في إثبات ماهية السلف العالمي المشترك -إن كان موجودا أصلاً- بشكلٍ واضح.

الفشل ثم الإصرار على الفشل هو عنوان دعاة التطور في جميع مراحلهم!

انفجار الكامبري

انفجار الكامبري Cambrian explosion هو اصطلاح يُسلِّم به التطوريون، وهو يعني ظهور مفاجئ لأغلب الكائنات الحية في بداية العصر الكامبري Cambrian Period.

---

(1) Carl Woese, «On the Evolution of Cells,» Proceedings of the National Academy of Sciences USA 99 (2002): 8742-8747.

(2) Carl R. Woese, «A New Biology for a New Century,» Microbiology and Molecular Biology Reviews 68 (2004): 173-186 (م.س. ص186).

حيث تفيد دراسة السجلات الصخرية ظهور معظم شعب الحيوانات المعروفة (أكثر من 95 %) في هذه الفترة القصيرة من عمر الأرض[1].

إن هذا الظهور المفاجئ "appearance "at once لهذا العدد الضخم والمدهش من الهياكل والكائنات الحية الجديدة دفعةً واحدة هو على العكس تمامًا مما تقتضيه الداروينية من التدرج مع الزمن والظهور المتقطع!.

ولذلك فقد أحدث انفجار الكامبري هزة كبرى في عقول التطوريين.

وانفجار الكامبري اكتشفه العالم «والكوت Walcott» في ألاسكا Alaska في بدايات القرن العشرين، لكنه أخفى أبحاثه تلك والتي استغرقت أربع سنوات كاملة وشملت 80 ألف حفرية، وقد علّق جيرالد سكرويدر Gerald Schroeder على هذا الموضوع قائلاً: «لو أراد والكوت ذلك لجاء بجيش من الطلاب من أجل بحث الحفريات ودراستها، لكنه فضّل ألا يتسبب في إغراق سفينة التطور، أما اليوم فقد أُكتشفت حفريات تعود إلى العصر الكامبري في الصين و أفريقيا و الجزر الإنجليزية والسويد بالإضافة إلى جرين لاند، وصار انفجار الكامبري قضية مُعاشة في العالم بأسره، ولكن المعلومات تم إخفاؤها قبل أن يكون ممكناً مناقشة طبيعة هذا الانفجار الخارق للعادة»[2].

وتعترف مجلة اتجاهات علم الوراثة Trends in Genetics التطورية المتخصصة بعبء انفجار الكامبري على مفهومنا عن التطور فتقول: «لقد ظهرت الأجهزة و الأعضاء في كل الكائنات الحية في انفجار الكامبري دفعةً

(1) http://www.pbs.org/wgbh/evolution/library/03/4/l_034 _ 02 .html.

(2) Gerald Schroeder, «Evolution: Rationality vs. Randomness http://www.geraldschroeder.com/evolution.htm.

واحدة وعلى أعلى قدر من التعقيد، ولم يعد بالإمكان تحليل هذا الانفجار في ضوء نظرية التطور»[1].

أضف إلى ما سبق أن: عصر الكامبري لم يبدأ بشكل مفاجئ فقط، بل انتهى بشكلٍ مفاجئٍ أيضاً، فلم تظهر شعب حيوانية جديدة منذ انتهاء عصر الكامبري وحتى وقتنا هذا، ولم يثبت نهائيًا أيّ شكلٍ انتقالي من كائنات ما قبل عصر الكامبري إلى كائنات عصر الكامبري، ولا يوجد أيٌّ دليلٍ على التشعب المتدرج للكائنات وهذا كله على عكس ما تتطلبه نظرية داروين تماماً[2].

ونظراً لهذه الورطة العجيبة يقرر عالم البيولوجيا الملحد التطوري سابقاً -والمحارب للتطور حالياً- جوناثان ويلز Jonathan Wells أن شجرة التطور المزعومة لم تعد تحمل شكل الشجرة على الإطلاق بسبب اكتشاف انفجار الكامبري فيقول: «تخيل نفسك على أرض ملعب كرة قدم؛ عندما تقف على أحد خطي المرمى هذا الخط يمثل بداية ظهور الحياة على الأرض-طبقاً للداروينية ذاتها-، والآن ابدأ السير في أرض الملعب، قم بتخطي خط العشرين ياردة، ثم الأربعين ياردة ثم منتصف الملعب، وتكون بذلك قد اقتربت من خط المرمى الآخر، وقبل خط المرمى بخطوة واحدة يحدث الانفجار الكامبري الكبير، وتظهر كافة أشكال الكائنات الحية والحيوانات.

في واقع الأمر الداروينية ليست شجرة كما يصورونها؛ إنها مجموعة حشائش مستقلة حيث تظهر الكائنات فجأةً منفصلةً عن بعضها البعض»[3].

---

(1) Trends in Genetics magazine, Volume Feb, 1999.

(2) http://www.bbc.co.uk/science/earth/earth_timeline /cambrian _explosion.

(3) كتاب القضية الخالق، ول ستروبل، ص58-57.

فالقضية لم تعد شجرة بل مجموعة «حشائش متناثرة»، إنه وصفٌ رائع لما حدث، إنَّ الظهور المتزامن تقريباً لمعظم الشعب المعروفة يبدو واضحاً في مخططها الجسدي العام ولا يوجد دليل على النشوء التطوري المتدرج.

بكل بساطة انفجار الكامبري يشكل التحدي الأكبر لنظرية التطور المعاصرة.

وإذا دقّقت النظر داخل انفجار الكامبري فلن ترصد سلاسل متدرجة من الأحافير تملأ الفراغ بين الشعب الحيوانية المختلفة، بل تظهر الأحافير كاملة النمو والتمايز والوظيفة من أول ظهورٍ لها في السجل الأحفوري.

إنها مشكلة كبرى تأذن برحيل النظرية ككل. يضع الملحد اللاأدري وعالم الكيمياء الحيوية مايكل دانتون Michael Denton أصبعه على هذه المشكلة التي أرهقت النظرية فيقول: «الحقيقة المتمثلة هي اختفاء الأشكال الانتقالية تقريبًا بين المجموعات التصنيفية الكبرى، وتنطبق هذه القاعدة بشكل شامل على كل الممالك الحية وكل أنماط الكائنات بنوعيها: شديدة الميل للتحجر كالرخويات أو قليلة الميل لذلك كالحشرات. لكن هذا عكس ما يتطلبه التطور الداروينيا! قد نستطيع تفسير الانقطاعات بحجج من مثل أخطاء الرصد لكن السمة العامة للانقطاعات تنفي كل تلك التفسيرات»[1].

فالظهور المفاجئ للكائنات الحية يمثل انهيار تام لنظرية التطور، حيث لن يبقى ثمة مبرر لوجودها.

وقد كان تشارلز داروين Charles Darwin يدرك تمامًا أن ظهور قفزات فجائية في السجل الأحفوري سيعني الخلق الخاص -فهذه بديهة عقلية-، ومن

(1) Denton, M. (1985) Evolution: A Theory in Crisis, p.191.

أجل ذلك كتب يقول: «إذا ظهرت فجأةً أنواع عديدة من جنسٍ واحد أو عائلةٍ واحدة، فهذا قاتل للنظرية fatal to the theory، خصوصًا مع إدراكنا لبطء التغييرات خلال عملية الانتقاء الطبيعي»[1].

ولو عاصر داروين اكتشاف انفجار الكامبري لربما تخلّى عن النظرية للأبد!

فلا يوجد بديل ثالث؛ إما تدرج بطيء وإما ظهور مفاجئ -خلق مباشر-، أو بلغة الملحد التطوري الشهير ريتشارد داوكينز Richard Dawkins: «إذا لم تكن تغيرات تدريجية بطيئة فإنها المعجزة (miracle)»[2].

إنها بداهة عقلية لا علاقة لها بكونك ملحدًا أو مؤمنًا.

وحتى يتبين للقارئ الكريم معنى اللحظة الإعجازية في حقبة الكامبري والتي ظهر فيها الخلق المباشر لأغلب أنواع الكائنات الحية على الأرض، فإننا سنتخيل تاريخ الحياة كاملاً على الأرض على شكل فترة 24 ساعة، وحين قاربت الساعة 21 وفي خلال دقيقتين فقط انفجرت أغلب أشكال الحياة على وجه الأرض فجأةً في شكلها الحالي المكتمل[3].

لقد كان داروين يردد دائمًا جملته الشهيرة: «الطبيعة لا تقفز قفزات فجائية»[4].

---

(1) If numerous species, belonging to the same genera or families, have really started into life all at once, the fact would be fatal to the theory of descent with slow modification through natural selection.

On the Origin of Species, chapter9, p.302

(2) With out gradualness, we are back to a miracle River out of Eden (1995) p.83 .

(3) طبقًا لحساب عالم البيولوجيا الأمريكي جوناثان ويلز.

Video source :https//:www.youtube.com/watch?v=E10JwiELDo0

(4) Nature takes no sudden leaps On the Origin of Species, p.156.

فها هو الرصد الأحفوري يثبت عكس ذلك تمامًا!

إن انفجار الكامبري وحده كفيلٌ بإسقاط النظرية ككل، وقد قام عالم الحفريات الصيني ذائع الصيت جي واي تشين J. Y. Chen بدراسات مستقلة على أحافير حقبة الكامبري؛ ليخرج بنتيجة أن شجرة التطور الخاصة بداروين في وضع المنهار حيث قال: «اكتشاف حفريات الكامبري قلب شجرة التطور رأساً على عقب، يبدو أن شجرة داروين مجرد مخروط مقلوب Darwin's tree is a reverse cone shape. فقاعدة الشجرة واسعة، ثم تضيق تدريجيًّا، نفس شجرة داروين لكنها مقلوبة»[1].

أما زميله تشو كوي ألجن Zhou Qui Gin الباحث المتخصص في الحفريات فيقول: «لا يوجد تطور ولا تدرج فيما رصدناه، الكائنات الحية ظهرت فجأةً! لقد رصدنا 136 نوع مختلف تمثل التنوع الرئيسي بين الكائنات الحية ظهرت فجأةً ظهورًا خاصًا جدًّا»[2].

هذه كانت خلاصة ما أصدره معهد علم الحفريات والجيولوجيا ببكين حيث يعمل جي واي تشين و تشو كوي ألجن!

---

(1) Darwin's tree is a reverse cone shape. Very unexpectedly, our research is convincing us that major phyla is starting down below at the beginning of the Cambrian. The base is wide and gradually narrows. This is almost turned a different way.
http://www.freerepublic.com/focus/news/854288/posts.

(2) Zhou Qui Gin, a senior research fellow at the site, says (translated), "I do not believe that animals developed gradually from the bottom up. I think the animals suddenly appeared. Among the Chengyiang animals we have found 136 different kinds of animals. And they represent diversity in the level of phyla and classes. So they sudden appearance makes them very special."
Ibid,.

خلاصة ما في الأمر: بدون تطور تدريجي نعود إلى المعجزة، ألم يقل داوكينز ذلك!

إذن فلنعترف بالمعجزة -الخلق المباشر-، أو لنترك السجلات العلمية للأبد.

ماذا خسر العالم بظهور التطور؟

الجزء الأول:

حين أجرت قناة الجزيرة الإنجليزية حوارًا مع الملحد التطوري الشهير ريتشارد داوكينز Richard Dawkins لم نكن نتوقع أن يدلي داوكينز باعترافه المدهش حين قال: «أنا ضد الداروينية ولا أُطيقها حين يتعلق الأمر بحياتنا»[1].

ألهذا الحد يستوعب عرّاب الملحدين في العالم ريتشارد داوكينز عبء الداروينية على القيم الإنسانية؟

ألهذا الحد يدرك هذا الملحد أننا لسنا مُفصّلين على طراز داروين؟

بل إنه يقول في كتاب من أشهر كتبه وهو الجين الأناني Selfish Gene أن: «الماضي التطوري لا علاقة له بحاضرنا الأخلاقي العالمي، التطور الدارويني لا يُنتج إلا أمثال هتلر، والمجتمع الدارويني لا يكون إلا مجتمع فاشستي fascistic ينتشر فيه التعصب العنصري والتصفية العرقية»[2].

(1) اللقاء الذي أجرته قناة الجزيرة انجليزي مع ريتشارد داوكينز دقيقة 42.
https://www.youtube.com/watch?v=PAe8DePq-48.
(2) Selfish Gene, p.2, 3.

إن الذي ينتهي إليه ريتشارد داوكينز ويعترف به صراحةً أنه: «من الصعب جدًّا الدفاع عن القيمة الأخلاقية المطلقة على أرضية أخرى غير الدين»![1].

لكن دعونا نتسائل؛ فربما نكون مخطئين، أو ربما يكون داوكينز أشهر مُبشِّر بالإلحاد والداروينية متحاملاً على إلحاده:

هل يمكن أن تُثبت قيمة ومعنى ومعيارية أي شيء من منظور تطوري داروريني؟

هل يمكن أن يحيا الجنس البشري برؤية داروينية للوجود؟.

أليس الإنسان طبقًا للرؤية التطورية مجرد نمط مادي ثلاثي الأبعاد، وهذا النمط المادي مُستَوعب تماما في الطبيعة، فقوانين الطبيعة هي قوانينه، وتسري عليه الحتمية المادية البيولوجية بمنتهى الحيادية والصرامة؟.

أليس من المستحيل طبقًا للرؤية المادية الاستقلال ببعد آخر متجاوز أو مغاير لما تفرضه البيولوجيا، وإلا لاعتبرنا أن للإنسان أصلٌ آخر ومقدمةٌ أُخرى وبالتالي ينهار التطور؟

أليس من الأصح والأصلح طبقًا للرؤية التطورية المادية الحتمية أن يتنازل الإنسان عن مركزيته في هذا الوجود لحساب الطبيعة المادية؛ لأنها هي الأصل الأوحد؟

فالطبيعة المادية هي المركز ولا يدور الإنسان إلا في فلك قوانينها وحتمياتها!

(1) It is pretty hard to defend absolute morals on grounds other than religious ones.
The god Delusion, p.232.

وبالتالي وبناءً على ما سبق: سيحل محل مركزية الإنسان مركزية الطبيعة باعتبارها المُطلق الأول، وهذا يعني انهيار الإنسان، وبذا يُصفَّى الإنسان -على حد تعبير الدكتور عبد الوهاب المسيري رحمه الله- لحساب الطبيعة، ويتم استيعابه تمامًا ويسقط في هيمنة المادية البيولوجية، ويُصبح أي حديث عن الإنسان أو قيمه أو مركزيته هو حديث ملوث ميتافيزيقيًّا -مرتبط بالماوراء الذي يحاول الملحد أن يتفاداه-.

وفي النهاية يتحول الإنسان إلى حيوان مادي مجرد ويعود للصراع التطوري الذي دخل به التاريخ!

في هذا الإطار المادي التجريدي الصارم يصبح الحديث عن الإنسان أو «الإنسانية المشتركة» أو القَدَر الإنساني مجرد لغوٌ فارغ، وتتحول شعارات «حقوق الإنسان» إلى سخافةٍ لا معنى لها.

فما معنى حماية المعاقين أو المرضى الوراثيين أو تقديم يد العون لهم في عالم مادي تحكمه الرؤية الداورينية؟

إن محاولة من هذا القبيل تأتي مباشرةً ضد الإنتخاب الطبيعي Natural Selection والبقاء للأصلح Survival for the Fittest.

فإذا كانت الرؤية الداروينية هي الرؤية الصحيحة وكانت حتمياتها هي الأصل الثابت فلن يستوعب الإنسان فكرة حماية المعاق أو تقديم يد العون للضعفاء، بل إن تعقيم المعاقين Sterilization- منعهم من الإنجاب- هو الحل التطوري الأمثل والأوحد.

فالتخلص من المعاقين والمرضى والعجزة والضعفاء هو هدف تطوري، وسمة من سمات الانتخاب الطبيعي والبقاء للأصلح!

ومن أجل ذلك حين أصدر أدولف هتلر Adolf Hitler قائد النازي Nazi والمغرم بالداروينية قراره في 14 يوليو 1933 بتعقيم 400 ألف شاب عن طريق تمريرهم على ترددات عالية من أشعة إكس حتى يفقدوا القدرة على الإنجاب، حيث كانوا مصابين بأمراض عصابية كثيرة ربما تضر الأجنة، حين أصدر هذا القرار كان يتماشى تمامًا مع الرؤية الداروينية للوجود، ولن يستطع دارويني واحد أن ينتقد ما قام به هتلر[1].

بل إن مشروع تي4 «Action T4» الذي قتل هتلر خلاله سبعون ألف معاق وعاجز، كان مشروعًا داروينيًّا بامتياز[2].

إن أية محاولة لمعاندة هذا الإطار المادي لرؤية هتلر هي محاولة فاشلة؛ لأنها تأتي ضد التطور وضد قوانين الحتمية المادية التي تسري على الوجود.

ألا تؤكد قوانين الانتخاب الطبيعي والبقاء للأصلح والصراع من أجل البقاء صحة ما قام به هتلر؟

ألم يؤكد أشهر مؤرخ للحقبة النازية على الإطلاق آلان بولوك Alan Bullock أن كل المآسي التي ارتكبها هتلر، تأتي مباشرةً من إيمانه التام بصحة التحليل الدارويني للوجود، ولذلك كتب يقول: «كان هتلر ماديًّا قاسيًا وكان يرى أن المسيحية تقف في وجه قوانين الانتخاب الطبيعي، والبقاء للأصلح»[3].

(1) Proctor, Robert N. (1988)
Racial Hygiene: Medicine under the Nazis, p.191.

(2) http://en.wikipedia.org/wiki/Action_T4.

(3) Bullock wrote that Hitler was a rationalist and materialist, who saw Christianity as a religion «fit for slaves», and against the natural law of selection and survival of the fittest.
Alan Bullock; Hitler, a Study in Tyranny; HarperPerennial Edition 1991; p219.

فهتلر كان داروينيًّا قُحًّا، هذا هو دين أدولف هتلر الأول والأخير. كما يقول ريتشارد إيفانس (Richard J. Evans)[1].

لقد كان هتلر بنموذجه النازي الصورة التطبيقية للمادية التي دعت لها نظرية الانتخاب الطبيعي والبقاء فقط للأصلح!

لقد صنعت الفلسفة التطورية قبرًا يكفي لدفن كل قيم البشر، وكل الفضائل التي يؤسس لها المصلحون عبر التاريخ، فالقيم والأخلاق الإنسانية تصطدم مباشرةً مع أبسط أبجديات التطور.

فالتطور يُسمم كل المعاني النبيلة؛ يقول التطوري جيمس هِلْ James J. Hill: «إن الثروات تُحدَد تبعاً لقانون البقاء للأقوى»[2].

وطبقًا لتايل Tille فإنه: «من الخطأ الشديد مجرد محاولة منع الفقر أو الإفلاس أو مساعدة الضعفاء أو محدودي الإنتاج، مجرد مساعدة هؤلاء خطأ جوهري في النظرية الدروينية؛ لأنه يتعارض أساساً مع الانتخاب الطبيعي وهو جوهر الداروينية»[3].

أما هربرت سبنسر Herbert Spencer مؤسس الداروينية الاجتماعية Social Darwinism -والداروينية الاجتماعية تعني: تطبيق الداروينية في العلوم الاجتماعية وتحقيق كل ما مآلاتها-، أتى ليقول: «فكرة وسائل الوقاية الصحية وتدخّل الدولة في الحماية الصحية لمواطنيها وتلقيحهم؛ تعارض

(1) Richard J. Evans; the Third Reich at War; Penguin Press; New York 2009, p. 547.

(2) Martin, James J. Hill, pp 414.

(3) Williams, Raymond. 2000. Social Darwinism. In Herbert Spencer's Critical Assessment. John Offer.

أبسط بديهيات الانتخاب الطبيعي، وكذلك مساندة الضعفاء أو محاولة حماية المرضى والحرص على بقائهم»[1].

هذه هي الصورة التي يتيحها التطور، إنها المعادلة الوحيدة المتاحة!

فلا يوجد داخل العالم المادي التطوري ما يُفرح الإنسان أو يُسليه، أو يؤسس لقيّمه أو يؤسس لمبادئه أو أخلاقياته، يستحيل أن يوجد داخل المنظومة المادية ما يجعل من الإنسان «إنسانًا».

إن هؤلاء الذين نسوا الله قد أنساهم أنفسهم ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ [الحشر: 19].

ماذا خسر العالم بظهور التطور

الجزء الثاني:

ذكرنا في المقال السابق كيف أن الرؤية التطورية للوجود قد حفرت قبرًا يكفي لدفن كل قيم البشر وكل الفضائل التي يؤسسون لها عبر التاريخ.

فالقيم والأخلاق الإنسانية تصطدم بجميع دعاوى التطور.

فمن بين دعاوى التطور أن: العِرق الأبيض أفضل بيولوجيًا من الأسود، فالبيض في مرتبة أعلى على سلم التطور![2].

---

(1) Social Status, p.414-415.

(2) هناك آلاف الأبحاث التي تدعي على العلم تفوق الجنس الأبيض على الجنس الأسود ماديًا وبيولوجيًا، منها قديمًا أبحاث عالم الإنسانيات الشهير صموئيل مورتن Samuel Morton وأبحاث لويس أجاسي Louis Agassiz الذي كان يقول بأن البيض ليسوا سفاحين حين أبادوا الهنود الحمر، ولكنهم يتبعون قضية حتمية في تشكل الأعراق، فهذه هي حتمية التطور.
=

لكن أليس هذا تأسيسًا قانونيًا وأخلاقيًا مباشرًا للفصل العنصري بين البيض والسود داخل المجتمع الدارويني؟

ألا تعطي هذه المقدمة حجة لتفريغ الأمة البيضاء من السود في مرحلةٍ لاحقة، واعتبارهم أجناسًا أدنى؟

ألم تكن هذه الدعوى الداروينية مبررًا لإدخال السود أقفاص الحيوانات Human Zoo وتصنيفهم كدرجة أقل من البشر «حلقة وسيطة»[1].

أليس رفض هذه العنصرية هو معاندة مباشرة للانتخاب الطبيعي وتمرد مباشر على مبادئ التطور وخيانة لأبسط أبجدياته؟

أيضًا من بين دعاوى التطور: تفوق الرجل على المرأة ماديًا؟ وأن الرجل في مرتبة أعلى بيولوجيًا من المرأة!

فالمرأة طبقًا لأدبيات التطور لها تصنيف مستقل تمامًا في السلسلة الحيوانية عن تصنيف الرجل[2].

= وحديثا ظهر كتاب قوس الجرس Curve Bell أكثر الكتب مبيعًا في السبعينات، وهو الكتاب الذي يتحدث عن أنه لا فائدة من تعليم السود أو تحصينهم من الأمراض، لأنهم أضعف عقلاً وأفقر ذهنًا من البيض ولابد من إنفاق المال في أمور أكثر فائدة.
http://en.wikipedia.org/wiki/The_Bell_Curve

(1) نوقشت هذه المسألة بالتفصيل في مقالٍ سابق بعنوان «حدائق حيوان البشر» ولمن أراد الاستزادة:
https://www.popularresistance.org/deep-racism-the-forgotten-history-of-human-zoos/

(2) تندرج المرأة تحت تصنيف Homo parietalis بينما الرجل تحت تصنيف Homo frontalis
http://www.rae.org/pdf/dsod_apb.pdf
Love, R., Darwinism and feminism: "The 'women question' in The Life and Work of Olive Schreinr and Charlotte Perkins Gilman," in Oldroyd and Langham, Eds., The Wider Domain of Evolutionary Thought, D:Reidel, Holland, pp. 113-131, 1983.

ويتحدث التطوريون باستمرار عن وجود فرق جوهري في حجم المخ لصالح الرجل بمقدار 12 - 19 %، وكتب كارل بروكا Brucca يقول: إن مخ المرأة أضعف بكثير من مخ الرجل، فحجم المخ الخاص بالمرأة يكاد يطابق ذلك الخاص بالغوريلا[1].

بل إن المرأة في أدبيات التطور وبسبب طفولية المخ الخاص بها تعتبر خطرًا حقيقيًا على الحضارة المعاصرة.

(A real danger to contemporary civilization)[2].

والمرأة طبقًا لداروين لا تصلح إلا لمهام المنزل، وإضفاء البهجة على البيت، فالمرأة في البيت أفضل من الكلب[3].

ولا ندري بناءً على ما سبق كيف يستطيع تطوري أن يطالب بالمساواة بين الجنسين داخل المجتمع، ألا يعد هذا مطلبًا متناقضًا تمامًا؟

ألا يعد الحديث عن «حقوق المرأة» خطأ وتمرد على الفكرة الداروينية؟ بل وتوجّه عبثي يقف في وجه التطور وحتميات الطبيعة؟

ما سبق هو الرؤية التطورية للإنسان بصورتها الحقيقية، فالتطور حرّر أتباعه من أية أعباء أخلاقية، وإذا حاول التطوريون استمداد قيم غير مادية لإصلاح النسق المعرفي للإنسان ساعتها سيكون هذا اعترافًا بعدم صلاحية التطور كمنظومة مستقلة لتفسير المغزى الوجودي!

---

(1) Gould, The Mismeasure of Man, p.105.

(2) Gilmore, D., Misogyny: The Male Malady, University of Pennsylvania Press, Philadelphia, p. 125, 2001..

(3) an object to be beloved and played with, better than a dog anyhow. Charles Darwin, The Autobiography of Charles Darwin 1809-1882, New York pp. 232-233.

أضف إلى ذلك؛ أن التطور زوّد الإمبريالية الغربية بإطار نظري لإبادة الملايين باسم العرقية المادية، والبيولوجية الداروينية، هذا هو التطور عند التطبيق، وهذا أصل معركته وشعارها ودثارها.

ففي سبيل الرؤية التطورية المادية ومن خلال مبرر الجنس الأفضل والجنس الأرقى Favored Race وتنقية الأعراق، قامت حربان عالميتان أُبيد فيهما قرابة مائة وعشرون مليون نسمة، وكانت حروب من الدموية بمكان بحيث أرجعت كلًا من المنتصر والمهزوم ثلث قرن إلى الوراء، فالحربان العالميتان اللتان أبادتا حوالي 5 % من سكان العالم كانتا نزاع مادي برؤية تطورية للوجود، وقد قام الفلاسفة في ذلك الوقت بوضع مبولة وسط باريس بدلاً من تمثال الجندي المجهول كنايةً عن نهاية الحضارة[1].

بل إن جميع الأيديولوجيات الإجرامية التي ظهرت في القرن العشرين من نازية Nazism إلى فاشية Fascism إلى ستالينية Stalinism إلى ماوية Maoism كلها استندت إلى الرؤية التطورية، والتنقية العرقية، وأن هناك أجناسًا أفضل من أجناس!.

وحتى يومنا هذا، ما زال هاجس الجنس الأرقى Favored Race يسيطر على العقلية الغربية بسبب التصور التطوري للبشر، وأن جنسًا له حق السيادة وتطهير بقية الأجناس.

---

(1) كتب القائد النمساوي المجري الجنرال فان هودزاندورف Van Hodzandorf، القائد الكبير في الحرب العالمية الأولى، بعد انتهاء الحرب كتب يقول: «الحرب قانون الطبيعة ... علينا أن ننسى قليلاً ما تدعونا إليه الأديان».

James Joll, Europe Since 1870, peguin books 1990 p.164

أما فريدريك فوربرنارد Frederick Vorbernard وهو أحد جنرالات الحرب العالمية الأولى فقد كتب يقول: «الحرب حاجة أيديولوجية بقدر حاجة الأحياء في الطبيعة للصراع وتُعطي نتائج مُجدية من الناحية البيولوجية».

وفي بدايات العام 2015 اشتعلت مدينة فيرغسون Ferguson بولاية ميزوري الأمريكية بسبب تبرئة جورج زيمرمان George Zimmerman الأبيض والذي قتل الشاب تريفون مارتن Trivon Martin الأسود، مما أثار جدلاً في أميركا بسبب بُعد القضية العرقي، وامتدت المظاهرات لتشمل أنحاء الولايات الأمريكية[1].

ففكرة تمايز الأجناس والتفاضل العرقي موجودة تحت رماد العقل الغربي، وتعود للاشتعال في أية لحظة، كل ذلك يعود إلى هاجس سيطرة الثقافة الداروينية على العقل الغربي.

أقول ذلك ويحضرني كيف عانت أمريكا الأمرين من أجل وصول رئيس أسود للحكم فيها -باراك أوباما-؟!! وكأنهم قاموا بمعجزة كبرى حين وصل للبيت الأبيض رجل أسود، في حين أن مصر كان يحكمها رئيس أسود منذ قرابة نصف قرن من الزمان -أنور السادات- دون أن يُلفت ذلك نظر أحد؛ لأننا نحن- المسلمين- وكما قال مالكوم إكس Malcolm X: نعاني من «عمى ألوان» بفضل تعاليم ديننا، فلا نُميز بين الأبيض والأسود.

قال رسول الله ﷺ: «يا أيها الناس ألا إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأحمر على أسود، ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى»[2].

وقال ﷺ: «ابغوني الضُّعَفاءَ، فإنما تُرزقون و تُنصَرون بضُعفائِكم»[3].

(1) http://en.wikipedia.org/wiki/Trayvon_Martin.

(2) السلسلة الصحيحة، رقم (6/451)

(3) سلسلة الأحاديث الصحيحة للإمام الألباني، رقم (779).

وهنا يكمن معنى الدين الإسلامي، ذلك الدين الذي جاء ليحارب الباطل لا الأشخاص لذواتهم أو للون بشرتهم!

في مقابل ذلك اعتبر الليبرالي الشهير - رئيس الولايات المتحدة السابق - جون كوينسي آدمز John Quincy Adams أن حرب البيض ضد الهنود الحمر هو قانون الطبيعة، ولهذا القانون تطبيقاته الواسعة جدًّا»[1].

فاستئصال طبقة كاملة من الناس، والتنقية العرقية، وتفريغ قارات بأكملها من الأجناس الأدنى -كما حدث في استراليا والأمريكتين- ما كان ليحدث لولا الرؤية المادية للوجود الإنساني.

يقول ريتشارد فيكارت Richard Weikart: «لقد نجحت الداروينية أو تأويلاتها الطبيعية، في قلب ميزان الأخلاق رأساً على عقب، ووفرت الأساس العلمي لهتلر وأتباعه، لإقناع أنفسهم ومن تعاون معهم، بأن أبشع الجرائم العالمية، كانت بالحقيقة فضيلة أخلاقية مشكورة»[2].

فالأخلاق ثغرة في النظام الطبيعي المادي، حيث لا يمكن إخضاعها لقوانين الطبيعة أو حتميات داروين العضوية، والقيم التي تجعل من الإنسان إنسانًا تسير عكس الطبيعة البيولوجية التطورية أو بمعنى أدق لا علاقة لها بالطبيعة البيولوجية.

وكل المعاني الإنسانية النبيلة التي ظهرت مع ظهور الإنسان توحي بالفعل أن الإنسان جاء بمقدمةٍ سماوية لا بتفصيلة داروينية، ولذا يرفض الإنسان باستمرار إلحاح الداروينية المتزايد على أن الجنس الأبيض أفضل من الأسود، أو أن إبادة المعاقين والضعفاء خيرٌ للجنس البشري، أو أن

---

(1) Robert Remini, John Quincy Adams (2002).

(2) Richard Weikart, from Darwin to Hitler, p.215.

الإنسان حيوان مادي، وهذا يؤكد أصالة الظهور الإنساني وأن التطور لا يصلح لتحليل ظاهرة الوجود الإنساني!.

فالإيمان بالإنسان هو توكيد متزايد على أن التطور شيء والإنسان الروح والجسد شيء آخر تمامًا.

فالإنسان في حقيقة الأمر هو المركز والطبيعة والمادة هي الهامش ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ﴾ [الأحزاب: 72].

ويوقن الملحد بذلك تمامًا في قرارة نفسه، وإن اضطر لتبني الرؤية التطورية التي تخالف فطرته!!!

الخلق الإلهي

الجزء الأول:

إنْ وجدنا مخلوقًا يشبه البطة ورائحته كرائحتها وصوته كصوتها وملمسه كملمسها ويسبح كسباحتها، فسيكون عبء الدليل Burden of Proof على من ينفي أنَّ هذا المخلوق بطة. يحدث الشيء نفسه في أنظمة الكائنات الحية المعقدة بشدة ونرى من خلالها أنَّ عبءَ الدليل يقع على من يريدون نفي الصنع المتقن والخلق الإلهي -التطوريون-.

وقد أصبح من المعتاد أن يطلب منّا هؤلاء التطوريون الصبر إلى حين يستنفدون كل جهودهم في نفي الاحتمالات اللامتناهية للخلق الإلهي.

لكن لا يفترض بالعلم أن يعمل بهذه الطريقة![1].

---

(1) تصميم الحياة، د.ويليام ديمبسكي ود.جوناثان ويلز، ترجمة د.مؤمن الحسن وآخرين، دار الكاتب ص226 بتصرف.

ويعتبر أي نظام علامة على الصنع المتقن إنْ احتوى على تعقيد لا يمكن تبسيطه، بحيث إذا تم تبسيطه تفسد الوظيفة الأساسية لهذا النظام، فهنا يُعد التعقيد علامة على «الصنع المتقن».

كمثال على ذلك؛ المصباح الكهربي فهو يتكون من: فتيلة، وسلك من الرصاص يوصل الكهرباء للفتيلة، وغاز خامل يحمي الفتيلة ولا يتعامل معها ولا مع الكهرباء، وزجاج يمنع دخول الهواء أو خروج الغاز الخامل وإلا لاحترقت الفتيلة، وقاعدة المصباح وهي التي توصل المصباح بالدواية وتكون مسارًا للتيار الكهربي.

هنا المصباح الكهربي نظام به تعقيد لا يمكن تبسيطه، وبالتالي ففيه دلالة عقلية أولية تفيد الصنع المتقن، والذي ينفي الصنع المتقن عن المصباح أو يفترض ظهوره بالصدفة هو المطالب بالدليل على ذلك!

فالذي صَنع المصباح يعلم تمامًا معنى الكهرباء ومساراتها وفائدة المصباح وحساسية الفتيلة، ولذا وجود المصباح دلالة مباشرة على أن له صانع متقِن، وليس ضرب عشواء لمجرد أن هناك مصابيح مختلفة في شكلها تمامًا عنه!

وبنفس الدرجة من الاستدلال العقلي نجد بعض الزهور مثل زهرة الأوركيدا Orchidaceae تتخذ صورة مطابقة تمامًا لأُنثى النحل، فيأتي ذكر النحل محاولاً الإقتراب من أُنثاه ولا يعرف أنها زهرة، فتلتصق حبات غُبار الطلع في رأسه ويقوم بالعملية نفسها عند أوركيدا أخرى فيقوم بالتلقيح المثالي دون أن يدري![1].

بل إن الأكثر إثارة لكل عاقل أن زهرة الأوركيدا تُفرز نفس الرائحة

(1) http://www.nhm.ac.uk/nature-online/life/plants-fungi/bee-orchids/.

الخاصة بأُنثى النحل - فيرميون أنثى النحل fermions- وليس شكلها فقط، كل هذا وهي كائن نباتي لا ينظر ولا يتدبر ولا يعي من أمره شيئًا، ورغم هذا التحدي المبهر في زهرة الأوركيدا، فإنها تعيش في توازن بيئي مثالي مع غيرها من الكائنات، فلا تطغى عليهم ولا يطغون عليها، فسبحان فاطر الخلق مودع عجيب الصنع في كل شيء!

أليس شكل زهرة الأوركيدا المطابق لأنثى النحل ورائحتها المطابقة لرائحة أنثى النحل منظومة معقدة تقوم بوظيفة متخصصة-التلقيح- وفي هذه المنظومة دلالة مباشرة على الصنع المتقن؟

أضف إلى ذلك أن: بعض الزهور التي بلا رحيق جاذب للحشرات، تأخذ شكل أُنثى الدبور تمامًا كبديل للرحيق، فيأتي ذكر الدبور لتلتصق به حبوب اللقاح دون أن يدري، ويذهب لزهرة أخرى ليكمل مهمته في التلقيح!

هذه الزهور إما تظهر فجأةً ومعها الدبابير ولها نفس شكل أُنثى الدبور أو لا تظهر.

ألا يعد هذا تعقيدًا ودلالةً مباشرة على الصنع الإلهي المتقن؟

ولاحظ أن: خواص الفكر والإدراك واتخاذ قرار هي خواص في قمة العقلانية والحكمة والتدبير، وحتى لو افترضنا أن هذه الزهور تدرك أو تعقل، فهي لن تُغير من أمر شكلها ولا رائحتها شيئًا!

فما بالنا بحساب الزمن - زمن التلقيح - والشكل والحجم الخاص بالحشرة التي ستُقلد شكلها، وإنتاج غبار طلع بالكمية الكافية، وحساب خاصية التصاقه بجسد الحشرة، وضغط كل المورثات في حبة غبار الطلع وتحصينها بجدار سميك مع خفة الوزن في نفس الوقت!

كل هذه الحسابات هي آيات للعاقل يخشع بسببها للخالق العظيم

المُبدع ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (١٦٤)﴾ [البقرة: 164].

﴿صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [النمل: 88].

فقد ظهرت هذه الكائنات ذات المنظومات التبادلية المعقدة منسجمةً مع بعضها البعض منذ البدء، كدليل مباشر على الخلق الإلهي والتدبير والحكمة، لكن للأسف لا يتدبر هذه البديهيات إلا القليل ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: 3].

وحتى تشارلز داروين Charles Darwin كان يهتز لهذا التصميم الإلهي المدهش للمنظومات الحية ثم ينسى أو يتناسى، وعندما سأله دوق آرغيل جورج كامبل George Cambell قبل موته بعام عن أدلة التصميم العجيبة في تزاوج زهرة الأوركيدا قال داروين: «هذه الفكرة كثيرًا ما تعصف بعقلي، ثم هز رأسه وأضاف: وفي أحيان أُخرى تتلاشى»[1].

أضف إلى ذلك أن أدنى تعقيد في أية منظومة هو في الأصل مرتبة زائدة على مجرد الوجود، فلو وجدت حجرًا منتصبًا -مثل أحجار ستونهنج Stonehenge بجنوب انجلترا- فلن تتردد في إثبات الصانع- لمجرد انتصاب الحجر؛ لأن الانتصاب مرتبة زائدة على مجرد وجود الحجر، فما بالك بالتعقيد والتصميم والصنع المتقن؟

(1) «Well, that often comes over me with overwhelming force; but at other times,' shaking his head, 'it seems to go away».
Charles Darwin, quoted in Duke of Argyll, "What Is Science?" *Good Words* 26 (1885): 244.

والمتدبر في شأن الخلق يجد أنه لا تخلو منظومة على الإطلاق من قدرٍ من التعقيد، وهنا يجبُ على العقل العملُ مع الدليل المتوافر -الخلق الإلهي-، فهو الطريق الأقصر والأنسب لتحليل ظاهرة التعقيد!

ومجرد المراوغة بحجة أن المستقبل قد يُثبت حججًا واعدة، هذا نوع من الكفر مناطه فجوة مستقبلية لا نعرف عنها شيئًا، وهذا النوع من الكفر يشبه كفر فرعون وإن كان مناط كفر فرعون فجوة ماضية لا يعرف فرعون عنها شيئًا، وإن كان النوعان من الكفر يتعادلان في إيقاف العقل عن العمل!.

﴿ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ ﴾ [طه: 49 - 51].

فليس من العقل في شيءٍ الاحتكام إلى أسباب مادية غير معروفةٍ أو طرق غير مكتشفة لمنع تقسير الظاهرة في إطارها الدلالي على الخالق، إنّ هذا محض تحكم لا أكثر، وتعطيل لوظيفة العقل، وإذا كنّا عند هذه المرحلة ومع هذه المعطيات الساطعة نعاند الإيمان بالخالق، فعند أي مرحلةٍ نُسَلِّم له؟

وتحت أي بندٍ نخلع عن أنفسنا ربقة الكفر به؟

هل عند خلو المُعارِض؟

فالكفار يُعلِّقون المُعارِض بالمستقبل الذي لن نكون فيه، وكفار ذلك المستقبل سيُعلِّقون المُعارِض أيضًا بمستقبلٍ آخر، وإنك لن تجد بين المتفكهين مَن يتفكه كما يتفكه المستقبل بهؤلاء!

﴿ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ ﴾ [الملك: 10].

وحين كتب الملحد اللاأدري كارل ساغان Carl Sagan روايته الشهيرة

«تواصل Contact» كان يرصد في هذه الرواية حجة عقلية أولية A-Periori دون أن يدري، وهي أن: العقل يدرك تمامًا لزوم الصانع بمجرد رصد تعقيد أولي بسيط!

وحينها لا يجادل العقل في وجود الصانع بمجرد رصد التعقيد بل يُسلِّم مباشرةً!

ففي هذه الرواية يكتشف مجموعة من علماء الفضاء أثناء بحثهم عن ذكاء خارج الأرض SETI Search for Extraterrestrial Intelligence سلسلة طويلة من الأرقام الأولية قادمة من الفضاء الخارجي، ولأن التسلسل يفيد قيمة رياضية فلا يمكن ظهوره بالصدفة، وبناءً على ذلك اعتبر علماء الفضاء أن هذا دليلاً مقنعًا على وجود حضارة عملاقة في الفضاء الخارجي تحاول التواصل معنا![1].

-وفي واقع الأمر نحن حتى الآن لم نعثر على شيءٍ من هذا القبيل، فهذه رواية لا أكثر-.

لكن الشاهد من هذه الرواية أن الملكات العقلية الأولية تُقر بحجة التعقيد والنظام كدلالة على الصانع المتقن.

فمجرد سلسلة من الأرقام الأولية لها قيمة بسيطة أفادت وجود حضارة عملاقة، فكيف ننسب ثلاثة مليارات قيمة رياضية داخل كل خلية من خلايا الإنسان -الجينوم يتشكل من 3 مليار قاعدة نيتروجينية منضبطة بترتيب على أحسن تقويم داخل كل خلية من خلايا الإنسان- في قمة التعقيد إلى العشواء؟

(1) Sagan, Carl. Contact. New York: Simon and Schuster, 1985.

كيف ننسب تعقيد منظومة تلقيح زهرة الأوركيدا إلى الصدفة؟

كيف نتنكر لبديهيات توجد في كل منظومةٍ حيةٍ حولنا أشد تعقيدًا بملايين المرات من رسالة الحضارة الذكية، ونزعم أن الأولى خبط عماء والثانية حضارة عملاقة؟

إنها قمة السذاجة إن استطعنا ابتلاعها ابتلعنا بعد ذلك كل شيء!

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَـٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾ ﴾ [محمد: 12].

الجزء الثاني:

حين تطالع أية خلية حية لترصد ما بها من عملياتٍ حيوية -بيولوجيا جزيئية Molecular biology-، فإنك بحاجةٍ إلى تكبيرها مئات المليارات من المرات، عند هذا القدر من التكبير تصبح الخلية بحجم مدينة القاهرة الكبرى، وترصد داخلها معدلاً من التعقيد ربما يفوق تعقيد مدينة القاهرة بمرافقها، وساعتها ستكون أمام رصدٍ مباشر للتعقيد والتصميم والصُنع البديع!.

وإذا وصلت إلى غشاء الخلية الخارجي فإنك تشاهد أمامك ملايين البوابات التي تفتح وتغلق بانتظام لدخول وخروج المواد من وإلى الخلية، ويحدث التنسيق التام بين هذه البوابات.

وهذا التنسيق بين البوابات يكون آنيًا -لحظيًّا-، فعندما تدخل جزيئة جلكوز لتغذية الخلية عبر إحدى البوابات تكون معلومة دخولها قد وصلت إلى جميع البوابات الأخرى في نفس اللحظة.

وتستخدم الخلية لنقل المعلومات عبر البوابات بهذه السرعة ظاهرة في فيزياء الكم Quantum Physics تسمى ظاهرة التشابك الكمومي

Quantum entanglement حيث تنتقل المعلومة بسرعة آنية معجزة، فلا يحدث دخول عدد زائد من جزيئات الجلكوز إلى الخلية، وهي نفس الظاهرة التي استطاع علماء الكمبيوتر الاستفادة منها في شرائح الكمبيوتر liquid crystal semiconductor with gates and channels لكن الخلية تستخدم هذه الظاهرة منذ البدء وبمنتهى الإتقان![1].

هنا مبرمج الكمبيوتر استطاع بمنتهى الحكمة والمهارة توظيف ظاهرة علمية فيزيائية في مهمة وظيفية داخل الكمبيوتر، وبنفس القياس العقلي منظومة التواصل بين بوابات غشاء الخلية نتاج حكمة وصنع وليست خبط عشواء كما يفترض الملاحدة!

المهم أننا بعد عبور البوابات يطالعنا على الفور عالم من التقنيات الخارقة والتعقيد المذهل؛ فنرى:

1- أروقة لا نهائية شديدة التنظيم والتداخل والتعقيد-الشبكة الإندوبلازمية Endoplasmic reticulum - وهذه الشبكة من الطرق والأروقة تمثل طرق النقل الرئيسية داخل الخلية إلى المصانع والعضيات والنواة والمخازن وأماكن النفايات.

وتؤدي الأروقة إلى:

2- بنك الذاكرة المركزي في النواة DNA.

3- مصانع تركيب البروتينات -الريبوزومات Ribosome -.

4- وحدات إنتاج الطاقة -الميتوكوندريا mitochondria -.

5- مصانع الجزئيات المتخصصة -جهاز جولجي Golgi apparatus -.

(1) http://www.theantiagingdoctor.com /72NewBiology and Trans formation.htm.

6- مناطق حرق النفايات والمخلفات والزائد عن الحاجة والميكروبات- الليسوسومات Lysosome-.

7- وحدات التخطيط المركزي -السنتروسوم Centriole - التي تدير انقسام الخلية وظهور الأهداب.

8- مخازن الغلال -الفجوات العصارية Vacuole- حيث تُخزن الأطعمة الزائدة.

9- مصانع إنتاج الحمض النووي RNA -النوية Nucleolus-.

وما لا حصر له من العضيات التي ما زلنا نكتشفها حتى الساعة ونرصد عجائبها![1].

ولو وصلنا إلى نواة الخلية عبر إحدى هذه الطرق والأروقة، فإننا سنصطدم ببواباتٍ من نوعٍ خاصٍ جدًّا تحيط بالنواة من كل جانب، فلا تقبل أي زائرٍ؛ لأنها مركز برمجة الخلية، بينما تُرحب دومًا بإنزيم البوليمريز polymerase الذي يحمل دائمًا معه رسائل تصنيع البروتينات، فجميع الطلبات التي يحتاجها الكائن الحي من البروتين توجد مشفرة في نواة الخلية داخل شريط الـ DNA بنظام التشفير الرباعي CGTA وهذا التشفير يملأ 1000 مجلد بواقع 500 صفحة لكل مجلد - 3 مليار حرف - كلها موجودة في مساحة 1 على 1000 من المليمتر مُلتف على نفسه 100 ألف لفة، في ومضة من ومضات إعجاز الخلق الإلهي!

وحين يصل إنزيم البوليمريز إلى نواة الخلية فإنه يقوم بفتح شريط DNA كالسوسته ليُخرج البيانات، وهذا الفتح السريع ربما يؤدي إلى الحرق

(1) http://bioserv.fiu.edu/~walterm/FallSpring/review1_fall05 _chap_cell3.htm.

لكن الأمر مُعد بعناية والتنظيف والتبريد أولاً بأول لا يتوقف- حيث توجد إنزيمات التبريد داخل نواة الخلية-، ويقوم الإنزيم بفتح الجزء اللولبي من الـ DNA ويبقيه مفتوحاً حتى يتم استخراج كافة المعلومات - المُشفرة - لتصنيع البروتين ولا يتم فتح أية أجزاءٍ أخرى لا حاجة إليها[1].

وبعد الحصول على الشفرة المطلوبة لتصنيع البروتين المحدد، فإن عضيات RNA الرسول تقوم بحمل الشفرة إلى الريبوزوم - مكان تصنيع البروتين - في السيتوبلازم cytoplasm، وفي أثناء الذهاب إلى الريبوزوم فإن المسافة طويلة نسبيًّا، وبالتالي يكون عُرضةً للتشوه لذا يُحاط دائمًا بإنزيمات الحماية والأمان[2].

وما أن تصل شفرة تصنيع البروتين إلى الريبوزوم تظهر مشكلة جوهرية، فلُغة المعلومة في الـ DNA هي لغة الكودون codon المُكون من 3 حروف - قواعد نيتروجينية -، في حين لُغة الحمض الأميني هي لُغة من 20 حرف20 - نوع حمض أميني -، ولأجل ترجمة لغة الكودون إلى لغة الحمض الأميني فإنه يوجد في الريبوزوم قرابة 100 جزيء يختص بالترجمة.

وبعد الترجمة المتخصصة تتحول الشفرة إلى كائن ثلاثي الأبعاد يقوم بوظيفة يُسمى «البروتين»[3].

تعمل كل الآلات والعضيات السابقة والمشابهة للروبوتات بشكلٍ متزامن جيئةً وذهاباً بين كمٍ هائلٍ من المنتجات والمواد الأولية على طول الطرق، لكن كل شيءٍ يتحركُ هنا بدقةٍ وتناغم.

(1) Friedberg EC (February 2006). «The eureka enzyme: the discovery of DNA polymerase». Nat. Rev. Mol. Cell Biol. 7.

(2) http://www.britannica.com/EBchecked/topic/602542/ transfer -RNA-tRNA.

(3) http://www.elmhurst.edu/~chm/vchembook/584proteinsyn .html.

بالفعل إن مستوى التنظيم الكامن في الحركات المتناسقة للعديد من الأشياء على طول تلك الأقنية -بانسجامٍ تام- لأمر يذهب العقول.

ناهيك عن التخصصية الشديدة داخل كل عضية من عضيات الخلية وكأنك أمام مصانع مستقلة، لكن أن تخرج من كل هذه الأنظمة بنتائج مثالية لمصلحة الكائن الحي لهو إعجاز يفوق كل ما نستطيع أن نسطره من كلمات.

وفي هذا العرض المتأني لنشاطات العضيات الخارقة؛ ندركُ بسرعة أنه بغض النظر عن كل المعرفة المتراكمة لدينا عن علوم الطبيعة والهندسة، فإن مهمة تصميم حتى أبسط هذه العضيات أمر خارج عن مقدرتنا بشكلٍ كامل.

فنحن بكل ما نملك من علومٍ عملاقة ومصانع جبارة وجامعات كبرى نعجز عن إنتاج هرمون واحد من الهرمونات التي تفرزها الخلية، فلا نتنج الهرمون - كالإنسولين insulin لمرضى السكر- إلا من خلال الاعتماد التام على منظومات الكائنات الحية.

فمع علمنا التام بتركيب الهرمون وشكله الهندسي ومراكز تصنيعه، فإننا مع ذلك نعجز عن توليده دون الاعتماد على عمليات حيوية داخل كائن حي سواءً وحيد الخلية كالباكتريا أو متعدد الخلايا كبعض الحيوانات.

المقصود من كل ما سبق أن:

الإشارات كلها توحي لنا بشكلٍ مباشر بوجود الصنع المتقن.

ولا ندري لماذا يرفض التطوريون قضية الصنع المتقن؟

ألا تُخضع كل النظريات العلمية نفسها للتجارب الصارمة، فليعتبروها نظرية إلى أن يستطيعوا دحضها -ولن يفعلوا-!

إن العلم مشروعٌ جريء؛ فهو يقوم بالمخاطرات ويتحمل تكلفة القيام بتلك المخاطرات لأنه على اتصالٍ دائم بالدليل التجريبي، ولذا يمكنه أن يصحح نفسه بنفسه في ضوء الحقائق الجديدة.

وإذا كان العلم المادي يعترف بالفشل الذريع في تفسير أصل الحياة وتفسير ظهور الخلية، فما المانع أن يُقر العلم بالصنع المتقن كقضية مفسرةٍ لأصل الحياة، وليضع العلم قيدًا ثابتًا أنه ما أن ياتي تحليل مادي متكامل يستطيع تفسير نشوء الحياة سيتم التنازل ساعتها عن الصنع المتقن!

وبما أن الخلية الحية منظومة معلوماتية عالية الإتقان، وطالما أن طرح الصنع المتقن مبني على المعرفة بدلاً من الجهل، فهو مشروع علميًا.

لاحظ أن هذا الاحتمال بالذات يُظهر أن الصنع المتقن قابل للاختبار -وبالتالي فهو قضية علمية-، فالطريقة الوحيدة لتحديد صحة أية فرضية هي من خلال الاعتراف بأنها خيار علمي حي، ويجب إخضاعها لخصائص العلم شديدة الغربلة والفحص.

لكن للأسف الشديد الحال اليوم هو رفض الصنع المتقن ابتداءً بسبب مقدمات مادية إلحادية لا يرغب مُنّظروها في التخلي عنها، رغم فشل تلك المقدمات المادية في الإجابة عن الأسئلة الجوهرية مثل: كيف نشأت الحياة؟ وما مصدرها؟ وما هي الحياة؟ وكيف حدث الانتواع المفاجئ للكائنات الحية في فترة بداية عصر الكامبري Cambrian period القصيرة نسبيًا؟ وكيف ظهرت هذه الأنظمة عالية التعقيد؟

مشكلة التطوريين عمومًا أنهم يعيشون على مبدأ فرِّق تسد، فإذا ذكرت لهم تعقيد الخلية الشديد فإنهم ينقلونك إلى خلايا أبسط، مع أن أبسط الخلايا الحية على الإطلاق تحتوي على آلاف البروتينات المتخصصة.

إن الخيال مجاني؛ وقوام ردود التطوريين قائمة على خيالاتٍ لا حقائق، وفروضٍ لا رصد، واحتمالاتٍ لا ثوابت؛ بينما قوام الصنع المتقن على حقائق وبديهيات ومسلمات عقلية ورصد إعجازي لكل منظومةٍ حية.

وها نحن ندعو في نهاية هذا المبحث عن التطور إلى الدفع بالعلم باتجاه تحرير قضية الصنع المتقن، ولتكن هذه الدعوة معالجة جديدة لتحليل ظهور الكائنات الحية على وجه الأرض، ولتُخضع نفسها لمقصلة العلم التجريبي بالمعطيات التي أوردناها في المقالات السابقة، وإن كنّا ندرك أن دعاة المادية وإن صادفتهم هذه الدعوة فلن يعيروها اهتمامًا؛ لأن مقدماتهم الاعتقادية تأبى عليهم ذلك، ولأنهم كما قلنا منذ البداية يريدونها «مادية إلحادية» ولذا لن يقبلوا بالبديل، وإن كان أقوى حجةً وأرسخ قدمًا وأثبت أدلة.

فلله الأمر من قبل ومن بعد

□□□

﴿ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ۗ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟

بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ (٦٤) قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (٦٥) بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِي ٱلْءَاخِرَةِۚ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَاۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ (٦٦) وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ (٦٧) لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ (٦٨) قُلْ سِيرُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ (٦٩)﴾ [النمل: 59 - 69].

الفصل الرابع

تشكيكات الملحدين

الفصل الرابع

تشكيكات الملحدين

مشكلات وحلول

لماذا توجد التشكيكات؟

قال الله تعالى: ﴿ وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الزخرف: 33].

قال الحسن: «والله لقد مالت الدنيا بأكثر أهلها، وما فعل الله ذلك، فكيف لو فعله؟».

إن سنة الله في خلقه التكليف، وسنته في التكليف خفاء الحكمة، وسنته في الحكمة دقائقها، والفائزُ مَن استدل بما يعلم على ما خفي ودقّ، والخاسر من جعل مما يجهل حجابًا يحرمه من الاستدلال بما يعلم.

لكن لماذا لا توجد الحجة الحاسمة؟

من قال: إن الحجة الفلانية لو وُجدت لآمن الناس واجتمعوا وانتفى الكفر، فهو جاهلٌ بأصل التكليف ومناط الحساب وأحوال الناس.

فأصل التكليف يقوم على إعمال العقل والنظر.

فالنظر في الأدلة يولّد اليقين، لكن بدون نظر يتساوى الجميع ويصبح الإيمان اضطراريًّا، وهذا ليس مقصود الرسالة ولا معنى التكليف!

أضف إلى ذلك أن المرء ابن لحظته -كما يقول ابن الجوزي رحمه الله- فما أن يقرّ الإنسان على يقينٍ حتى يطلب غيره أو سندًا آخر له، فما يدري حاله وحال غيره بعد وقتٍ من يقينٍ سابق، وهكذا العقول تدور وتسبح في فلك لا ينتهي ولا حد له.

والحقائق ناسبت قلة العمر ولو طال العمر وزادت الحجج لأنسى أولها آخرها ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ ﴾ [طه: 115].

وسيظل الإيمان بالله غيبيًا منذ البدء وإلى آخر الزمان، حتى يترك مساحةً للقلب أن يختار وهذا هو معدن الاختبار.

والذي يجتهد بصدق سيوفقه الله، قال تعالى: ﴿ قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ﴾ [المائدة: 119].

وسيظل هوى النفس هو مصدر كل شبهةٍ وشهوة، وما دخلت الشبهات قلب امرئٍ إلا بشهوة، ولا ارتفعت إلا بطاعةٍ، ومن فضل الله أنه يعفو عن كثيرٍ من الزلل ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الشورى: 30].

وما وُجد للهوى أتباع إلا لأن للمشاهدة أثرها في إضعاف الغائب فترى الإنسان يحب الدينار العاجل على الدنانير الآجلة مع ضمان كليهما، ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ ٱلْءَاخِرَةَ ﴿٢١﴾ ﴾ [القيامة: 20 - 21].

لذا ينقاد المرء لبعض الأهواء مع علمه بالفطرة والغريزة خطأ فعله وشناعة هواه، واطلاعه من خلال الدين أن الطريق ليس ههنا، وهنا يحدث الصراع بين الضمير والمصلحة، الهوى والواجب.

وقد يكون للهوى أثره في النفس وأثره في القلب، فتتعلق الشبهات بهذا الأثر، ومع الوقت ومع دوام الالتصاق بالهوى يزداد عمق الأثر وتزداد

الشبهات تعلقًا وركونًا، حتى قد يطمئن المرء في بعض ساعات نهاره إلى الكفر -عياذًا بالله- ويلفظه في ساعاتٍ أُخر، ويبقى القلب على ذلك حتى يقاوم الهوى فيندمل الأثر وتطيش بعض الشبهات.

ويبقى الصراع ما بقي الإنسان في الدنيا، قال رسول الله ﷺ: «**تعرض الفتن على القلوب كالحصير عودا عودا؛ فأي قلب أشربها نكت فيه نكتة سوداء، وأي قلب أنكرها نكت فيه نكتة بيضاء حتى تصير على قلبين على أبيض مثل الصفا، فلا تضره فتنة ما دامت السماوات والأرض والآخر أسود مربادا كالكوز مجخيا لا يعرف معروفا ولا ينكر منكرا إلا ما أشرب من هواه**». صحيح مسلم

فسيظل الصراع قائمًا مع النفس ما بقي الإنسان على الأرض!

ومن أجل ذلك لا أقبل ما يروج في مكتباتنا من كتب تُسمى كتب وسلاسل وموسوعات ومجلدات وأشرطة «الرد على الشبهات»، وكأننا في صراعٍ مع شبهاتٍ لا تنتهي.

والواقع أن الصراع الحقيقي مع النفس لا الشبهات، مع الهوى لا الإشكالات، ومن اندملت في نفسه شهوة انطفأت جذوة شبهة في قلبه بقدرها وأكبر.

فالقضية ليست شبهات وإنما تكليف، وصراع مع هوى النفس لا أكثر!

ولذا سأعرض في هذا الفصل ليس شبهاتٍ وردود أو علاجاتٍ وأمصال، بل هي وسائل للتفكر في كيف أن الشبهة في أصلها سخيفة ولا تنطلي على باحث حين التحقيق، لكن ما علقت إلا بذنبٍ كما ذكرنا.

وقبل أن نعرض في هذا الفصل لأشهر الأطروحات التي يعرضها الملحد العربي، في البداية نقرر حقيقة هامة: وهي أنه لو كان الإنسان ابن الطبيعة فلن يشعر بالخطأ ولا الشبهة ولن يفهم معناهما، كما قررنا في نهاية الفصل الثاني!

لأن الحتميات المادية تُحرك كل شيء، ولا يوجد في العالم المادي خطأ ولا ظلم ولا خير ولا شر، لذا فأنا أقول دائمًا أن الشبهة أكبر دليل على عدم وجود الإلحاد وأنه لا يصلح لتفسير ظاهرة الإنسان، فإذا شعر الإنسان بوجود شبهة فليعلم أن الإلحاد وهم! لأن العقل مادة مُتلقية طبيعية لا تتجاوز هذا الإطار، والحالة النفسية الحاكمة في النموذج الإلحادي هي حالةٌ نفسيةٌ للمادة وليس للروح، وبالتالي لا يمكنُها أن تُخطِّئ حالةً ماديةً أخرى، فحتى تناطحُ الذراتِ هو تصرفٌ لا خطأ فيه ما دام موافقًا للقوانين الفيزيائيةِ الصحيحة.

فوجود الشبهات في الأساس يعني خطأ الإلحاد.

وعلى كلٍ سنعرض أشهر الأطروحات والتشكيكات حتى لا يبقى قولٌ لقائل!

فإلى الرحلة...

إشكالات فيزيائية

كون من لا شيء (A Universe from Nothing):

يقول الملحد: الكون جاء من لاشيء فيزيائيًا كما يُقرر لورانس كراوس!

الرد:

قام الكاهن الملحد لورانس كراوس Lawrence M. Krauss بطرح

كتاب «كون من لا شيء» A Universe from Mothing وافترض في كتابه هذا أن الكون جاء من لاشيء، وأن اللاشيء Nothing بمعناه الحقيقي هو مصدر الكون، وطار بأطروحته تلك في كل مكان.

وهذه الأطروحة لو كان فيرنر هايزنبرج Werner Heisenberg عالِم الفيزياء الألماني الكبير مكتشف مبدأ عدم اليقين أو مبدأ الريبة uncertainty principle حيًّا لأصيب بذبحة صدرية بسبب هذه التصريحات من لورانس كراوس.

ومبدأ عدم اليقين الذي اكتشفه هايزنبرغ هو مبدأ فيزيائي من المبادئ التي تحكم الكون، ويُعَدّ أحد أهم أُسس الفيزياء الحديثة، ويَنُص مبدأ عدم اليقين على أنه: «يستحيل تحديد موقع وسُرعة أحد الجسيمات دون الذرية في وقتٍ واحد»، فنحن ممنوعون من معرفة موقع وسُرعة الجسيم في آنٍ واحد.

ويُعَدُّ مبدأ عدم اليقين قانوناً صارماً من قوانين الطبيعة، ولا يرتبط بأي شكلٍ من الأشكال ببعض القصور الموجود في أجهزتنا، أو بقدراتنا على الرصد، بل هو قانون كوني، فطِبقاً للقانون لا يمكن تحديد خاصيتين مُقاسَتين من خواص جملة كمومية quanta -جسيم دون ذري-، في نفس الوقت.

وتأتي أطروحة لورانس كراوس في صدام مباشر مع مبدأ عدم اليقين، فلورانس كراوس يتجاهل المبدأ ويقرر اللاشيئية Nothing أو «العدم» ويجزم بأنها مصدراً للكون. مع أنه من المستحيل طبقًا لمبدأ عدم اليقين تقرير نفي وجود الجسيم مكانيًّا وزمانيًّا في نفس الوقت -يستحيل فيزيائيًّا إثبات العدم-، فإما أن تعرف مكان الجسيم أو تعرف سرعته ويستحيل أن تجزم بنفي الخاصيتين أو إثباتهما معًا!

وبالتالي يستحيل أن تُثبت «اللاشيء nothing».

يستحيل أن تُثبت «العدم Null» فيزيائيًا.

هذا فضلاً عن أن تؤسس من خلال هذا الإثبات لفلسفة كهنوتية تزعم من خلالها أن هذا العدم له دور، فضلاً عن أن تثبت أن هذا الدور هو إيجاد العالم بكل ما فيه!

فالفضاء الفارغ من أي شيء -العدم- يخالف أسس الفيزياء، ويخالف مبدأ عدم اليقين، فضلاً عن كل هذا يستحيل الجزم بوجوده، فضلاً عن الجزم بأنه مصدر هذا الكون كما يزعم الكاهن لورانس كراوس!

بل إن الفراغ لا يمكن أن يخلو من أية تفاوتات كمومية Quantum Flactuations-جسيمات دون ذرية-، وإلا لأصبح هذا الأمر انتهاكًا صريحًا لمبدأ عدم اليقين الكوني.

والفراغ الكمومي يوجد في إطار الزمان وإطار المكان، فلا معنى للحديث عن اللازمان واللامكان داخل الفيزياء!

وبالتالي تصبح أطروحة كراوس الإلحادية وهمًا لا يقل عن أوهام كهنة الديانات الوثنية، لكنه يعلو عليها في تبجحه، وافتراضه أنه هو العلم، ونغمة «أنا أذكى منكم» الموجودة في أطروحاته!

فما قام به لورانس كراوس هو أنه يتحدى العلم ويحارب مبدأ كوني -مبدأ عدم اليقين- من أجل الترويج لإلحاده الكهنوتي، ومن ثَم يتبنى الملحدون العرب أطروحاته.

ولذا فعندما يأتي ملحد عربي ليزعم أن إلحاده هو العلم وأن هذا الطرح من كراوس هو السائد علميًا فساعتها لا يُحمِّلنا تكاليف علاج عقله ولا يزعجنا بنباحٍ لا تحتمله الآذان.

إلى جانب ما سبق: يفترض لورانس كراوس في كتابه من نفس المنطلق الدعوي للإلحاد أن: طاقة الكون الموجبة إلى جانب طاقة الكون السالبة تساوي الصفر؛ وبالتالي فالكون مجرد عدم!

وهذه الأطروحة ساقطة فلسفيًّا، لكن قبل بيان سقوطها فلسفيًّا لنا أن نتساءل: ما الذي يدعو لورانس كرواس للجزم بأن عدمية الكون -مجموع طاقته المساوي للصفر- أو أن كل عالمنا مجرد لغو باطل سيصب في مصلحة الإلحاد؟

أليس المسلمون يؤكدون كذلك أن عالمنا مجرد لغوٌ باطل؟

ألسنا نزعم أن وجود الكون غرور ولغو فارغ؟

﴿ ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الحديد: 20].

بل إن الوجود المخلوق ككل يجب ألا يكون شيء آخر غير العدم، فهو بلا قيمة ولا معنى ولا وجه للمقابلة مع الذات الإلهية الأزلية!

فوجودنا ككل هو وجود اعتباري عارض، ما المشكلة في ذلك؟

بل زِد على ذلك أن الكون بكل مادته وكل طاقته هو مجرد «جملة كمية» بمعناها الفيزيائي، لا تظهر ولا توجد إلا حين نرصدها! كما يقرر تفسير كوبنهاجن للدالة الموجية.

وتفسير العبارة السابقة أن: الكون ما جاء ولا معنى له في ذاته إلا حين ننظر إليه أو نرصده، فساعتها فقط تتحول الموجات الشبحية إلى جسيمات وتظهر الأفلاك وما وراء الأفلاك، هل تصدق؟

نعم هذه هي حقيقة كوننا! فقد علمتنا الفيزياء الكمية أن الكون لا وجود له في ذاته ولا معنى له إلا حين يتم رصده -رؤيته-.

فالكون مجرد لغو باطل مرتبط بمن يرصده وحين يختفي رصده يتحول إلى سراب!

قد تكون هذه الحقائق العلمية مدهشة للكثيرين لكنها تبقى أحد معطيات الفيزياء الكمية، فمن منظور فيزياء الكم فإن الكوانتا المرصودة quanta - مثل فوتونات الضوء- لا تظهر كجسيم إلا حين النظر إليها، وعندما لا تنظر إليها فإنها تتصرف كموجة، وهذا ربما يفوق كل السحر الذي ينتجه البشر !

يقول الفيزيائي الشهير نك هربرت Nick Herbert: «هذا الأمر يجعل الإنسان بعض الأحيان يتخيل أن خلفه وهو يسير، يتحول العالم إلى موجةٍ من الذوبان الكلي ويتحول العالم إلى حساء الكوانتم، لكن وما أن يلتفت خلفه ليرى الحساء إذا بالأشياء تتجمد والأشجار والأحجار وتعود لطبيعتها العادية والمألوفة.

إننا بهذا المنطق نعيش داخل أسطورة مثل أسطورة ذلك الملك الذي لم يعرف في حياته ملمس الحرير؛ لأنه ما أن يلمسه يتحول إلى ذهب، وهذا بطريقة مماثلة يشبه أنَّ الانسان لن يستطيع أنْ يختبر حقيقة جسيم الضوء؛ لأنَّ كل شيء نلمسه يتحول إلى مادة»[1].

وقد كتب ستيفن هاوكنج في كتابه الأشهر التصميم العظيم the Grand Design في الفصل السادس أن: «فكرة أن الكون ليس شيئًا مستقلاً عن

(1) Nick Herbert, «How Large is Starlight? A Brief Look at Quantum Reality,» Revision 10, no. 1 (Summer 1987), pp. 31-35.

الراصد -الإنسان- قد تبدو مدهشة وخيال علمي لكنها ليست كذلك -فهي حقيقة علمية-».

The idea that the universe does not have a unique observer-independent history might seem to conflict with certain facts we know, that might sound like science fiction, but it isn't.

وقال أيضًا: «نحن مَن نصنع التاريخ عبر الرصد، وليس التاريخ هو الذي يصنعنا.»

"We create history by our observation, rather than history creating us."

وقال: «يعتمد التاريخ فحسب على ما نرصده وليس على الشيء في حقيقته».

"The histories that contribute to the Feynman sum don't have an independent existence, but depend on what is being measured. We create history by our observation, rather than history creating us. The idea that the universe does not have a unique observer-independent history might seem to conflict with certain facts we know."

هذه الرؤية المخيفة للعالم من حولنا، تقرر أن العالم لا يتحول إلى حقيقة موجودة إلا إذا حضر في أذهاننا ووعينا، ويتخلى عن وجوده إذا غِبنا عنه!

وبالتالي فلابد أن يكون هناك كائن أزلي أحضر الكون بهذه الصورة إلى أذهاننا، وجعل الكون شيئًا ظاهريًا لا قيمة حقيقية له في ذاته، وإنما هو مُسخر كُليًّا لوجودنا ووعينا بوجوده.

وهكذا فيزيائيًا نصير نحن مركز هذا الوجود فعليًا، ومركز تسخيره وقيمته، ولا تصبح له قيمة في ذاته أو معنى في ذاته، وبذلك تنهار الفلسفة

المادية، وتتداعى كل تنظيراتها الفلسفية، ولكن قليلٌ من يتدبر، وقليلٌ من يدرك أنَّ الحياة الدنيا مجردُ وجودٍ غروري ظاهري لا أكثر ﴿ ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ﴾ [الجاثية: 35].

فالحياة الدنيا ظاهرة قِشرية سرابية لا قيمة لها في حقيقتها ﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ۝٧ ﴾ [الروم: 7].

ومن أجل ذلك فالانتصار لعدمية الكون في ذاته ليس انتصارًا للإلحاد كما يتخيل لورانس كراوس بل هو انتصار للإيمان!

ولتأكيد أن عدمية كوننا هو انتصار للإيمان، عليك أن تعلم أن عدمية الكون لا تعني أنه غير موجود بل هو موجود اعتباريًا.

والوجود الاعتباري يختلف عن اللاوجود، وهذه هي المغالطة الفلسفية التي وقع فيها لورانس كراوس.

أُكرر مرةً أخرى: عدمية الكون لا تعني أنه غير موجود بل هو موجود اعتباريًا، والوجود الاعتباري يختلف عن اللاوجود!

ولورانس كراوس ساوى -جهلاً بأسس الفلسفة- بين الوجود الاعتباري وعدم الوجود. فافترض أنه طالما أن طاقة الكون الموجبة تساوي طاقة الكون السالبة إذن الكون يساوي العدم، وهذا صحيح رياضيًا لكنه خطأ فلسفيًا.

فعندما تحفر بئرًا فإن ناتج الحفر رياضيًا إذا أُضيف إلى البئر لا يطرح شيئًا جديدًا من منظور رياضي تجريدي، لكن واقعيًا الأمر يختلف، فهناك بئر حُفرت وهناك تدخل خارجي وهناك ناتج عمل.

فهنا أخطأ كراوس خطأً فلسفيًا غاية في السخف والضعف؛ فهو افترض أن تساوي طاقة الكون الموجبة بطاقتة السالبة يعني عدم وجود الكون!

لكن الكون موجود إذن له موجِد أخرجه اعتباريًا من العدم إلى الظاهر الاعتباري وقتيًا إلى أن يشاء خالقه سبحانه، وبعدها سيعود إلى حقيقته العدمية كما كان ﴿ يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾ ﴾ [الأنبياء: 104].

وبالمناسبة كلمة «الكتب» في الآية هي كلمة معجزة!

فعندما تتساوي طاقة الكون الموجبة بطاقته السالبة، فإنه يصير مسطح ثلاثي الأبعاد كالكتاب تمامًا، وهذا لفظ وكالة ناسا.

the geometry of the universe is flat, like a sheet of paper(1).

أيضًا اللفظة القرآنية لشكل الكون «كتاب» أدق من لفظة صفحة «sheet of paper» التي أوردتها ناسا لأن الكون ثلاثي الأبعاد وليس ثنائي الأبعاد وبالتالي هو أقرب للكتاب منه للورقة.

فهذه معجزة علمية لشكل الكون من موقع ناسا الرسمي تطابق ما أخبر به رجلٌ كان يرعى الغنم على قراريط لأهل مكة منذ ألف وأربعمائة عام ﷺ.

نعود للورانس كرواس ونؤكد بطريقة رياضية أنه أخطأ حين تصوّر أن العدم المطلق عبارة عن طاقة سالبة وطاقة موجبة متساويتان ومجموعتان، وبما أن ناتجهما يساوي صفرًا إذن فهما عدم مطلق.

أي: أن العدم المطلق عند كراوس هو (+ 1) + (- 1) = صفر.

في حين أن العدم المطلق ليس فقط لا شيء بل هو لا شيئية في العدم المطلق.

(1) http://map.gsfc.nasa.gov/universe/uni_shape.html.

ولذا فتصور أن (+ 1) + (- 1) = صفر تمثل العدم المطلق هو تصور غير صحيح، نعم (+ 1) + (- 1) = صفر هو عدم رياضي ولكن ليس عدم مطلق لا شيئية فيه.

فبالفعل لم يدخل في معادلة البئر وناتج الحفر شيء، لكن هناك عمل وتدخل ووعي وحكمة وإرادة أنتجت حفر البئر مع أن الناتج المجموع رياضيًا يساوي صفر، والأمر نفسه ينطبق على الكون!

وبنفس القياس العقلي فإن إيجاد الكون يدل على قيومية الله سبحانه وحكمته وإرادته وعظيم قدرته.

ولولا أن الله قيّومٌ علينا وعلى كل هذا الوجود في كل آن لاختفى الكون وعاد لعدميته، فالمعادلة ككل -معادلة وجود الكون- ليست شيئًا حقيقيًا تامًا، وإنما وجود اعتباري ظاهري لا أكثر.

ومما سبق يتضح أن مدخل لورانس كراوس أكبر دليل على صحة الدين، وعلى صحة ما قرّره الدين من مركزية الوجود الإنساني -الراصد -، ومن هامشية وجود الكون - الذي يمثل جملة كمية مرصودة لا قيمة لها ولا معنى لها إلا حين يتم رصدها من خلال الإنسان- والحمد لله رب العالمين.

هل يُغني القانون عن المقنن؟

يفترض الملحد أن القوانين تكفي لخلق الكون وظهوره، وقد اعتمد ستيفن هاوكنج على هذه المقدمة فافترض أن قانون الجاذبية يكفي لظهور الكون، كما أوضح ذلك في كتابه الأخير التصميم العظيم[1].

---

(1) Because there is a law such as gravity, the universe can and will create itself from nothing.
Stephen Hawking and Leonard Mlodinow, The Grand Design, 2010.

وقد انتشر تقرير هاوكنج في الصحف العالمية وتناقلته وسائل الأنباء، وتداولته المواقع الشعبية بكثافة!

وبغض النظر عن سقوط هذا الزعم ذاتيًا بمجرد التفكير في مصدر قانون الجاذبية، أو مَن الذي قننه ومَن الذي أعطاه صفة التدخل وإظهار الأثر؟

بغض النظر عن هذه البديهيات الأولية فإن قوانين الجاذبية لا تؤدي إلى دحرجة كرة البلياردو!

ولو أضفنا قوانين الجاذبية مع كرة بلياردو وعصا البلياردو فإن الكرة أيضًا لن تتدحرج، فنحن أيضًا سنحتاج إلى تدخل وجهد وعمل للإمساك بكرة البلياردو ثم دفعها بالعصا وهنا فقط تظهر قوانين الجاذبية.

فقانون الجاذبية ليس شيئًا مستقلاً وإنما هو وصف معادلاتي لحدث طبيعي!

وقانون الجاذبية لن يُحرِّك كرة البلياردو دون قوة تضغط على عصا البلياردو وتحركها وهنا فقط تتحرك كرة البلياردو ويظهر أثر قانون الجاذبية!

لكن الملحد يفترض أن وجود قوانين الجاذبية تكفي لخلق كرة البلياردو وعصا البلياردو ودحرجة الكرة.

أيهما أكثر قربًا من العقل والمنطق: الدين أم الإلحاد؟

وبالمثل قوانين الإحتراق الداخلي في موتور السيارة لن تخلق موتور سيارة.

ولو أضفنا قوانين الإحتراق الداخلي إلى موتور السيارة فإن الموتور أيضًا لن يعمل، فلابد من البنزين الذي يعطي طاقة، ولابد من شرارة الاحتراق

ولابد قبل ذلك من وجود الموتور. وهنا فحسب تظهر قوانين الإحتراق الداخلي ويعمل الموتور!

الملحد أيضًا يفترض أن قوانين الاحتراق الداخلي تكفي لخلق الموتور وشرارة الاحتراق والبنزين والسائق والطريق. إنه الكهنوت الإلحادي...!

يقول المفكر الأيرلندي كليف لويس C.S. Lewis: «قانون الجمع في الرياضيات يصف ما هو المبلغ الذي تملكه في البنك، فألف جنيه زائد ألف جنيه تكون النتيجة طبقًا لقانون الجمع ألفان، لكن لو انتظرت أن يُفرز لك هذا القانون أموالاً إضافية فسوف يتجمد رصيدك بسبب افتراضك أن القانون ينتج رصيدًا من تلقاء ذاته!»

سوف يتجمد رصيدك بسبب إلحادك.

«laws of nature produce no events: they state the pattern to which every event - if only it can be induced to happen - must conform, just as the rules of arithmetic state the pattern to which all transactions with money must conform - if only you can get hold of any money. Thus in one sense the laws of Nature cover the whole field of space and time; in another, what they leave out is precisely the whole real universe - the incessant torrent of actual events which makes up true history. That must come from somewhere else. To think the laws can produce it is like thinking that you can create real money by simply doing sums. For every law, in the last resort, says: If you have A, then you will get B.» But first catch your A: the laws won't do it for you»[1].

فالقانون ليس كينونة مستقلة، وإنما هو توصيف رياضي للظاهرة!

---

(1) C.S. Lewis, Miracles, p.42.

فافتراض أن قانون الجاذبية يخلق الكون والأفلاك والنظم البيئية والسماوات بمنتهى المعايرة الدقيقة والحدود الحرجة لمئات الثوابت الفيزيائية المدهشة هو افتراض لا يُطلقه إلا ملحد!

ضخامة الكون وحجم الإنسان!

يقول الملحد: هل يُعقل أن الله خالق كل هذه المجرات يهتم بذنوبنا ويرسل وحيًا في أمورٍ بسيطة؟

الرد:

مشكلة الملحد أن استدلالاته باطلة وقياساته فاسدة، ويظن أنه بهذه المغالطات الساذجة يمكن أن يفر بشنيعة كفره!

فهل عندما نقول: إن الملك أوصى لابنه ببعض الوصايا والنصائح. وكَتب له في ذلك كتاباً، هل يمكن أن يأتي معترض ويقول: كيف لملك يملك ملايين الأفندة والأراضي الشاسعة التي لا حصر لها، يهتم بابنه الذي لا يبلغ حجمه ووزنه واحد على مليار مليار مما يملك الملك - ولله المثل الأعلى - من الأفدنة والأراضي؟

هل هذا اعتراض عاقل أو نصف عاقل أو يمكن أن يُلتفت إليه؟ أليس هذا المعترض من الأولى أن يُحشر في زمرة المجانين؟

فافتراض أن ضخامة حجم الشيء أو ضآلته مؤثر في المسألة، هو افتراض لا يطرحه إلا عقل الملحد!

بل إنه ليست العبرة بالحجم الحسي للإنسان حتى، وإنما بالحجم المعنوي لأشياء بلا حجم كالأخلاق والصدق والأمانة!

فالفرق بين أعظم البشر الذين أقاموا أعظم الحضارات وبين أدناهم هو فرق معنوي لا مادي -مثل ملكة القيادة وحسن العمل ونبل الأخلاق-، ولو كان للحجم في ميزان الله أدنى اعتبار لكانت السماوات والأرض أولى بحمل الأمانة!

ثم إن الحيتان أضخم من الميكروبات بمليارات المرات، فهل هذا يعني أن الحيتان أهم من الميكروبات؟ وما معنى كلمة أهم هنا؟ وما القيمة الجدلية لهذه الكلمة «أهم»؟

وهل الله يهتم بالكائن الضخم لضخامته ولا يهتم بالكائن الصغير؟

أم أنه كفل للجميع الرزق والنظام الأنسب؟

ثم إن السماواتِ والأرضَ مصدرهما نقطة أصغر من رأس الدبوس -أصغر من بروتون الذرة بمليارات مليارات المرات-، أليس كذلك يزعم كل فيزيائيي العالم طبقًا للبيج بانج Big Bang Theory؟

أيضًا الحجم نسبي ولو تحوّلت المجموعة الشمسية كلها إلى ثقب أسود فلن تتجاوز كيس شيبس صغير- ويصير حجم الأرض 0.9 سنتيمتر مكعب-.

إذن القضية ليست بالأحجام ولا الحكم على الأشياء يكون بالأحجام والأوزان والأثقال.

القضية هي إدراك هذه الأشياء واستيعابها!

والآن هل ثمة شيء يستوعب هذه العلاقات بين الأحجام إلا الإنسان؟

هل ثمة شيء يدرك الفوارق إلا الإنسان؟

هل ثمة شيء يدرك القوانين وضخامة الأفلاك وعظمة الخلق وروعة الإعداد بعناية إلا الإنسان؟

هل ثمة شيء يدرك أن الوردة حمراء وبديعة التنسيق والجمال غير الإنسان؟

هل ثمة شيء يدرك مدارات الأفلاك وروعة المنظومة الفيزيائية التي تحكم الكون غير الإنسان؟

إذن لا يختلف العلماء على أن الإنسان مركز الكون إدراكيًا وسيكولوجيًا، وحديثًا فيزيائيًا، ومنذ الأزل دينيًا.

إشكالات تاريخية

يقول الملحد: الديانات السماوية تنقل من ملحمة جلجامش!

الرد:

مشكلة الملحد أن قراءته سطحية وأحكامه متعجلة، وهذا أصل كفره ومعدن شبهاته ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [يونس: 39].

فيظن الملحد أن القصص الرمزية في ملحمة جلجامش وثنيات مادية، وهذا خطأ وخطل في الفهم.

فمثلاً يظن الملحد أن عشتار في ملحمة جلجامش التي هي أنانا عند البابليين أو عشتاروت عند الفينيقيين أو أفروديت عند اليونان أو فينوس عند الرومان هي أحد الآلهة الوثنية القديمة.

ثم يخرج من هذه المقدمة الخاطئة باستنتاج في قمة السخف والسذاجة، فيفترض أن المجتمع الإنساني في بدايته كان يُقدس الأنثى (الأم الكبرى عشتار) وبعد زمن تحول المجتمع الإنساني إلى مجتمع ذكوري حين استقر الإنسان باكتشافه للزراعة.

والمدهش أن هذا الاستنتاج الساذج سائد في الكتابات الإلحادية!

وفي واقع الأمر فهذا الطرح في قمة الجهل.

حيث أن عشتار في ملحمة جلجامش لم تكن أكثر من رمز لـ«دنيا»!

والترميز بالآلهة في الملاحم القديمة كثير وقد انفتح مؤخرًا للباحثين في تاريخ الأديان شيء من هذا الباب.

فعشتار لم تكن أكثر من رمز للدنيا ببهرجها الكاذب وتزيّنها المغري.

وتأتي النصوص الدينية -مثل ملحمة جلجامش- للتحذير من عشتار -الدنيا- بقصص رمزية غاية في الإبداع.

ومن أجل ذلك فقد رفض الملك تموز -دموزي- حين اعتلى العرش أن يسجد لعشتار رغم ارتباطه القديم بها، بينما سجد لها ملوك آخرين، ولذا اغتالت الشياطين تموز!

ارتدى تموز حلته الفاخرة...

وأمسكه الشياطين من فخذيه...

ثم صوبت عشتار نظرها إليه وقالت...

أما هذا فخذوه[1].

المصدر: من ألواح سومر.

أيضًا جلجامش رفض أن يسجد للدنيا -عشتار- بعدما أغرته بكل الإغراءات، وسنذكر هذا تفصيلاً بعد قليل!

---

(1) المصدر: من ألواح سومر.

وملحمة جلجامش تتكون من اثنا عشر لوحًا، يُشكل لوحها الأول صراع الإنسان مع شهواته حيث تنجح شمخة -المرأة الفاتنة- في إيقاع أنكيدو -الشاب المتهور- في الخطأ.

وتستدرجه إلى أوروك -الوركاء حاليًا- عاصمة سومر القديمة والتي تعد أول حضارة عرفها الجنس البشري على الإطلاق.

ثم يأتي اللوح الثاني من ملحمة جلجامش والذي يروي قصة لقاء أنكيدو -الشاب المتهور- بجلجامش -الشاب المتدين قوي الإيمان-وكيف أنهما يتصارعان في البداية، لكن تتوحد جهودهما في النهاية على مقاتلة الشيطان خمبابا في غابة الأرز.

وينتهي اللوح الخامس للملحمة بهلاك الشيطان خمبابا على يد أنكيدو وجلجامش في غابة الأرز.

وينتزع جلجامش رأس خمبابا ويأخذ الغنيمة ويعود إلى أوروك راضيًا عنه الإله.

وهنا يبدأ اللوح السادس بإغراء من أشد ما يكون لجلجامش، حيث تظهر عشتار -الدنيا- بكل بهرجها وزينتها ولهوها لتغري جلجامش حتى يرتبط بها فتُغرية بعربات اللازورد والذهب، وتدعوه عشتار إلى بيتها، فإنه ما أن يدخل بيتها حتى: يزداد تكاثر الأموال والأولاد عنده -تلد عنزاته بالثلاث والنعاج تلد توائم- وسيركع له الأمراء.

وهنا يقف البطل جلجامش موقفًا عظيمًا إذ يرفض كل هذه العروض والاغراءات ويُظهر عشتار على حقيقتها فيقول لها: «ففتح جلجامش فاه وأجاب عشتار:

أنتِ -يا عشتار- قصر يتحطم في داخله الأبطال...

أنتِ قبر يلوث من يحمله...

وأنتِ نعل يقرص قدم منتعله...

أي من عشاقك بقيتِ على حبه أبدًا؟

وأي من رعاتك رضيتِ عنه أبدًا؟»

وهنا تثور عشتار وتهتز وتقرر أن تحرم أهل أوروك من الخير فيصيب أهل أوروك الجدب الشديد، وهنا يقفز أنكيدو ويساعد جلجامش وينتصرا في معركتهم على فتنة عشتار.

وفي اللوح السابع تبدأ لحظات احتضار أنكيدو ويتوب أنكيدو عن ذنوبه القديمة -علاقته بالفاتنة شمخة- ويلعن شمخة ويدعو عليها أن يصفعها الثمِل والصاحي وأن تكون موضع اتهام دومًا، لكنه يعود عن دعائه عليها ويتراجع، فشمخة قد أصلحت حالها وكانت سبب مباشر في معرفة أنكيدو بجلجامش.

ويموت أنكيدو حزينًا أنه لم يمت في ساحة معركة.

وفي اللوح التاسع: يشعر جلجامش بالحزن الشديد على وفاة صديقه أنكيدو، ويقرر البحث عن أوتو نبشتم -النبي نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ- صاحب قصة الطوفان؛ ذلك الشخص العظيم الذي حصل على الحياة الأبدية -الجنة- لأنه سار مع الله، كما تقول الملحمة.

ويبدأ اللوح العاشر من الملحمة بجلجامش يسير في طريق وعر مليء بالحيوانات الأسطورية المخيفة -الصراع مع النفس ومقاومة الشهوات والرغبات-؛ لأن مصارعة هذه الحيوانات الأسطورية المخيفة هو الطريق الوحيد لمقابلة أوتو نبشتم -النبي نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ.

ويصارع جلجامش شهورًا طويلة كائنات مخيفة وأهوالاً عظيمة وبحوراً مظلمة - بحور الهوى والشهوة-، وعلى الضفة البعيدة يراقب أتو نبشتم معارك جلجامش!

وبعد قليل يفوز جلجامش ويلتقي أوتو نبشتم ويطلب منه الوصول إلى الحياة الأبدية -الجنة-، وهنا يبدأ أوتو نبشتم في سرد النصائح لجلجامش، وكيف أن الموت لن يترك إنسان؟ وأنّ الإله قرّر أن يظل يوم الموت سراً دفينًا.

ويبدأ اللوح الحادي عشر باسترجاع أوتو نبشتم لعجائب قصة الطوفان، وكيف أن الإله أهلك الفاسدين بسبب معاصيهم وأن الفاسدين مهما بَنوا ومهما تعالت مساكنهم فهلاكهم قادم.

وهنا يُعلم أوتو نبشتم جلجامش بكيفية الحصول على الحياة الأبدية- الجنة-.

لكن احذر يا جلجامش! فالحية -الشيطان- يمكن أن تقتطف ثمرة جهدك في لحظة، وبعد دروس وعِبر ومغامرات مدهشة يعود جلجامش إلى أوروك عاصمة بلاد سومر القديمة راضيًا بقدره.

أما اللوح الثاني عشر فيتفق الباحثون المختصون أنه نص مُضاف إلى الملحمة التي تنتهي بنهاية اللوح الحادي عشر، حيث يعود في هذا اللوح الثاني عشر سرد الكثير من الأحداث مثل بكاء جلجامش لأنكيدو، وإعادة قصة موت أنكيدو بصورة تختلف تمامًا عن الصورة التي يرويها اللوح الثامن.

وهنا لابد من وقفات:

الوقفة الأولى: رمزية النصوص في الملاحم القديمة -مثل قتل جلجامش

للشيطان خمبابا- لا تعني إطلاقًا إيمان القدماء بأنها حقائق، فهم أذكى من ذلك بكثير ويعلمون المقصود الرمزي من القصص كما نعلمه نحن.

لكن الملحد يفترض الغباء في القدماء، فيتصور أنهم يُسلِّمون بواقعية الرموز وهذا جهل بألف باء علوم التاريخ، وهذا أيضًا سوء ظن في القدماء مصدره مقدمات إلحادية عقيمة.

الوقفة الثانية: هل تمت عبادة عشتار على وجه الحقيقة؟

نعم! فكثير من الناس يعبدونها حتى اليوم، ولا يلزم أن تكون عشتار وثنًا، فيكفي إنسانًا أن يرتضي بالدنيا بديلاً عن الآخرة، وأن يستجيب لشهواته ويحيا عليها ويموت عليها، وبذلك هو عبد لعشتار حتى ولو لم يسمع بهذا الاسم طيلة عمره.

الوقفة الثالثة: هل ملحمة جلجامش هي نص ديني قديم وليس نص أدبي؟

هذا ظاهر جدًّا ولا يحتاج للتنظير، ويكفي كم التحريف الذي تعرضت له ملحمة جلجامش لتعرف أنه نص ديني انتشر تقريبًا في كل الحضارات القديمة، إذ لو كان نصًّا أدبيًّا فما الداعي لتحريفه؟

ومما يُثبت أن ملحمة جلجامش مصدرها دين تم تحريفه ما اكتشفه المنقِّبون في الموضع الأثري المعروف بـ «سلطان تبه» في تركيا، حيث اكتشفوا أجزاء من الملحمة ورسالة قديمة زوّرها كاتب قديم في الألف الثاني قبل الميلاد، فقد جاءت تلك الرسالة على لسان جلجامش معنونة إلى أحد الملوك القدماء[1].

---

(1) المصدر: كتاب ملحمة جلجامش، طه باقر.

وبمقارنة القطع الأصلية تبين أن ملحمة جلجامش جرى فيها تغيير شديد طوال الحقبة الآشورية[1].

الوقفة الرابعة: هل كل ما ورد في ملحمة جلجامش هو نص ديني صحيح؟

بداهةً هذا خطأ شديد فالتحريف كما ذكرنا كبير جدًّا، واللوح الثاني عشر محرف بأكمله، لكن روح النص تحمل بصمات النص الديني الذي آمن به سكان أصقاع شتى من الأرض في ذلك الحين.

لكن مع الوقت ومع تقادم الزمان ظهر التحريف ودخلت الوثنيات في النص الديني، وامتلأ المكان برموز وثنية كثيرة، وتمت عبادة الأشخاص الصالحين في الملحمة على حدٍّ سواء مع عبادة الدنيا -عشتار-.

وكما ورد في الحديث القدسي في صحيح مسلم: «قال الله تعالى: إني خلقت عبادي حنفاء كلهم فاجتالتهم الشياطين عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً».

وكما قال ابن عباس: «كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام، ثم حدث فيهم الشرك».

والشاهد من الحديث والأثر أن التوحيد سابق وأصل، وأن التعدد لاحق وانحراف والتاريخ يُثبت ذلك.

فما وصَلنا يُعطي صورة أولية عن عمق الإيمان لدى الإنسان الأول ومدى التحريف الذي عانى منه الدين على يد البشر.

---

(1) المصدر: كتاب أساطير بابل وكنعان، شارل فيرللو.

فلم يكن الدين السومري أكثر من دين إلهي سابق تم تحريفه، ولم تكن هذه الصور إلا رموز للدنيا ومدى مقاومة البشر لها ولطغيانها وتزيّنها الكاذب.

ومع ذلك استطاعت الدنيا- عشتار- أن تجذب كثيرين إليها وفي النهاية أغرقتهم في اليم -طوفان نوح-.

الوقفة الخامسة: هل جلجامش الحاكم السومري الشهير هو جلجامش بطل الملحمة؟

جلجامش الحاكم السومري لم يُذكر عنه شيء ذو أهمية وملحمة جلجامش تسبق ظهوره بكثير، فلم تكن ملحمة جلجامش شيء آخر غير الدين الذي يدين به أصحاب أول حضارة.

فجلجامش الحاكم كان ضمن قائمة طويلة من حكام أوروك، ولم يكن حتى في أول القائمة، ولم يكتب عنه التاريخ أكثر من سطرين.

أما جلجامش الملحمة فهو العدل وهو الذي ينقذ النوع الإنساني من المادية والدنيا المغرية.

حيث تقول الملحمة عن جلجامش:

«لم يترك جلجامش ابنًا لأبيه...

ولم ينقطع عن -خدمة- الناس ليل نهار...

فهو السور والحمى....

وهو الراعي...».

فجلجامش في الملحمة هو الذي قتل الشيطان، وأهان الدنيا -عشتار-.

فجلجامش الحاكم تسمى على اسم جلجامش الملحمة لا أكثر.

الوقفة السادسة: لكن لماذا استخدام القصص الرمزية؟

القصص الرمزية تجذب الانتباه وتفتق الذهن وتحمل معلومات مشفرة لنبوءات قادمة -لو جاءت هذه النبوءات صريحة ربما حاول المحرفون من الكهنة تغييرها سريعًا-.

والكتب السماوية تمتلئ بالقصص الرمزية فمثلاً سفر أشعياء في العهد القديم بأكمله عبارة عن قصص رمزية وكذلك سفر الرؤيا في العهد الجديد.

والقرآن الكريم مليء بالأمثلة التي تعطي دروسًا وعِبر، مثل قوله تعالى ﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الحديد: 20].

وقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾ ﴾ [البقرة: 264].

وملحمة جلجامش هي ملحمة دينية رمزية تبين صراع الإنسان من أجل الحق والعدل والإيمان.

وهذه الملحمة تؤكد أن قصة الدين الإلهي وملامحه الرئيسية توجد عند أول حضارة مكتملةً، فهناك الإله الحقيقي وهناك القيم والنواميس والعبادة والوضوء والصلاة والصوم وسبل الانتصار على الشيطان وعلى النفس.

وقصة الطوفان في النص السومري أيضًا بسبب الغضب الإلهي.

وعشتار أسقطت أزواجها كلهم في اليم -طوفان نوح-، ثم رست السفينة بـ«أوتو نبشتم» نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ وبالمؤمنين، وبعدها نشأت حضارة سومر مباشرةً.

وهنا لمحة هامة تقلب الطاولة على الملحد: الملحد يضع مقدمة «وجود عشتار وانتشارها في الحضارات القديمة» ثم يستنتج من المقدمة أن المجتمع الأول كان أنثويًّا، وهو هنا يفترض غباء القارئ وجهله وسهولة تمرير، أي سخافة لكن بعد أن قمنا بسرد ألواح الملحمة الاثني عشر وشخصياتها يمكننا أن نستخدم نفس أسلوب الملحد ونقرر نتيجة عكسية تمامًا، إذ نقرر أن المجتمع الأول كان ذكوريًّا وأن عشتار في المجتمع الأول كانت مثالاً للشر والإغراء، وجلجامش كان مثالاً للسيادة والترفع عن الشهوات، وبالتالي كانت الأنثى رمزًا للشر!

لكن بفضل الله عقولنا تتجاوز سخافة أطروحات الملحد ومقدماته التي يبني عليها أفكار إلحادية مريضة لا تقر إلا في أذهان مريضة مثله.

لكن أهم سؤال في هذا المنشور لم يُطرح بعد!

ألا وهو: ما مصدر ملحمة جلجامش؟

يقول شارل فيرللو Charles Virlleaud في كتابه أساطير بابل وكنعان: «وحسب رأي البابليين لم يتوصل البشر إلى ما يُميزهم عن الحيوان -عبر ألواح جلجامش- إلا من خلال العلم الذي جائهم دفعةً واحدة من قِبل الخالق».

إذن قرّر أصحاب الشأن -البابليين- أن أصل علمهم مِن قبل الخالق -وهذا ينسف تصورات الملحد للتاريخ الديني وملحمة جلجامش بالكلية-.

فماذا بقي للملحد؟

المهم أن إيمان الأجداد الذين ركبوا السفينة مع أوتو نبشتم نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ

قد ضيعه الأحفاد -حضارة سومر-، وتحولت رموز جلجامش إلى وثنيات يعبدها الناس، وعادت الأوثان إلى الأرض من جديد فقد اتخذ الناس أنبيائهم وصالحيهم معبودات من دون الله.

فالحنيفية السمحة أعقبتها وثنيات كفرية.

وتلوثت ملحمة جلجامش كما تلوثت غيرها من الديانات الإلهية بتحريف الوضاعين ولم يبق ما يجعلنا نجزم بصحته أنه وحي إلهي.

وبعد أن احتوت ملحمة جلجامش على رموز لشخصيات صالحة وأنفس مطمئنة تأكل وتشرب وتصارع الذات والدنيا -جلجامش-، وأنفس لوّامة -أنكيدو-، وأنفس أمارة بالسوء -عشتار وشمخة-، تم الغلو في هؤلاء جميعًا ومع الوقت عبدهم الناس واتخذوهم آلهة من دون الله، بل وصار أتباع الدنيا يتقربون لعشتار فاجتالتهم الشياطين وجعلتهم يؤلهون صالحيهم فعاد الناس إلى الكفر الذي أغرق أجدادهم في اليم يومًا ما.

قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ ﴾ [يونس: 19].

لكن بقي كثيرون على الملة الصحيحة وعلى التوحيد النقي.

ولم تكن بعثة الرسل تترًا إلا لتنقية ما أفسده المُحرفون والوضّاعون والذين أشركوا بالله ما لم يُنّزل به سُلطانًا ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾ ﴾ [البقرة: 213].

فالحمد لله على النعمة الأولى والخاتمة -الإسلام-!

تاريخ بني إسرائيل!

يزعم الملحد أن قصص بني إسرائيل غير ثابت تاريخيًّا ولا أركيولوجيًّا، ولم يكن بنو إسرائيل في مصر أصلاً!

فهو يتساءل ويقول:

هل وُجد أي أثر لقصة خروج بني إسرائيل من مصر في سجلات الفراعنة؟

نعم!

فورق آيباور Ipuwer Papyrus البردي، والمحفوظ في متحف ليدن بهولندا، وهو سجل يذكر اضطرابات عظيمة وقعت في مصر ومصائب حلت عليها قبل خروج بني إسرائيل من مصر مباشرةً.

وأوراق آيباور تصف حال الإمبراطورية المصرية التي عاشت حالة من الفوضى وسحقتها كوارث طبيعية عجيبة وأوبئة أودت بحياة كثيرٍ من الناس.

وأحد العبارات ذكرت نهراً من الدم- كما ينص القرآن الكريم- ،وذكرت أن الخدم- اليهود- تمردوا بشكل علني وتركوا الأرض.

هذه مقاطع تعكس الأحداث التي روتها الكتب السماوية عن تلك الحقبة[1].

وهناك دليل مباشر على بني إسرائيل في عام 1209 ق.م.

(1) Randall Price, The Stones Cry Out, Notes, harvest house publishers, 1997, p.412.

حيث مسلة مرنبتاح التي تصف حملة للفرعون مرنبتاح بن رمسيس الثاني في نهاية القرن الثالث عشر ق. م. والنقش يحكي قصة الحملة المصرية التي ذهبت إلى أرض كنعان وسحقت بني إسرائيل[1].

وهناك أدلة على وجود بني إسرائيل في مصر مثل لوحة بني حسن في المنيا من عصر الدولة المصرية الوسطى، وهي تصور مجموعة تجار من شرق نهر الأردن ينزلون إلى مصر بالحيوانات والسلع، وهي تمثل وصول قبيلة بني يعقوب إلى مصر بناءًا على طلب النبي يوسف.

حيث يُكتب في النقش من اليمين إلى الشمال أنهم قادمون من مكان يدعى Shut التي تضم منطقة سيناء وجنوب كنعان[2].

ثم إننا لا ينبغي أن نتوقع أن المصريين القدماء سوف يوثقون بصراحة الكوارث التي شهرت بآلهتهم، أو أنهم سوف يذكرون هزيمة جيشهم على يد العبيد المشردين!

هل لوجود سيدنا إبراهيم دليل مادي أركيولوجي؟

نعم؛ قلعة إبراهيم دليل مادي مباشر على وجود سيدنا إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

فحصن إبرام أو مدينة إبراهيم الحصينة مسرود في نص هيروغليفي على جدار منحوت في معبد آمون في الكرنك بالأقصر.

(1) Paul Backholer, the Exodus Evidence, byfaith books, 2010, p.72.
Isreal Finkelstein & Neil Asher Silberman, the Bible Unearthed, chapter2, Touchstone Rockfeller Center, 2002, p.57.

(2) Paul Backholer, the Exodus Evidence, byfaith books, 2010, p.17.
Isreal Finkelstein & Neil Asher Silberman, the Bible Unearthed, chapter2, Touchstone Rockfeller Center, 2002, p.54.

وقد بنى داود أو سليمان هذا المكان في النقب في القرن العاشر قبل الميلاد في وقتٍ مبكر كجزء من خط الدفاع ضد المصريين[1].

بل إن المصريين القدماء كانوا يسمون مدينة بئر سبع باسم حصن إبرام.

أما عن وجود النبي داود فهناك دليل مادي على وجوده وهو لوحة تل دان أو مسلة بيت داود وهي عبارة عن نقش أثري عمره 3000 سنة، ويتحدث النقش عن الحرب بين بني إسرائيل والآراميين التي دارت حوالي 150 سنة بعد أيام الملك داود، يتضمن هذا النقش كلمتين وهما «بيت داود»[2].

ثم إنه من الصعب أن نتوقع من شعب بني إسرائيل أن يتركوا لنا نقوشًا تحكي عن انتصاراتهم وذلك لأن الشريعة اليهودية تمنع رسم الصور «لا تصنع لك تمثالا منحوتا ولا صورة ما مّما في السماء من فوق وما في الأرض من تحت وما في الماء من تحت الأرض». [سفر الخروج 20 - 4].

هل توجد قوة عظمى تسمى مملكة سليمان؟

نعم؛ ألواح إبلا Ebla!

فخبراء الآثار استنتجوا من ألواح إبلا الأثرية أن مدينة إبلا في شمال غرب سوريا كانت تنافس مصر وبلاد ما بين النهرين كقوةٍ كبرى في العالم القديم، وتم العثور في إبلا على مكتبة تحتوي أكثر من خمسة عشر ألف لوح وقطع مكتوبة بالمسمارية سُميت بألواح إبلا، فقد احتفظت إبلا بسجلات لجميع المدن التي أجرت معها معاملات تجارية أو فرضت عليها الجزية.

(1) Randall Price, The Stones Cry Out, Chapter5, harvest house publishers, 1997, p.98.

(2) Randall Price, The Stones Cry Out, Chapter9, harvest house publishers, 1997, p.167-170.

وقد وردت في السجلات كثير من أسماء المدن الموجودة بالكتاب المقدس[1].

وتذكر ألواح إبلا مدن مثل سدوم وعمورة، ومدينة إرم التي ذكرها القرآن الكريم، وقد نُشر كتاب بعنوان» إبلا ثورة في علم الآثار» يحكي تفاصيل المدينة تأليف شيام برمانت ومايكل واتزمان.

بل المدهش أن ألواح إبلا تذكر إلى جانب إرم أقوام ثمود (شاموتو) وقوم عاد، وهما المدينتان اللتان ذُكرتا حصريًا في القرآن الكريم ولم تُذكرا في كتابٍ غيره، وكان الملاحدة دائما يحتجون أنهما من أساطير الأولين.

وقد أخبر القرآن الكريم أن هذه القصص -قصص عاد وثمود- لا يعلمها النبي ولا قومه ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾ [هود: 49].

وألواح إبلا أغرت وكالة الفضاء الأمريكية ناسا NASA ومختبرات الدفع النفاث J.P.L بكاليفورنيا إلى البحث عن تلك المدن وتم رصد إرم فعليًا في منطقة الشيصار 1998م وتم اكتشاف قلعة عملاقة خاصة بإرم هذه القلعة تقوم على أعمدة ضخمة يصل ارتفاع الواحد منها إلى تسعة أمتار ويصل قطره إلى ثلاثة أمتار، وهذه المدينة دمرتها عاصفة رملية غير عادية[2].

وصدق الله القائل: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴿٩﴾ ﴾ [الفجر: 6 - 9].

---

(1) Dr. Laurence B. Brown, Goded, Chapter5, 2007, p.63-64.

(2) المصدر: جريدة الأهرام 2 يونيو 2008.

فما حال الملحد بعد هذه الآيات؟

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ ﴾ [فصلت: 53].

ثم ماذا كشفنا نحن من تاريخ الأمم حتى نجزم بنفي حدث تاريخي؟

طبقًا لزاهي حواس عالم الآثار الشهير، فنحن لم نكتشف من آثار مصر إلا الثلث![1].

ففي واقع الأمر جزء بسيط جدًّا من الأحداث يُدون، وجزء بسيط جدًّا مما يُدون يبقى، وجزء بسيط جدًّا مما يبقى يتم تنقيبه، وجزء بسيط جدًّا مما يتم تنقيبه يُعلن عنه ويُفهم![2].

للاستزادة بخصوص تاريخ بني إسرائيل: كتاب «القضية لا تزال مفتوحة، حوار روائي بين الدين والإلحاد»، سلمى حسب الله، أطلس للنشر، الطبعة الأولى 2013 فقد تمت الاستفادة من الكتاب في تدوين الفقرات السابقة!

إشكالات منطقية

ما المانع أن تكون أدلتنا العقلية قائمة على الخبرة البشرية لا أكثر!

يقول الملحد: ما المانع أن تكون الأدلة التي يقدمها المؤمن لإثبات وجود الخالق هي فقط معتمدة على الخبرة البشرية؟

---

(1) The Report: Egypt, 2011, Oxford Business Group, p.230.

(2) للاستزادة بخصوص تاريخ بني إسرائيل: كتاب «القضية لا تزال مفتوحة، حوار روائي بين الدين والإلحاد»، سلمى حسب الله، أطلس للنشر، الطبعة الأولى 2013 فقد تمت الاستفادة من الكتاب في تدوين الفقرات السابقة!.

الرد:

في البداية أدلتنا العقلية على الإيمان هي براهين أولية قبلية A-Periori وليست قياسات عقلية، والبرهان العقلي الأولي لا علاقة له بالخبرة البشرية بل هو سابق في الوجدان والوجود عليها.

فالإنسان يولد ببراهين عقلية أولية مسبقة، اتفق على وجودها الملحد والمؤمن، فيُسميها المؤمن بـ «الفطرة» أو «الصبغة الإلهية» ﴿ صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾ ﴾ [البقرة: 138].

ويُسميها الملحد بالغرائز الأولية instincts.

ومن اللافت للنظر أن علم اللغويات الحديثة التي أسس لها نعوم تشومسكي Noam Chomsky تقوم على أن العقل لا يولد كصفحة بيضاء بل يحتوي على الكثير من المقدمات الأولية knowledge is innate.

بل إن أصل علم اللسانيات الحديث لا يمكن دراسته دون التسليم مسبقًا بوجود فطرة منسوجة مسبقًا داخل العقل البشري، وأنه ليس صفحة بيضاء[1].

فالعقل يمتلك براهين أولية أو قبلية، لا تعتمد على الخبرة ولا يتم اكتسابها أو توريثها عبر الأجيال، ومن هذه البراهين العقلية القبلية الأولية برهان السببية!

فهو برهان قبلي أولي لا ينفك ولا ينخرم، فأنت موجود ووجودك لا يُفسر نفسه بنفسه إذن لك موجِد ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [الطور: 35].

(1) http://en.wikipedia.org/wiki/Universal_grammar.

إنه دليل عقلي أولي كوني، يتجاوز أُطر الزمان والمكان، ولا يتقيد بخبرتنا البشرية بل هو أعم وأعمق.

وقوام كل العلوم النظرية والتجريبية على برهان السببية، فلولا اضطراد هذا البرهان ولولا استقراره في الأذهان ما صحت معادلة ولا انضبطت تجربة ولا سلّمنا بنتيجة ولصارت كل العلوم لغو فارغ!

فهو برهان كوني أعلى من القانون وعليه تقوم كل العلوم!

أيضًا من أدلة الإيمان بالخالق أن هذا العالم موجود ووجوده يفيد عرضيته وتغيره، والعالم لا يفسر نفسه بنفسه، إذن لابد لهذا العالم من موجِد ﴿ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [الطور: 36].

إذن نحن نقوم بالإيمان بالخالق استنادًا إلى برهان عقلي أولي يسبق الخبرة البشرية ويسبق كل ملكاتنا المكتسبة.

ثم بأي دليلٍ من خارجنا نحن مُطالبون بالتمرد على خبرتنا البشرية؟

بأي دليلٍ من خارجنا نحن مضطرون لعدم الانصياع لمكتسباتنا البشرية؟

بأي دليلٍ نرفض كل ما تمدنا به حواسنا؟

الآن الموقف انقلب! نحن الذين نُلزم الملحد بالتسليم بما ترصده الحواس وهو يرفض ويعاند، مع أنه داعيه المذهب الطبيعي والمبشر الأول به، أليس كذلك؟

زِد على ذلك أن براهيننا القبلية الأولية أعلى وثوقية من خبرتنا البشرية بكثير وأكثر منها ضبطًا وإتقانًا.

زِد على ما سبق أن أدلتنا لا تنحصر في البراهين القبلية الأولية، بل هي أحد البراهين لا أكثر، وإلا فبرهان النبوة هو برهان آخر قائم بذاته ومنفصل عن البراهين الأولية، أضف إلى ذلك البراهين التي تتجاوز إطار القيد المادي في هذا العالم مثل برهان الأخلاق، فالأخلاق لا مصلحية ولا مادية وتستمد بانتظام معناها وقيمتها من عالمٍ آخر لا علاقة له بهذا العالم المادي المجرد، فهذه كلها براهين على عدم كفاية المذهب المادي، وأننا بحاجةٍ إلى سندٍ ليس من هذا العالم يبرر وجود هذه الأمور الغير مادية!

أيضًا برهان انتقال اللاحياة إلى حياة وهو برهان استخدمه القرآن الكريم كثيرًا في إثبات التدخل الإلهي وهو ما زال حتى اللحظة حجة في وجه كل دعاة الإلحاد، فكل علوم العالم وكل جامعات العالم وكل ما توصل إليه العالم من ذكاءٍ وتقانةٍ وضبطٍ وماكيناتٍ عملاقة لا يستطيع أن يُنتج أبسط صور الحياة، ومع ذلك ما زال الملحد يفترض أن العشوائية أنتجت كل صور الحياة وأنتجت الفيروس والبكتريا والإنسان، إذا لم تكن هذه قمة السذاجة، فأين تقبع قمة السذاجة؟

لكن هنا قد يتقافز ملحد، ويدعي أن خبرتنا البشرية قد تنخرم كما في فيزياء الكم، وقد يسقط برهان السببية كما أسقطته ميكانيك الكم.

وفي الواقع هذه مغالطة سخيفة لا يزال الملحد يكررها كلما أعيته الحجج العقلية الملزمة.

فالحقيقة أنه في عالم الكم توجد السببية وتوجد الأطر المعرفية الكبرى بنفس القدر من الاضطراد، لكن قد لا تتبع الجسيمات ردود أفعال واحدة أو حتمية متوقعة دومًا، وإنما يكون لها (احتمالات) فيما يُعرف بالدوال الموجية wave function.

وهذا ما بيّنه عالِم الفيزياء والرياضيات الألماني الأشهر ماكس بورن Max Born حيث أوضح في أثناء تفريقه بين السببية والحتمية Causality and Determinism أن عالم فيزياء الكم لا تنتفي فيه السببية ولكن تسقط الحتمية لتحل محلها الاحتمالات، وذلك لا يتعارض مع ما جاءت به الأديان![1].

فلا يوجد شيء يسير في هذا الكون بلا قانون، فالكل مُسخَّر تماماً، بمنتهى السببية من المِجرة إلى ما دون الذرَّة، وكل معادلات ميكانيك الكم تخضع لقانون وإطار كلاسيكي صارم، ولا تستطيع أن تتمرد على أُسس الميثودولوجيا السببية.

يقول ستيفن هاوكنج مستهزئًا بالفلسفة التي تدور في هذا الإطار في كتابه: «في عام 1277 قام أسقف باريس بوضع منشور من 219 هرطقة تجب إدانتها في أنحاء البلاد، وأحد هذه الهرطقات هي الإيمان بالسببية، وبتلازم قوانين الطبيعة، ولم تمض شهورٌ حتى مات الأسقف بسبب تلازم أحد قوانين الطبيعة حين سقط عليه سقف الكاتدرائية بفعل قانون الجاذبية وبفعل السببية التلازمية!»[2].

إن الذي يحارب البديهيات هو مسفسط حتى الثمالة، ولا يفعل ذلك إلا في إطار السفسطة العقلية، وفي قاعات الدرس بينما هو في واقع حاله يمارس الإيمان بالسببية في كل لحظةٍ بلا تردد!

وحتى ظهور الجسيمات في حالات التذبذب الكمومي Quantum

(1) المصدر: الفصل الثاني مِن كتابه الشهير: NATURAL PHILOSOPHY OF CAUSE AND CHANCE.

(2) المصدر: كتاب التصميم العظيم، ص41، لـ«ستيفن هاوكنج».

Vacuum Fluctuationsلا يخالف قانون حفظ الطاقة، كما يدعي بعض مروجو العلوم الزائفة من الملحدين!

فالتذبذب الكمومي -ظهور الجسيمات لحظيًّا، ثم اختفاؤها داخل الفراغ الكوانتي- يخضع لبرهان السببية في جميع تجلياته، لكنه لا يخضع للإطار الزمني، وهذا أول الإشكال وآخره!

فالجسيمات في الفراغ الكوانتي يمكن أن تقترض طاقة من المستقبل فتظهر ثم تتلاشى دافعةً القيمة التي قامت باقتراضها بالضبط لحظة التلاشي، لكن هذه المساومة واقتراض طاقة من المستقبل تحدث في الإطار المادي داخل حدود الزمان والمكان، فلولا الزمان المخلوق والموجود لما كان لهذا الاقتراض وجود ولا معنى.

فالتذبذب الكمومي خاضع لقوانين متصل الزمكان space time continuum، فالزمان الذي استخدمته الجسيمات لاقتراض الطاقة ليس بُعد منفصل عن المكان بل هو أحد الأبعاد الأربعة «طول، عرض، ارتفاع، زمن» ويدخل مع المكان في نسيج متصل لا يمكن تجزئته أو تمزيقه، كما تقرر النسبية العامة لأينشتاين!

ولذا فالتذبذب الكمومي يحدث داخل هذا النسيج بقواعد النسيج وعندما يستلف الجسيم طاقة من المُستقبل، ففي هذه الحالة هذا مستقبل بالنسبة للراصد، لكنه جزء لا يتجزأ من النسيج الكوني، وبالتالي استلاف طاقة لا يُحدِث خرق في قانون حفظ الطاقة؛ لأن النسيج الزمكاني في لحظة حصول الجسيم على تلك الطاقة التي قام باقتراضها، ثم إعادتها لحظة تلاشيه لم يتغير شيء في النسيج الزمكاني، ولم يختلّ قانون حفظ الطاقة، ولم ينفصل الزمن عن الأبعاد المكانية الثلاثة.

ولا جدال أن التذبذب الكمومي في جميع صوره يخضع لقانون وإطار كلاسيكي صارم، ولا يستطيع أن يتمرد على قوانين المادة ولا يستطيع كسر قانون حفظ الطاقة.

فميكانيك الكم يسير وفق قواعد وقوانين بل وتحكمه أسس ابستمولوجية ثبتت بطرق ميثودولوجية معلومة ومنضبطة!

ولو كان ميكانيك الكم عشوائية مطلقة ما أصبح علمًا يتم تدريسه في كل جامعات العالم، ويتم الإستفادة من ظواهره في مناحٍ علمية كثيرة مثل شريحة الكمبيوتر التي تكتب من خلالها، فشريحة الكمبيوتر تعمل بالظاهرة الكمومية ولو كانت العملية عشوائية ما استفدنا منها في شيء!

بل إن ميكانيك الكم يسير وفق معادلات رياضية صارمة لا يحيد عنها مثل معادلة شرودينغر Schrödinger equation التي تصف الحالة الكمومية المعتمدة على الزمن، والتي تكاد تطابق قانون نيوتن الثاني في الفيزياء الكلاسيكية.

أيضًا هناك معادلة هايزنبرج Heisenberg equation ومعادلة بلانك اينشتاين Planck-Einstein equation وكلها تصف حالات كمومية مختلفة.

وميكانيك الكم يستحيل أن يخترق جدار بلانك، فكل شيء يجري بضوابط محددة في العالم الكوانتي لا يتجاوزها ولا يحيد عنها، ويمكن التنبؤ بتصرفات العالم الكوانتي طبقًا لمبدأ عدم اليقين لهايزنبرج وفي حدوده.

فافتراض الملحد أن العالم الكوانتي يخرق السببية راجع ليس إلى العلم ولا إلى فيزياء الكوانتم، وإنما راجع إلى طبيعة الملحد وطبيعة الباحث عن الزيغ ﴿وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّ﴾ [الكهف: 56].

لكن قد يسأل ملحد ويقول: كيف سلَّمنا من الأساس بصحة مقدماتنا العقلية؟

أيها الملحد! عليك أن تعي أن عملياتنا العقلية تعكس شيئًا ما عن العالم المادي الذي نسكنه فهي صحيحة.

ولذلك أحكامنا ناجحة جدًّا وتنبؤاتها صحيحة، وأعطت نتائج جيدة!

والبحوث العلمية تحتوي على قدرٍ كبيرٍ من الدقة؛ لأنها ترتبط بواقع مادي يثبت أننا نسير في الاتجاه الصحيح، لكن الأهم من ذلك أن عقولنا ترصد كل ذلك وتحلله وتتوقع النتائج لذا لنا الحق كاملاً في الثقة في أحكام عقولنا.

فالعقل استنتج قوانين سقوط الأجسام -قوانين نيوتن الثلاثة- وحين قمنا بتطبيقها جاءت النتائج صحيحة تمامًا.

وأيضًا صدقت تنبؤاتنا واستطاع أينشتاين أن يُدخل بعض التعديلات على قوانين نيوتن في السرعات الأعلى، وجاءت نتائجه أيضًا مبهرة وعلى قدرٍ مدهشٍ من الدقة والضبط بما يعطينا ثقة أعلى في أن أحكام عقولنا ليس وهمًا فارغًا أو سرابًا خادعًا!

والعلم نفسه مؤسَّس على أمل أن العالم عقلاني -مستوعَب عقليًّا- في جميع مناحيه المشهودة ولم تنخرم هذه القاعدة حتى الساعة، وفي الفيزياء النووية وفيزياء الأفلاك ظلت قدراتنا العقلية غير خادعة بالمرة بل هي ثابتة ومتزنة وتعطي أحكام لها طابع الوثوقية العالية.

وليس معنى عدم استيعاب عقولنا لأشياء مثل توحيد النسبية مع الكمية أي تشكيكٍ في قيمة عقولنا فلا يعني ما لم نصل إليه افتقاده للمعقولية!

وإنما يعني طبيعتنا البشرية القاصرة لا أكثر، وهذا لا يُخرج العقل عن مصداقية أحكامه!

فلا يعني عدم مقدرة الآلة الحاسبة جمع أرقام تزيد على عشرة أرقام خطأ ما تتوصل إليه، وإنما طبيعة تصميمها لا يتيح لها إلا هذا القدر من المعلومة وما فوق ذلك يتجاوز مقدرتها، ولا يُشكك هذا التجاوز في معطياتها؛ لأن كل معطياتها -العمليات الحسابية - بالتطبيق المادي سليمة وتنبؤاتها صحيحة.

أضف إلى ذلك أن قانون المربع المقلوب للقوة الكهربية تم إثباته دائمًا، فهذه محاكمة استقرائية ناجحة تمامًا وهي أساس نجاح العلم ذاته!

فالعلم يقوم على إمكانية الاعتماد على الطبيعة من خلال محاكمة استقرائية عقلية مسبقة، توفر قناعة أن المربع المقلوب للقوة الكهربية سيظل ثابتًا في التجربة التالية، وبالتالي فالحكم العقلي سليم!

فالزعم بأن الكون عقلاني مرتبط بحقيقة أنه منظم!

والتشابك المنضبط للأحداث -مثل غليان الماء عند مائة درجة مئوية- يمدنا بانتظام بتأكيد صحة مقدمتنا العقلية عن السببية!

فالسببية هي أحد مظاهر النظام العقلاني للعالم، وجميع الأحداث التي نرصدها تدور في إطار سبب ونتيجة!

وفي الختام قد يقفز ملحد ليقول: اتفقنا على صحة المقدمات العقلية، وعلى صحة أن هذا الوجود لا يفسر نفسه بنفسه، لكن لماذا تقول: إن خالقه هو الخالق تحديدًا؟

وهنا يقُف الشعر من سفاهة القول ووقاحة المنطق وبجاحة الفروض العقلية، فهل أنت تُنكر وجود طارق للباب لمجرد أنك لا تعرف مَن الذي يطرق الباب الآن؟

هل تنكر وجود أستاذك لمجرد أنك لا تعرف اسمه؟

هل تنكر وجود ركاب بالطائرة أو قائد لها لمجرد أنك لا تعرف مَن هم؟

ولله المثل الأعلى!

لماذا تصادر على المطلوب وتقفز على الإلزام وتتجاوز التكليف العقلي المباشر الذي لا يحتمل ترددًا بفرضٍ آخر وسؤالٍ آخر لا علاقة له بما يُكلفك به البرهان؟

تقافزك لا يُخرجك من الإلزام، وتجاوزك لا يُسقط عنك التكليف بما عرفت عبر الأدلة الماثلة في الأنفس والآفاق!

وهنا قد يقول الملحد: سلّمنا لك بوجود الخالق، فلِمَ هو الله -سبحانه- وليس إله آخر من الآلهة الموجودة في الديانات المختلفة؟

الرد:

لا يوجد سوى الخالق سبحانه «الله»، ولم نستمد هذه المعرفة الخاصة إلا ببرهان «النبوات»، ولا يختلف أهل الأرض جميعًا في أن الخالق الواحد الأحد هو «الله»!.

وخلافنا مع بقية الأديان ليس لأنهم لا يعبدون الله، ولكن لأنهم جعلوا لله شركاء في الدعاء والطلب والتصرف في الكون.

فجميع أديان الأرض تعبد الله وهو عندها الخالق العظيم، حتى أكثر الديانات إغراقاً في الوثنية؛ لكنهم جعلوا له شركاء متشاكسين نسبوهم للخالق، واعتبروهم أدنى منه منزلةً - آلهة صغيرة - Subordinationism.

لكنهم مع عبادتهم لهذه الآلهة الصغيرة يعترفون ويُقرون بوجود الله سبحانه!

بل إن الأصنام ما عبدها البشر إلا وساطةً لله عز وجل: ﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾ [الزمر: 3].

يقول الشهرستاني عن أوثان العرب قديمًا: «أما الأصنام فلم يكن العرب يعبدونها لذاتها، ولم تكن عندهم أكثر من قطعة حجر».

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ [العنكبوت: 61].

وليست آلهة الهند الكثيرة حاليًا إلا كأوثان العرب الأقدمين، فهي وسائط لله الخالق ولا يعبدونها لذاتها!

وهذا ما ذكره التقرير المرفوع إلى الحكومة البريطانية في الهند وفيه أن: «النتيجة العامة التي انتهت إليها اللجنة من البحث هي أن كثرة الهنود الغالبة تعتقد عقيدة راسخة في كائن واحد أعلى»[1].

ويرى ول ديورانت أن هذه الألوف من الآلهة فقط يتم تقديسها كما تفعل الكنائس المسيحية من تقديس لآلاف القديسين، فلا يتطرق إلى ذهن الهندي ولو للحظةٍ واحدةٍ أن هذه الآلهة التي لا حصر لعددها لها السيادة العليا[2].

ولذا فقد كان النزاع بين الرسل وأقوامهم في توحيد الألوهية «إفراد الله بالعبادة»، لا في توحيد الربوبية «إفراد الله بالخلق».

ولهذا لم يَرد التكليف بمعرفة وجود الصانع، وإنما ورد بمعرفة التوحيد ونفي الشريك.

(1) المصدر:- موسوعة قصة الحضارة، ول ديورانت، مجلد 3 ص 209.

(2) المصدر السابق.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «ومن ظن في عُباد الأصنام أنهم كانوا يعتقدون أنها تخلق العالم، أو أنها تُنزل المطر، أو أنها تنبت النبات أو تخلق الحيوان أو غير ذلك، فهو جاهلٌ بهم، بل كان قصد عباد الأوثان لأوثانهم من جنس قصد المشركين بالقبور للقبور المعظمة عندهم»[1].

فالله سبحانه هو المعبود في جميع ديانات الأرض وخلافنا مع بقية الديانات نابع من إشراكهم في الألوهية -إفراد الله بالعبادة-، لا في الربوبية -إفراد الله بالخلق-.

لكن الذي يزعج كل عاقل أن يُنكر ملحد الخالق، وينكر الإلزام بالأدلة لمجرد زعمه عدم معرفته بمَن خلق، فيكون كالذي يُنكر وجود بشر بنوا المدينة؛ لأنه لا يعرف أسمائهم!

إشكالات من واقع المسلمين المعاصر

ما سبب تخلف المسلمين العلمي التقاني؟

الرد:

المسلمون في بلاد الغرب يُمثلون نخبة مثقفة يقول د.مراد هوفمان: «أن تكون مسلمًا في أمريكا يعني أن تكون أكاديميًا -هكذا الأمر مستقر في اللاوعي الغربي-، وهذه الحقيقة تمنح الإسلام وضعًا اجتماعيًا متميزًا وموقفًا ماليًا قويًا... وفي سانتا كلارا في قلب وادي السليكون، تجد ما لا يقل عن 700 خبير كمبيوتر مسلم ولقد شارك الكثيرون منهم في تطوير Pentium III»[2].

---

(1) المصدر:- مجموع الفتاوى، لابن تيمية، 1/359.

(2) المصدر: الإمبراطورية الأمريكية، الجزء الثاني، ص216.

ورؤساء المنظمات الإسلامية هم علماء كبار يفخر بهم المجتمع الأمريكي مثل د.نظير خايا طبيب الكلى الشهير خريج جامعة هارفارد ويشغل منصب مدير مركز المعلومات الإسلامي IIS، أما رئيس منظمة الحقوق المدنية للمسلمين في أمريكا CAIR فهو عمر أحمد عالم دقائق الكمبيوتر، أما مجلس المسلمين الأمريكيين فيرأسه الدكتور عبد الرحمن المودي.

ويوجد في أمريكا وحدها 200 ألف عالم مسلم هاجروا من مصر فقط كما أعلنت وزارة الهجرة المصرية[1].

فالتخلف ليس قضية مرتبطة بالأيديولوجية -الدين- كما يحاول أن يفترض الملحد اللئيم ذلك، فلا يوجد في الإسلام ما يمنع من التقدم التقاني.

يقول الأستاذ عمر التلمساني رحمه الله: «إن الإسلام لا يرضى بما نحن فيه، فلا داعي للتمحك بأنه سبب تأخر المسلمين وضعفهم، كل ما في الإسلام يدعوا إلى العدل والإنصاف، والقوة والمساواة والجد، والعمل وإتقانه، ويدعو إلى الفضيلة ومكارم الأخلاق».

ويقرر غوستاف لوبون أن: «الإسلام من أكثر الديانات ملاءمةً لاكتشافات العلم». ولذلك يكثر اعتناق الإسلام في الأوساط العلمية من دكاترة وبروفسورات وباحثين.

لكن نحن لم نُجب عن السؤال بعد!

لماذا نحن متخلفون علمياً؟

في البداية؛ العلم ببساطة هو ملاحظة الظواهر بغية تفسيرها، والبحث العلمي قرين بمَن يدفع أكثر، ومَن يُمول، هذه هي القضية.

(1) http://www.asbar.com/ar/monthly-issues/53.article.htm.

وتمويل إحدى جامعات أمريكا الكبرى -مثل جامعة هارفارد- يفوق التمويل العلمي للدول العربية مجتمعةً[1].

فمِن البديهي أن يكون عدد الأوراق العلمية الصادرة عن جامعة هارفارد أكبر من عدد الأوراق العلمية الصادرة عن جامعات الدول العربية.

والتخلف عندنا تخلف إداري، وليس تخلف كمي أو كيفي، فطالب الطب في الجامعات العربية يتخرج بحصيلة علمية ربما تفوق بمراحل الحصيلة العلمية لخريج الطب في الجامعات العالمية لكن الإدارة عندهم تنجح في توظيفه وترقيته مهاريًا وزيادة تخصصيته فيُبدع!

أيضًا يمكن التأريخ لبداية أول مراحل تخلف مجتمعاتنا بتاريخ سقوط الدولة العباسية حين تضاءلت الروح العلمية فجأةً، وظهرت الثقافة الأدبية الواحدية في العالم العربي وظلت سائدة حتى الساعة!

وفي الواقع لا يولد الأدب إلا من رحم فكر عظيم لكن الأدب المنفرد الغير مقترن بعلم مأساة. والقرآن يقرن بين الروح الأدبية العالية والشواهد الرصدية العلمية قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا سُبْحَـٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ ﴾ [آل عمران: 191].

فالتفكير في الإسلام فريضة وليس ترف عقلي، وقد تكررت مشتقات كلمة العقل في القرآن قرابة خمسين مرة.

ولذا في عصور الإسلام الزاهية كانت العواصم الكبرى والمدن الإسلامية مثل بغداد والكوفة والبصرة ودمشق وقرطبة والقيروان والقاهرة

(1) http://goo.gl/DXnbK6.

مفتوحة لكل الأجناس والأديان، وكانت المناظرات تُعقد ليل نهار، وكانت الناس يأتون من الدنيا كلها يتلقون العلم، وكان العلم تجارةً رائجة.

وابن النفيس مكتشف الدورة الدموية الصغرى مُصنّف في «طبقات الشافعية»، و البيروني أعلن أن الأرض تدور حول محورها أمام الشمس، وأساس علم الفلك في أوربا قام على مصنفات الإمام إبراهيم الزركلي.

وابن ماجه المصنف المشهور اكتشف أن مدارات الكواكب بيضاوية وليست دائرية.

والمسجدرسة وهو التحام المسجد بالمدرسة من أيام الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ثاني الخلفاء الراشدين.

وبينما كان الموت والوباء يجتاحان أوربا، وكانت البيوت في باريس ولندن من الطمي المخلوط بالقش ولم يكن بها نوافذ أو أرضيات خشبية، ولم يكونوا يعرفون المداخن فكان الدخان يملأ البيت ويزكم الأنوف بالأمراض، وكانوا لا يعرفون النظافة فلم تكن هناك أرضيات أو مصارف، وكانت بقايا الحيوانات تلقى أمام البيوت، ولم يكونوا يعرفون الحجر الصحي أو الوقاية أو النظافة فكانت تنتشر الأمراض الفاتكة لكل أوروبا كل بضعة سنوات، بينما كان الوضع كذلك في أوربا كانت الدولة الإسلامية عامرةً مضيئة، وكان الحجر الصحي معمولاً به منذ عهد الرسول ﷺ، وكانت الشوارع مضاءةً، والمصارف في كل قريةٍ، والبيمارستانات واسعةً رحبة يأتي إليها ملوك أوربا للعلاج[1].

(1) المصدر: بينات الحل الاسلامي وشبهات العلمانيين والمتغربين... د.يوسف القرضاوي.... مكتبة وهبة الطبعة الثانية 1993 ص134.

ويحكي لنا ابن كثير عن عظمة المسجد الأموي، وأن الدنيا لم يكن فيها أعظم منه.

وعندما أرسل هارون الرشيد بساعةٍ هدية إلي الامبراطور شارلمان، خاف شارلمان، واعتقد مَن في القصر أن الساعة تحوي شيطاناً؛ لأن العقارب تتحرك دون أن يلمسها أحد.

ففي عام 807 م أرسل هارون الرشيد بهديةٍ عجيبةٍ لشارلمان ملك الفرنجة، وكانت الهدية عبارة عن ساعةٍ ضخمة بارتفاع حائط الغرفة تتحرك بواسطة قوة مائية، ومع تمام كل ساعة يسقط منها عدد من الكرات المعدنية بعدد الساعات فوق قاعدة نحاسية ضخمة فيُسمع لها رنين موسيقى ويفتح باب من الأبواب الـ12 المؤدية الى الساعة ويخرج منها فارس يدور حولها ثم يعود، لكن رهبان القصر اعتقدوا أن بها شيطانًا يحركها، فتربصوا بها ليلاً وحطّموها[1].

يقول الشيخ محمد الغزالي- رحمه الله-: «إن الصيدلة علم عربي، والفلك والطب والميكانيكا والرياضيات والطبيعة والجغرافيا ما تزال تحمل الأسماء العربية الفصحى إلى اليوم، وهكذا ساد الروح العلمي الأمة العربية»[2].

ويقول ديورانت في كتابه قصة الحضارة: «ربما ملك الصاحب بن عباد من الكتب في القرن العاشر ما يقدر بما كان في مكتبات أوربا مجتمعةً، وكنت تجد في المساجد من قرطبة إلى سمرقند علماء لا يحصيهم عدد ».

أما المستشرق سبنسر فاميري فيقول: «لا يستطيع عالم واحد أن يتأمل القبة الزرقاء دون أن يلفظ اسمًا عربيًّا، ولا يستطيع عالم طبيعي أن يحلل

---

(1) المصدر: مقدمة كتاب شمس العرب تسطع على الغرب، للمستشرقة الألمانية زغريد هونكة.

(2) المصدر: ظلام من الغرب، ص40.

ورقة من الشجر أو يفحص صخرة من الصخور دون أن يتذكر درسًا عربيا، ولا يقدر أي قاضٍ أن يبت اليوم في خلافٍ دون أن يستدعي مبدأ أملته العرب، ولا يسع أي طبيب أن يتأمل دائرة أحد الأمراض المعروفة منذ القدم دون أن يهمس بآراء طبيب عربي».

بل إن الجامعات الأوربية عاشت 600 عام على ترجمات العرب كما يقول جوستاف لوبون.

فلا يوجد في الإسلام ما يحرم العقل من التفكر والتدبر. ومن المفارقات العجيبة في زماننا أن تتقدم الدول الآسيوية التي تحرم ثقافاتها العلم بينما نتخلف نحن. وهنا يحضرني مثال العالم الياباني كو سكي Kow Seki الذي عاش في عصر نيوتن وأبدع علم التفاضل التكاملي وحساب مقدار Pi لكنه أبقى معادلاته سرًا لأن هذا في نظره يُخل بسمو الألوهية أن يكشف تشفيرًا صنعه الله في النظام الطبيعي!

هكذا تنظر ثقافاتهم للعلم.

إننا نِمنا في النور بينما غيرنا استيقظ في الظلام.

لكن هل من مخرج؟

يقول صامويل هنتنجتون بالحرف الواحد: «لا آدم سميث ولا توماس جيفرسون سيفون يفيان بالاحتياجات النفسية والعاطفية والأخلاقية لأصحاب الديانات الأرضية، ولا المسيح قد يفي بها وإن كانت فرصته أكبر، على المدي الطويل محمد سينتصر ﷺ»[1].

(1) المصدر: صدام الحضارات إعادة صنع النظام العالمي.. صامويل هنتنجتون .. ترجمة: طلعت الشايب الطبعة الثانية 1999 ص289.

ويقول فرانسيس فوكوياما: «الإسلام يُشكل أيديولوجية متسقة ومتماسكة وله معاييره الأخلاقية الخاصة به ونظريته المتصلة بالعدالة السياسية والاجتماعية، كذلك فإن للإسلام جاذبية يمكن أن تكون عالمية، فهو يدعو إليه البشر كافةً باعتبارهم بشراً لا مجرد أعضاء في جماعة عرقية أو قومية معينة»[1].

و ينظر توينبي إلى العالم الإسلامي على أنه عنده ما ينقذ الحضارة المعاصرة من الخواء واللامعيارية والعدمية.

يقول تي. بي.إرفنج الأستاذ بجامعة تنيسي الأمريكية: «أعطوني أربعين شاباً ممن يفهم الإسلام فهماً عميقاً ويُحسنون عرضه بأُسلوب العصر وأنا أفتح الأمريكتين»[2].

ويقول هنري دي شامبون: «لولا انتصار جيش شارل مارتل على المسلمين في فرنسا لما دخلت فرنسا العصور المظلمة».

وفي العصر الحديث لم تنتصر الدول الإسلامية ولم تُفق من غفوتها إلا تحت الحكم الإسلامي، وكان هناك بلد إسلامي - المملكة العربية السعودية- يُضرب به المثل في الفوضى وقطع الطُرق واستباحة الحرمات وذبح القوافل، فما أن حكمه المرحوم الملك عبد العزيز بن سعود وأقام فيه الحدود حتى تغير الحال وصار أقل مجتمعات الأرض جريمةً.

والاستقرار السياسي والاقتصادي الذي تشهده تركيا هذه الأيام ما كان ليتم لولا وصول الإسلاميين فيها للحُكم، وقبلها بعقدٍ واحدٍ فقط كان

(1) المصدر: نهاية التاريخ وخاتم البشر، فرانسيس فوكوياما، ترجمة: حسين أحمد أمين الطبعة الأولى 1993 مركز الأهرام للترجمة والنشر ص56.

(2) المصدر: سقوط العلمانية ونهاية اسرائيل، الاستاذ محمد شهدي، دار الوفاء ص91.

الصراع والحكومات الائتلافية وحل البرلمان كل عدة شهور، وكان الانهيار الاقتصادي علامة بارزة في كل تركيا، وما أن وصل الإسلاميون للحكم حتى ارتفع متوسط دخل الفرد من 3 آلاف دولار في عام 2001 إلى 11 ألف دولار في 2011، ووصلت النزاعات بين تركيا وجيرانها إلى الصفر، وهدأت المشكلة الكردية لأول مرة منذ عقود، وتم حل مشكلة المواصلات ومشكلة المياه ومشكلة التلوث في إسطنبول عاصمة الزحام.

فالإسلام يحمل الحل لكن المسلمين نائمون

والأمل الآن معقودٌ على ثورةٍ فكريةٍ إسلاميةٍ خضراء تُزيح الترهلات التي أصابت العلم من جراء كهنة الإلحاد، وسدنة المادية، فالعلم الطبيعي عِلمُنا، ونحن مَن وضع أصوله الأولى، ونحن مَن سيُرجع الأمر فيه إلى نصابه متى شاء الله.

لماذا تتقدم الدول الكافرة؟

كما فصّلنا قبل قليل: العلم قرينٌ بمَن يُموِّل...

المعطيات:

1- في العالم الإسلامي كله، هناك (500 جامعة)

في الولايات المتحدة الأمريكية هناك (5758 جامعة).

2- تنفق إسرائيل 13 % من دخلها القومي على الأبحاث والتطوير

في حين تُنفق مصر 0.0001 % من دخلها القومي على الأبحاث والتطوير.

3- ميزانية البحث العلمي في جامعة هارفارد تفوق ميزانية البحث العلمي في جميع الدول العربية بما فيها دول الخليج.

النتيجة:

فوز 180 يهودي بجائزة نوبل -خلال الـ105 سنة الماضية- وفاز في الفترة ذاتها 3 مسلمين بالجائزة.

الدروس المستفادة:

البحث العلمي قرين بمن يدفع أكثر، مَن يُموِّل!

فلا تطلب أكثر لمجرد كونك مُسلم!

ولا تطلب إهلاك القرى لمجرد أنها كافرة ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾ ﴾ [هود: 117].

هذه هي القضية[1].

فالذي يتوقع أن ننتصر بما نحن فيه من بلادةٍ فقط لأننا مسلمون، وأن يُهزم الغرب بما هم فيه من مثابرة وجدٍ فقط؛ لأنهم كافرون هو أبعد الناس عن فهم سنن الله في كونه، وآياته في كتابه، فقد دلت نصوص الكتاب العزيز أن إهلاك الظالمين، إنّما يكون بالعدل والقسط لا بالظّلم والجور ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ ﴾ [المؤمنون: 41]، أي: بالعدل لا بالظّلم.

وقال تعالى: ﴿ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٠٩﴾ ﴾ [الشعراء: 208 - 209].

فنزّه الله تعالى ذاته المقدّسة عن الظّلم ؛ لكمال عدله في أخذه وعقابه؛ فلا يصيب بعذابه إلاّ من عتا وتمرّد وظلم.

ومن أجل ذلك فقد ذهب القرطبي في تفسيره إلى أنّ الشِّرك لا يكون وحده

---

(1) المصدر: في بناء الوعي، د.خالد صقر، مركز تفكر، ص23-22 بتصرف.

سببًا لإهلاك الأمم حتّى يقترن به إفسادٌ في الأرض، أو تظالمٌ بين العباد؛ لقوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾ ﴾ [هود: 117].

هذه سنة الله في كونه، ولن تجد لسنة الله تبديلاً، ولو وعيت ما عجبت!

هل الإسلام هو داعش؟

كثيرًا ما ينتقد الملحد الإسلام ويُعَرِّض بداعش وأعمال القتل التي تجري على أيديهم وتبثها وسائل الإعلام المختلفة!

وهذا أمرٌ عُجاب!!!

فهل للحياة معنًى مستقل عن الوجود المادي حتى ينتقد الملحد من يسلبها؟

هل للحياة قيمة تتجاوز الإطار المادي وتتمايز عليه حتى يرفض الملحد إزهاقها؟

ألسنا مجرد نفايات نجمية كما يقرر الملحد كارل ساغان Karl Sagan بالحرف، وكما يقرر كل ملحد طبقًا لرؤيته للوجود؟

وبالتالي فلا إشكال مادي في إبادة أهل الأرض جميعًا!

أم أن هذا الكلام للشو الإعلامي لا أكثر ولتشكيك الناس في القيمة والحق والأخلاق، وأن الملحد من داخله يؤمن بقيمة الحياة ومعناها وغائية وجودنا إيماناً اضطراريًّا لا ينفك عنه؟

فالآن الملحد بين أحد أمرين: إما التسليم بأن للحياة وجودٌ آخر مستقل عن الوجود المادي-تستمد معناها من عالمٍ آخر- وإلا ما كان له أن ينتقد داعش!

وإما أن الحياة شيءٌ مادي؛ وساعتها يأتي العلم ليثبت لك أن الموت لا يغير أي شيءٍ مادي على الإطلاق، فلا يحدث أن تتوقف ذرة داخل الإنسان عن الحركة بفقد الحياة، ولا يحدث أن تتوقف الإلكترونات عن دورانها بسلب الحياة. فكما علمتنا الفيزياء الذرية فإن الذرة لا تتوقف إلا عند الصفر المطلق، أما الموت والحياة فهي أشياء لا تُغير في الإطار الذري أي شيءٍ على الإطلاق.

بل بالعكس ربما القتل بالرصاص يزيد تدافع الإلكترونات في المنطقة المصابة، وبالتالي القتل يعد مكسبًا على المستوى المادي! فكيف يعيبه الملحد!

المهم لا يوجد خيار ثالث لدى الملحد!

إما التسليم بمعنى الحياة وانهيار إلحاده، وإما التسليم بصحة النظرة المادية، وبالتالي ما جاز له أن ينتقد داعش ولا غيرها!

ولو ذهبنا لأكثر الحيوانات تقدمًا وسألناه عن معنى الحياة، فلن يعير كلامك أي اهتمامٍ، فهو يدور حول الغريزة والمثير والاستجابة، بينما الإنسان ليس كذلك!

فالإنسان أتى بمقدمةٍ سماويةٍ ولحياته معنًى ولوجوده قيمةٌ وغايةٌ، وأكبر دليل على ذلك أن الملحد ذاته يعترف بمعنى الحياة، وبالتالي هو ينتقد داعش!

مشكلة الملحد أنه ملحد حين يعرض إلحاده لتشكيك الناس في الحق والخير والدين، ومؤمن بالله وبالقيمة وبمعنى الوجود وبالغاية، وبمطلقية الأخلاق حين ينتقد الدين!

ولو دقّق الإنسان في أية شبهةٍ يعرضها الملحد فسيتبين له أنها تحمل عوامل تهاويها ذاتيًا!

ولا يوجد مذهب أسخف من مذهب يسقط لمجرد عرض شبهة لدى المذهب المخالف.

فالإلحاد لا يصلح لتحليل ظاهرة الوجود الإنساني ولا يصلح لتحليل معنى الحياة ولا استيعاب القيمة ولا تقرير الغاية لذا هو أسخف من أن يبيت عند إنسانٍ ولو ليلةً واحدة.

ولو كان للإلحاد معنًى، فلن يكون لنقد الدين قيمة، ولن يستوعب الملحد النقد أصلاً.

فإما أن للحياة معنًى مستقل عن الإطار المادي اللاغائي، وإما لا يحق للملحد أن ينتقد من يقرر تغيير بعض الذرات في إطارٍ مادي، والتي يسميها البعض «سلب حياة»، ولا يحق له أن ينتقد إبادة أهل الأرض جميعًا، فالإبادة ليست خطأً ماديًا حتى ينتقدها!

فالإنسان من حيث هو إنسان ليس أكثر من نسق مادي يخضع لقوانين الطبيعة وحتمياتها، مجرد نفاية نجمية!

وبالتالي فمِن أين للملحد أن يمنع التعرض للإنسان بأذًى؟

فالذي لا يؤمن بالدين لا يكون في المركز، وإنما هو مجرد شيء من بين الأشياء!

ولذا فالقرآن الكريم يطرح هذه المسالة ويبين أنه لا شرف للإنسان من حيث هو إنسان! وإنما شرفه وقيمته لا يستمدها إلا من كونه عبدًا لله!

فشرف الإنسان لا يكون إلا من خلال عبوديته لله سبحانه!

﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾﴾ [الأحزاب: 72].

فالإنسان هو المركز والطبيعة هي الهامش.

ويبتعد الإنسان عن سموه في هذا العالم بقدر ابتعاده عن الله ﴿نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ [الحشر: 19].

لكن لنبتعد قليلاً عن النسق الإلحادي الحائر، ونحلل ما تقوم به داعش من منظور إسلامي:

1- هل يجوز قتل الشيعة؟

من البديهيات التي يعرفها كل مسلم أنه لا يوجد نص واحد في كتاب الله عز وجل أو سنة رسوله ﷺ يأمر بقتل الشيعي!

والخلاف بيننا وبين الشيعة في الأصل هو اختلاف في حب بعض الأشخاص ممن صحِب النبي ﷺ، هذا هو بداية الخلاف ونهايته كما يقرر المفكر الإسلامي الشيعي الشهير علي شريعتي، فالتشيع العلوي لا فرق بينه وبين أهل السنة في شيء، فالشيعة هم محبو عليٍّ وأبي بكر وعمر، والسنة هم محبو أبي بكر وعمر وعلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أجمعين.

والإمامة في التشيع العلوي الصحيح عبارة عن الاعتقاد بنظام ثوري قادر على بناء مجتمع ينهض بواجبات نظام مؤهل لنهضة الأمة، ومجتمع يحمل رسالة سامية.

لكن التشيع الصفوي الفاسد -الذي تقوده إيران حاليًا- ينظر إلى الاعتقاد بالأئمة من زاويةٍ أخرى يكون فيها الاعتقاد بهم ليس سوى اعتقاد بـ (12) شخصية من جنس ما وراء الطبيعة، واثني عشر رقمًا مقدسًا يجب علينا أن نحب أصحابها ونثني عليهم ونتقرب إليهم.

وهذا ينطبق على جميع عقائد التشيع الصفوي الفاسد - كالبداء والرجعة

والعصمة والخمس والتقية والمتعة وغيرها- مقارنةً بالتشيع العلوي الصحيح الذي يدين به أهل السنة جميعًا.

والتشيع الصفوي السياسي هو مشكلة إيران اليوم، وهو سبب هرطقات كهنة الحوزات وسبب مخالفات الحسينيات العقائدية، وسبب الفتن التي لا تتوقف.

لكن هل هذا أيضًا يُجيز قتل الشيعي؟

عوام الشيعة مسلمون لهم ما لنا وعليهم ما علينا، والبدع الكفرية أغلب الشيعة لا يمارسونها ولا يُسلِّمون بها ولا بهرطقات حوزاتهم.

لكن قد يقول قائل: بعض الشيعة الآن مجرمون، ويستبيحون دماء أهل السنة فما العمل؟

الشيعي الذي يقتل سُنِّيًا يُقتص منه هو فقط، بالضبط كالسني الذي يقتل شيعيًّا، أما أنهار الدم التي تجري والفتن التي لا تتوقف فلا يؤججها إلا كهنة الحوزات ومراجع الخمس وملالي المخالفات العقائدية، وأمثال هؤلاء عبء سياسي وليسوا عبئًا دينيًّا.

ولم تظهر ميليشات الشيعة الإجرامية كحركة أمل في لبنان وجيش المهدي في العراق إلا من رحم حوزات لا تمت بصلة إلى العقيدة السلفية الصحيحة لآل البيت عليهم الرضوان.

الخلاصة: حرمة دم المسلم السني مثل حرمة دم المسلم الشيعي، والشيعي الإرهابي المجرم الذي يقتل سُنِّيًا يُقتص منه لكونه قاتل وليس لكونه شيعيًّا!

كالحال بالضبط مع السني الذي يقتل شيعيًّا!

وكلاهما تشمله الآية ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُ

جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾ ﴾ [النساء: 93].

فالإسلام صريحٌ في أن قتل نفسٍ واحدةٍ -أيًّا كانت- هو جريمة ضد الإنسانية ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: 32].

بينما محاكم العدل الدولية لم تصل إلى هذه الصياغة حتى اليوم، فحتى تصبح الواقعة جريمة ضد الإنسانية لابد أن يصل عدد القتلى إلى ما لا يُحصى!

2- هل يجوز قتل نصارى العراق والشام ومصر؟

لا يوجد نص واحد في كتاب الله أو سنة رسوله ﷺ يأمر بقتل الذمي -نصارى العراق والشام ومصر- ولا حتى مجرد إيذائه!

فالإسلام صريحٌ في أن مجرد التعرض بالإيذاء للمعاهَد أو الذمي الكافر، جريمة كبرى!

عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «من قتل معاهداً لم يرح رائحة الجنة، وإن ريحها يوجد من مسيرة أربعين عامًا»[1].

3- هل يجوز تهجير الذميين -نصارى الموصل-؟

الأثنيات والفرق الدينية في الشرق الأوسط هي هبة الإسلام!

ولولا الإسلام لانقرضت الأرثوذكسية مثلاً للأبد، فكيف نقول بتهجير أصحاب البلاد الأصليين؟

(1) أخرجه البخاري.

هل تعلم أن:

الكنائس الأرثوذكسية تحولت قبل دخول الإسلام مصر إلى مزابل على يد الرومان؟!! وكان الكهنة والقساوسة هائمين على وجوههم في الصحراء؟!

وكانت الأرثوذكسية معرضة للانقراض، وما أن جاء الإسلام إلا وأعاد القساوسة إلى كنائسهم وأتاح لهم حرية ممارسة عقائدهم.

ومن العجيب أن الأنبا بنيامين بابا الكنيسة الأرثوذكسية وبطريرك الكرازة المرقسية، قبل دخول الإسلام مصر مباشرة كان هارباً في الصحراء طيلة 13عاماً بعد أن ذبحوا أخاه أمام عينيه!

وفي كتاب «السنكسار» الجامع لأخبار القديسين المُستعمل في كنائس الكرازة المرقسية يقول تحت عنوان «نياحة البابا بنيامين الأول الـ38 (8 طوبة) ما يلي: «إن الأنبا بنيامين كان هاربًا في الصحراء طيلة 13عاماً، وكان قبل هروبه قد كتب منشوراً إلى سائر الأساقفة ورؤساء الأديرة بأن يختفوا، وحدث بعد هروب الأب البطريرك من الكنيسة أن وصل إليها المقوقس الخلقدوني متقلداً زمام الولاية والبطريركية علي الديار المصرية من قِبَل هِرَقْل الملك فوضع يده علي الكنائس، واضطهد المؤمنين وقبض على مينا أخو الأنبا بنيامين وعذبه كثيراً وأحرق جنبيه ثم أماته غرقاً، وبعد قليل وصل عمرو بن العاص إلى أرض مصر وغزا البلاد وأقام بها ثلاث سنين، وإذ علم عمرو بن العاص باختفاء البابا بنيامين أرسل كتاباً إلى سائر البلاد المصرية يقول فيه: الموضع الذي فيه بنيامين بطريرك النصارى القبط له العهد والأمان والسلام، فليحضر آمناً مطمئناً ليدير شعبه وكنائسه. فحضر الأنبا بنيامين بعد أن قضي ثلاثة عشرة (!) سنة هاربًا، وأكرمه عمرو بن العاص إكرامًا زائدًا، وأمر أن يتسلم كنائسه وأملاكها»[1].

---

(1) المصدر:- كتاب السنكسار، الجزء الأول ص249 طبعة مكتبة المحبة.

فبعد دخول الإسـلام إلى مصر اتجه المصريون إلى إصلاح شئون كنائسهم بعدما اختلّ نظامها وتفرّق شملها، وعاد القساوسة إلى كنائسهم وعُمِّرَت الأديرة!

والآن: وفي ظل الإسلام صار أقباط مصر أسعد الأقليات في العالم، وأصبح منهم رئيس وزراء العالم (بطرس غالي)، وأثرى أثرياء العالم (عائلة ساويرس)، وهذه الحقوق التي حصلوا عليها إنما هي من مواريث الإسلام، أهناك أقلية مسلمة تعيش في ظل الكيان الصهيوني أو الصليبي تجد هذه المعاملة؟

بل من عجيب ما يُذكر أن الغرب إلى اليوم ينظر للأرثوذكسية كطائفة شرقية لا علاقة لها بالعالم المسيحي الغربي. يقول صامويل هنتنجتون: «حدود أوربا تنتهي جغرافيا حيث تنتهي المسيحية الغربية ويبدأ الإسلام والأرثوذكسية هذه هي الإجابة التي يؤيدها جميع الأوربيين همسًا، وما زالت تركيا المسلمة وقبرص الأرثوذكسية دولتين غير مرغوب فيهما في الاتحاد الأوروبي، حتى اليونان الأرثوذكسية التي نجحت بصعوبة في الانضمام للاتحاد الاوربي اعتبر أعضاء الاتحاد الأوربي عام 1994 أن عضويتها في الاتحاد غلطة»[1].

فقد تحول الشرق الأوسط إلى متحف ضخم وهائل يضم بداخله آلاف الأثنيـات والأعراق بفضل سماحة الإسلام الذي حكم فيه.

بل ولا توجد تعددية شرعية إلا في الدولة الإسلامية، فهي وحدها التي تُجيز لأصحاب النِّحَل المختلفة أن يُطبقوا شرائعهم فيما بينهم، بينما المسلم الفرنسي والأرثوذكسي الفرنسي مُلزمان بالدستور المدني العلماني الفرنسي، ولا يحق لهما تطبيق شريعتيهما حتى في الأحوال الشخصية.

---

(1) المصدر: صدام الحضارات إعادة صنع النظام العالمي، صامويل هنتنجتون، ترجمة: طلعت الشايب الطبعة الثانية 1999 ص258.

4- هل يجوز التمثيل بالجثث في القصاص؟

الإسلام ينهى صراحةً عن التعرض للجثث بالتمثيل حتى ولو كان قتل قِصاص!

وجاء النهي عن التمثيل بالجثث بالحرف في صحيح مسلم، بل وفي الحديث الصحيح الذي رواه أحمد وابن ماجة على شرط مسلم: «كسر عظم الميت ككسره حيًّا».

وهذا فيه حض شديد على عدم التعرض للميت.

5- هل يجوز سبي النساء لمجرد كفرهن -اليزيديات-؟

هذا كلام لا يقوله مسلم ولم يرد ولو بسند موضوع أو مكذوب في أي كتابٍ إسلامي على الإطلاق، وإلا فهل أخذ عمرو بن العاص نساء مصر سبايا بعد فتح مصر؟

السبي ينحصر في أرض المعركة وساحة القتال، فالكافر المقاتل يُقتل، والكافرة المقاتلة تُسبى حتى يتم فدائها بأسيرات المسلمين أو العفو عنها وإعادتها للعدو ﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ [محمد: 4].

ولو تم وضع قانون بحرمة سبي النساء -كما هو حاصل الآن-، فهنا لا يجوز للمسلم مخالفة القوانين والمواثيق والعهود التي قطعها على نفسه، إلا لو بدأ العدو الغاشم في المخالفة!

وعليه تُحترم كل العهود والمواثيق التى تمنع السبى فى الحروب الآن، وكذلك عندنا أصل منضبط بالشرع فلو عاملنا أعداؤنا بشيءٍ غير جائز فى شرعنا لا نرد عليهم به، كالتمثيل مثلًا. والله أعلم!

وفي النهاية يبقى السؤال: هل يوجد عالم واحد من علماء المسلمين أو هيئة كبار العلماء أو من أية مؤسسة دينية إسلامية بايع خليفة داعش؟

وعلى الملحد ألا يتمحك في داعش ولا غيرها، وإلا فهو طبقًا لإلحاده يجوز له إبادة البشر جميعًا بحجة البقاء للأصلح Survival for the Fittest.

ويجوز له نسف جميع المرضى والمعاقين والعجزة وكل مَن يقف في وجه حتمية الانتخاب الطبيعي Natural Selection.

والذي يستبعد هذه الأمور عن الإلحاد، لا يفهم شيء عن ماهية الإلحاد ولا فلسفته!

ولذا لم تكن إبادة الملايين في أرخبيل الكولاج The Gulag Archipelago على يد الملحد لينين والملحد ستالين، إلا من خلال مبرّر إلحادي مادي.

وليست إبادة 25 % من سكان كمبوديا إلا بمبرر إلحادي على يد الملحد بول بوت pol pot.

وليست إقامة الحرب العالمية الثانية كلها إلا بمبرر قومي مادي عِرقي ألماني على يد أدولف هتلر.

وليست الثورة الثقافية في الصين التي راح ضحيتها عشرات الملايين إلا بمبرر إلحادي ماوي Mao Zedong.

فالحرب في الإلحاد غاية في ذاتها، والمكاسب المادية وتفريغ القارات من البشر، وتطهير الأعراق ليست كلها إلا إفرازات داروينية مادية، ورؤى عِرقية طبيعية.

يقول ريتشارد فيكارت Richard Weikart: «لقد نجح الإلحاد في قلب ميزان الأخلاق رأسًا على عقب، ووفر الأساس العلمي لكل المجرمين والقتلة، لإقناع أنفسهم ومن تعاون معهم، بأن أبشع الجرائم العالمية، كانت بالحقيقة فضيلة أخلاقية مشكورة»[1].

(1) Richard Weikart, from Darwin to Hitler, p.215.

وطبقًا للإلحاد يجب إيداع كل الأجناس البشرية باستثناء الجنس الأرقى داخل أقفاص الحيوانات بحجة أنها حلقات تطورية مفقودة، وتم تطبيق هذا عمليًا:

ففي عام 1889 عَرضت حديقة الحيوان العالمية في باريس وحدها 400 شخص من السكان الأصليين.

بل ومن العجيب أن حديقة حيوان كولومبيا عام 1893 كانت تضم مصريين رسميًّا إلى جانب بعض الشباب النوبيين.

-ربما لا يصدق الملحدين المصريين أن أجدادهم رسميًّا كانوا داخل أقفاص منذ أقل من قرن وربع ياسم الإلحاد-.

وأُنشئت في مدينة سانت لويس St. Louis بأمريكا حديقة حيوان تعرض الكثير من الفلبينيين فيما كان يُسمى بموكب التقدم الداروينى التطوري parade of evolutionary progress.

وكان الأقزام من غينيا الجديدة يُعرضون في قسم الثدييات الرئيسية في حديقة حيوان برونكس.

The Primate section of the Bronx Zoo.

وأشهر المنتحرين من هؤلاء الذين دخلوا أقفاص حيوانات البشر ودمّرهم الإلحاد كان أوتا بينجا Ota Benga.[1].

لقد حرّر الإلحاد أتباعه من أية أعباء أخلاقية في تعاطيهم مع بقية البشر.

وداخل الالحاد أيضًا تم قياس حجم الجمجمة Skull Measurement لتصفية الأعراق الأدنى داروينيًا وإبادتهم رسميًّا، وقامت الحروب العالمية بسبب هذه النظرة للإنسان والتنقية العرقية والبقاء للأصلح.

(1) http://www.rae.org/pdf/dsod_apb.pdf.

وظهرت رابطة الملحدين العسكرية League of Militant Atheists التي قتلت مئات الآلاف من المتدينين عبر أوروبا[1].

لقد أباد الإلحاد في قرنٍ واحد عشرات الملايين من البشر لكن الأهم من ذلك أنه أباد كل أمل للإنسان في أن يكون إنسانًا.

وطبقًا للإلحاد المرأة تندرج تحت تصنيف Homo parietalis بينما الرجل تحت تصنيف Homo frontalis[2].

ويتحدث الملحدون باستمرار عن وجود فرق جوهري في حجم المخ لصالح الرجل بمقدار 12 - 19 %، وأن فحجم المخ الخاص بالمرأة يكاد يطابق ذلك الخاص بالغوريلا[3].

بل إن المرأة في أدبيات الإلحاد وبسبب طفولية المخ الخاص بها تعتبر خطرًا حقيقيًا على الحضارة المعاصرة. A real danger to contemporary civilization[4].

والمرأة طبقًا لداروين لا تصلح إلا لمهام المنزل، وإضفاء البهجة على البيت، فالمرأة في البيت أفضل من الكلب[5].

---

(1) http://en.wikipedia.org/wiki/League_of_Militant_Atheists.

(2) http://www.rae.org/pdf/dsod_apb.pdf.
Love, R., Darwinism and feminism: "The 'women question' in The Life and Work of Olive Schreinr and Charlotte Perkins Gilman," in Oldroyd and Langham, Eds., The Wider Domain of Evolutionary Thought, D:Reidel, Holland, pp. 113-131, 1983

(3) Gould, The Mismeasure of Man, p.105.

(4) Gilmore, D., Misogyny: The Male Malady, University of Pennsylvania Press, Philadelphia, p. 125, 2001.

(5) an object to be beloved and played with, better than a dog anyhow.
Charles Darwin, The Autobiography of Charles Darwin 1809-1882, New York pp. 232-233.

فالملحد الذي يتمحك في داعش أو غيرها، ليس بملحد ولا يعرف شيئًا عن إلحاده.

ملحوظة أخيرة وهامة: بعض المسلمين قد يقرر أن داعش مظلومة في كل ما نُسب إليها، وهذا لا علاقة له بالموضوع، فنحن نتحدث عن مسائل راجت إعلاميًّا بشدة لا أكثر، والعهدة على الراوي!

فنقدنا يتوجه إلى ما يُروجه الإعلام عن داعش، وليس لداعش في حقيقتها فنحن لا نجزم بصحة ما ينسبه الإعلام لها!

فنحن هنا فقط نقوم بالتفصيل والرد بناءًا على ما استقر في ذهن الملحد من هذا الإعلام.

ونحن نعترف بوجود تشويه إعلامي جبار، والمسلم الفطن يستشعر تركيز لفظة الإرهاب وحصرها على أهل السنة بينما في غير أهل السنة من الإرهابيين ما يملأ المحيطات، وبينما تقصف الطائرات بدون طيار أنصار الشريعة في اليمن لا تتعرض لإرهاب الحوثيين ولو بكلمة!

وبينما تقاتل التنظيمات الدولية داعش لا تقرب من بشار الأسد الذي أباد نصف شعبه ويسعى لتهجير النصف الآخر!

ولا تجد في جوانتانامو سوى أهل سنة ولن تجد شيعيًّا واحدًا بها، وكأن أمريكا تقول لك: اقتل من تشاء المهم ألا تكون سُنيًّا وإلا شوّهنا صورتك في كل مكان، وحصرنا لفظة الإرهاب بك، وستكون طائراتنا بانتظارك!

لكن ماذا عن ظهور الجماعات التكفيرية وهل هم حجة على الإسلام؟

أنا أرى أن ظهور الجماعات التكفيرية من أدلة صحة الإسلام!

لأن النبي ﷺ أخبر بظهور التكفيريين بكثرة في آخر الزمان، فقال ﷺ:

«يَأْتِي فِي آخِرِ الزَّمَانِ قَوْمٌ حُدَثَاءُ الْأَسْنَانِ سُفَهَاءُ الْأَحْلَامِ، يَقُولُونَ مِنْ خَيْرِ قَوْلِ الْبَرِيَّةِ، يَمْرُقُونَ مِنْ الْإِسْلَامِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنْ الرَّمِيَّةِ، لَا يُجَاوِزُ إِيمَانُهُمْ حَنَاجِرَهُمْ، فَأَيْنَمَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاقْتُلُوهُمْ، فَإِنَّ قَتْلَهُمْ أَجْرٌ لِمَنْ قَتَلَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»[1].

وفي الحديث الآخر الذي رواه أبو أمامة بشأنهم: «شر قتلى تحت أديم السماء، خير قتيلٍ من قتلوه».

بل ومن كمال حرصه على أمته ﷺ أنه حذّرنا من الاغترار بصلاتهم وصيامهم فقال: «يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم، وقراءته مع قراءتهم، وصيامه مع صيامهم، يقرءون القرآن لا يجاوز حناجرهم، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية، أينما لقيتموهم فاقتلوهم ».

فظهور الجماعات التكفيرية من علامات آخر الزمان!

والناظر إلى حال أمة الإسلام منذ سقوط الخلافة، يرى أنه لم تظهر جماعة إسلامية سلفية إصلاحية تسعى نحو تطبيق دين رب العالمين إلا ظهرت بالتوازي جماعة تكفيرية تفسد ثمار ما أنتجته تلك الجماعة، فلله الأمر من قبل ومن بعد!

بقي أن نقول: لو كانت داعش مظلومة وكانت الصور مفبركة والخديعة كبرى لتخريب البلاد العربية وتفتيتها، فساعتها نسأل الله أن يرفع عنها الظلم والبلاء، وأن ينتقم ممن يشوه صورتها ويسعى لتمزيق المسلمين!

ولو كانت كما يصورها الإعلام من بطشٍ وتكفيرٍ لعوام المسلمين وجبروتٍ وظلم، فساعتها هي علامة على اقتراب آخر الزمان وهي آية ودليل

(1) رواه البخاري 6930، ومسلم 1771.

على صحة ما أخبر به النبي ﷺ من ظهور أمثال هذه الجماعات التكفيرية، ويجب عندها أن يتفطن المسلم لعقيدته الصحيحة وأن يلزم غرزه وأن يُصلح أمره، ويتجنب المعاصي، حتى لا يقع في شباك أهل الفتن والضلال ويغتر بصلاتهم وبصيامهم فيقاتل تحت رايةٍ عمية فيموت ميتةً جاهلية.

نسأل الله السلامة والعافية!

المسلم ينقل حجج الغربيين وأدلتهم!

حين تحاور أحد الملحدين العرب وحين ترهقه بحججك العقلية والفطرية والمنطقية والعلمية فإنك على موعد مع هذه الردود الجاهزة والمعلبة مسبقًا:

أنتم تنقلون كلام الخلقيين الإنجيليين.

هذا العالِم خلقي إنجيلي!

العبارات السابقة سيقوم الملحد العربي بتصديرها لك حين تقدم له أيّة ورقة علمية أو دليل عقلي أو حجة منطقية تُسقط إلحاده.

وهذه العبارات المستهلكة والتي تحوي جملة مغالطات منطقية، يضطر الملحد لاستخدامها حين يتعثر في حجة علمية لا يجد لها ردًّا.

وأحد المغالطات المنطقية في العبارات السابقة هي:

مغالطة تجاهُل المطلوب Irrelevant Conclusion: فالمطلوب هو رد البرهنة العلمية أو نقد الحجة العقلية، لكن ما يفعله الملحد العربي أنه يتقافز على هذا المطلوب ويتجاهله بحجة أن هذا كلام خلقيين إنجيليين، ثم يظن أنه بذلك قد قام بتقديم ردٍّ كافٍ.

أيضًا هذه العبارات تحتوي على مغالطة منطقية تسمى مغالطة تسميم البئر Poisoning The Well: ومغالطة تسميم البئر تعني أن الطرف الضعيف سيقوم بشخصنة صاحب الحجة قبل حتى أن يطلع على حجته، مثال: لا تُصدِّق ما سيقوله لك الخلقيون الغربيون، إنهم أوغاد.

وما إلى ذلك من جملة المغالطات المنطقية التي تدل أن الملحد العربي مشحون مسبقًا بجملة من التصورات والإسقاطات الوهمية التي تبرر له المستحيلات العقلية التي يقبع داخلها إلحاده، ويجعل من هذه التصورات حائط صد أمام كل ما يتعرض لإلحاده بسوء.

لكن في البداية من هم الخلقيون الغربيون؟

الخلقيون: هم الذين يؤمنون بالخالق، وأغلب المنظرين لذلك في الغرب هم من الطائفة الإنجيلية المسيحية.

وما لا يعرفه الملحد العربي، أو بمعنى أكثر اتساعًا ما يحاول أن يتجاهله الملحد العربي هو أن:

أولاً: ليس كل مَن يستهزئ بالإلحاد في الغرب هو خلقي أو إنجيلي، وليس كل من يستهزئ بالتطور مثلاً مؤمن حتى بالله، فعندما يعترف مثلاً الملحد الفكلي الشهير فريد هويل Fred Hoyle أن رصده لهذا العالم يجعل إلحاده يهتز بشدة «greatly shaken» كما يقول في كتابه «تطور من الفضاء» Evolution from Space، وأن افتراض العشوائية هو افتراض مجنون وهراء فارغ is evidently nonsense of a high order، فنحن هنا لسنا أمام تحيزات اعتقادية، وإنما اعتراف رسمي بقوة الحجة الدينية!

وعندما يتحول الملحد البغيض obnoxious atheist كما يصف نفسه فرانسيس كولينز Francis Sellers Collins عالم الجينات الأمريكي الأشهر،

ومدير مشروع الجينوم البشري Human Genome Project، عندما يتحول إلى الإيمان بالله من واقع دراسته لخريطة الجينوم البشري، فنحن أمام علم يدفع نحو الإيمان ورفض الإلحاد!

ثانيًا: أسلوب الملحد حين يحدثك عن الخلقيين الغربيين يعطيك شعورًا وكأن الملحدين هم المسيطرون على الساحة في الغرب، وأن الخلقيين هؤلاء حثالة المجتمعات الغربية لكن في واقع الأمر، فإن الملحدين هم الحثالة وهم الفئة الأكثر احتقارًا في الغرب على الإطلاق!

وقد نشرت المجلة العلمية العملاقة Scientific American بحثًا يشي عنوانه بالأمر In Atheists We Distrust «نحن لا نثق في الملحدين»، وبينت المجلة أن أغلب الشعب الأمريكي لا يطيق الملحدين ولا يقبل أن يكونوا حتى معلمين لأبنائهم![1].

وطبقًا للواشنطون بوست فالملحد هو أكثر شخصية مكروهة على الإطلاق في أمريكا[2].

وبحسب بحث جامعة مانيسوتا فالمسلم المتطرف والشاذ جنسيًّا أقرب للأمريكي من الملحد[3].

وفي البرازيل يُعامل الملحد بنفس درجة مدمني المخدرات، ويصنف طبقًا للصحافة الرسمية البرازيلية كأحقر أقلية[4].

(1) http://www.scientificamerican.com/article /in -atheists- we -distrust/
(2) http://www.washingtonpost.com/opinions/why-do-americans-still-dislike-atheists/2011/02/18/AFqgnwGF_story_1.html.
(3) http://newsjunkiepost.com/2009/09/19/research-finds-that- atheists-are-most-hated-and-distrusted-minority/.
(4) http://www.paulopes.com.br/2009/05/ateus-e-usuarios-de-.drogas-sao-os-mais.html#.VCNTNBYZQQs

وفي أيرلندا يُحرم الملحد من التدريس في المدارس الحكومية[1].

فما يفعله الملحد العربي هو عار وكذب وافتراء على البشر، حين يزعم أن للملحدين قيمة في الغرب.

وفي اليونان يتم رسميًّا اعتقال أي ملحد ومحاكمته[2].

بل إن أحد أسس دستور الولايات الأمريكية ألا يتولى الملحد أي منصبٍ على الإطلاق؛ لأن الذي ينكر وجود الله لا قيمة لعهده ولا ضمان لأمانته، فالملحد يتفكك عنده كل شيء!

مثلاً: طبقًا لدستور ولاية أركنساس الفصل التاسع عشر المادة الأولى: «لا يحق لأي ملحد تولي أي منصب إداري في الولاية، ولا يكون أهلاً للشهادة في المحكمة».

Arkansas State Constitution, Article 19 Section 1 Miscellaneous Provisions

No person who denies the being of a God shall hold any office in the civil departments of this State, nor be competent to testify as a witness in any court.

ودستور ولاية نورث كارولينا ينص في الفصل السادس المادة الثامنة أن الملحد فاقد للأهلية!

North Carolina's State Constitution, Article 6 Section 8

«Disqualifications of office. The following persons shall be disqualified for office: First, any person who shall deny the being of Almighty God.»

---

(1) http://www.irishtimes.com/premium/loginpage?destination=h. ttp://www.irishtimes.com/debate/why-must-agnostics-be-obliged-to-teach-faith-1.616580.

(2) http://en.wikipedia.org/wiki/Elder_Pastitsios.

ويرى دستور ولاية بنسلفانيا في الفصل الأول مادة أربعة أن الملحد ليس أهلاً للثقة، وعليه فلا يحق له إنشاء أية مؤسسة ربحية.

Pennsylvania's State Constitution, Article 1 Section 4

«No person who acknowledges the being of a God and a future state of rewards and punishments shall, on account of his religious sentiments, be disqualified to hold any office or place of trust or profit under this Commonwealth.»

وهو نفس ما ينص عليه دستور ولاية ساوث كارولينا الفصل السادس المادة الثانية، وولاية تينيسي الفصل التاسع الفقرة الثانية.

ويقرر دستور ولاية تكساس الفصل الأول الفقرة الرابعة أن الإيمان بالله شرط بديهي للثقة وتولي منصب إداري.

أضف إلى ما سبق: فإن الملحد محرومٌ رسميًّا في الغرب من حضانة الطفل، ومن الالتحاق بفرق الكشافة، وحتى في وسائل الإعلام من النادر ظهور شخصية الملحد إلا في إطار المختل عقليًّا أو الشاذ جنسيًّا.

ثالثًا: انتماء المسيحي أو اليهودي أو المسلم أو البوذي للمؤسسات العلمية لا يبطلها ولا يبطل نتائجها، بل إن الذي يؤدي إلى تأخر العلم وتشويهه هو الإلحاد.

فالإلحاد يُعيق البحث العلمي وأقرب مثال على ذلك أننا عندما اكتشاف الدنا الخردةJunk DNA كان الكشف يتوافق مع الرؤية الإلحادية للوجود، فسيظل الدنا الخردة بالفعل خردة بلا وظيفة مدى الحياة؛ لأن العشوائية شيء متوقع. بينما الخلقيون لن يتوقفوا حتى يعرفوا مغزى الدنا الخردة؛ لأن الله لم يخلق شيء عبثًا، وبالفعل انتصرت الأبحاث العلمية مؤخرًا لصالح أصحاب التصور الثاني وتبين أنه لا حياة للإنسان بدون الدنا الخردة إذ أنه

المسئول مباشرةً عن توجيه عمل الجينات، بل ظهر مؤخرًا علم جديد مستقل يتخصص في وظائف الدنا الخردة junk DNA يسمى علم التحكم في الجينات Epigenetics، وهذا دليل مباشر على أن الدين يدفع نحو العلم والبحث، بينما الإلحاد يدفع نحو إعاقة البحث العلمي.

رابعًا: لم يكن شيء أخطر على العلم من الملحدين، فالملحد ماو تسي تونج كان يفخر دومًا أنه قاتل العلماء، وقد قال يومًا في اجتماع لكوادر الحزب عام 1958: «لقد تفوقنا على تشين شي هوانغ Qin Shi Huang -امبراطور صيني قديم اشتهر بدفن العلماء أحياء- في محاربته للعلماء والمثقفين، لقد دفن تشين شي هوانغ 460 عالم وهم أحياء، أما أنا فقد دفنت 46 ألف عالم وهم أحياء، إنكم أيها المثقفون تنسبوني باستمرار إلى تشين شي هوانغ، إنكم مخطئون!

لقد تفوقت على تشين شي هوانغ بمائة ضعف».

During a speech to party cadre in 1958, Mao said he had far outdone Qin Shi Huang in his policy against intellectuals: "He buried 460 scholars alive; we have buried forty-six thousand scholars alive ... You [intellectuals] revile us for being Qin Shi Huangs. You are wrong. We have surpassed Qin Shi Huang a hundredfold(1).

ولم يكن ماو تسي تونج بدعًا من الملحدين في جريمته هذه، فقد كان ستالين يحارب علوم مندل الوراثية Mendelian genetics وقتل الكثير من العلماء، ومن أشهرهم رائد علم الوراثة الحديثة نيقولاي فافيلوف Nikolai Vavilov، وفي كمبوديا كان الملحد بول بوت Pol Pot يقتل أي شخص يرتدي نظارة خشية أن يكون مثقفًا!

(1) Mao Zedong sixiang wan sui! (1969), p. 195. Referenced in Governing China: From Revolution to Reform (Second Edition) by Kenneth Lieberthal. W.W. Norton & Co., 2003. p. 71.

«People who they perceived as intellectuals or even those who had stereotypical signs of learning, such as glasses, would also be killed.[1]»

فالإلحاد كان وسيظل عبئًا على العلم والعلماء والمثقفين.

خامسًا: في الواقع فإن حجج الخلقيين الكلامية هي ميراث إسلامي صرف في أدلتها ومقدماتها العقلية وتأصيلاتها المنطقية، وحتى في اسمها ما زالت تحتفظ بالإسم العربي إلى اليوم Kalām cosmological argument[2].

أما حجج الخلقيين العلمية فهي ميراث عالمي لا يحق لأحد أن يحرم منه البشر بدعوى أنهم خلقيون كما يفعل الملحد العربي.

مشكلة الملحد العربي أنه يعاني من سلسلة فوبيات -مخاوف- متنوعة وسلسلة كوارث عقلية تسقط إلحاده فلا يستطيع أن يواجه إلا بالتسفيه والتحقير لثقافات بأكملها حتى يعيش في أمانٍ مع إلحاده الدوغمائي.

لكن الأليق منطقيًّا ألا يحرمنا من العلم بحجة أن مؤسسيه خلقيون غربيون، إذا رضي هو لنفسه هذه النتيجة فلا يُعممها.

وصراحةً فالملحد كذّاب في دعواه هذه فهو يكرز -يبشر- بإلحاده مستخدمًا مخترعات هؤلاء الخلقيين الإنجيليين الغربيين، فأغلب المخترعين من الإنجيليين!

سادسًا: وهو الأهم! فإن نسبة العلماء الملحدين تعد نسبة حقيرة جدًّا مقارنةً بمجموع العلماء ككل.

---

(1) http://en.wikipedia.org/wiki/Khmer_Rouge#Life_under_the_Khmer_Rouge.

(2) http://en.wikipedia.org/wiki/Kal%C4%81m_cosmological_ argument.

ففي كتاب 100 سنة من جوائز نوبل -من 1901 إلى 2000- يبين الكاتب Baruch A. Shalev أن نسبة الملحدين إلى جانب اللاأدريين إلى جانب غير المتدينين لا تتجاوز 10.5 %

Atheists, agnostics, and free thinkers comprise 10.5% of total Nobel Prize winners.

أي أننا لو فصلنا الملحدين عن مجموعة غير المتدينين واللاأدرية فالنسبة لن تتجاوز 3 %[1].

وفي نفس المصدر فإن نسبة العلماء الحائزين على جائزة نوبل من الخلقيين هي 65.4 %

الآن الملحد العربي يحتقر الـ65.4 % من العلماء لصالح 3 % من العلماء، إذا لم تكن هذه قمة الدوغمائية والتطرف والتحيز في الأفكار لصالح الكهنوت الإلحادي فما هي الدوغمائية؟

وفي دراسة أخرى أجرتها جامعة شيكاغو نجد أن أغلب الأطباء يؤمنون بالله واليوم الآخر![2].

إذن تعاطي الملحد العربي مع الملف العلمي هو تعاطي أُحادي متحيز يُسقط كل العلوم ولا يقبل إلا الشريط الخانق الذي يقرره كهنته، هذا هو الإلحاد وهذه هي نتيجته المنطقية!

سابعًا: في مكتبة الكونجرس -المكتبة الأعظم في العالم-، نجد أن سقف الصالة الرئيسية نُقشت عليه 7 دوائر تشير إلى مصادر تقدم الحضارة الغربية،

---

(1) Source: 100 Years of Nobel Prize, Baruch A. Shalev, p.57.

(2) Doctors Say They're Spiritual.
http://www.cbsnews.com/news/doctors-say-theyre-spiritual

والإسلام هو الديانة الوحيدة المذكورة في الدوائر السبع وهو يختص بالعلوم الطبيعية ISLAM: PHYSICS بينما تختص بقية الدوائر بأسماء بلدان وبتقدم أدبي أو فني أو لغوي!.

GREECE: PHILOSOPHY

ROME: ADMINISTRATION

ISLAM: PHYSICS

THE MIDDLE AGES: MODERN LANGUAGES

ITALY: THE FINE ARTS

GERMANY: THE ART OF PAINTING

SPAIN: DISCOVERY

ENGLAND: LITERATURE[1].

ففي الأصل: الإسلام هو العلم!

بل إن واجهة كتاب Selenographia للفلكي يوهانس هيفيليوس Johannes Hevelius الذى ألفه عام 1647 قرر أن يضع على غلافه صورة الحسن بن الهيثم، والصورة تعد رمزًا لنهضة العلم التجريبى الحديث فى العصور الوسطى، واستخدام الطريقة العلمية التجريبية Scientific Method بشقيها العقلى الرياضياتى ratione الذى يمثله بن الهيثم (Alhasen) وهو ممسك برسم هندسى. والحسى الذى يمثله جاليليو جاليلى وهو ممسك بتليسكوب.

فعلى الملحد العربي أن يتوقف عن التهجم على البشر ومحاولة إبطال ما يحملون من علوم بحجة أنهم لا يتبعون نسقه الإلحادي!

(1) http://www.loc.gov/loc/walls/jeff1.html#mrr.

إشكالات معرفية

أطفال مشوهة:

يتساءل الملحد: لماذا تولد أطفال مُشوهة؟

الرد:

الحديث عن الشر-تشوه الأطفال- دليل على وجود الخير-الأطفال الأصحاء-، فلماذا أيها الملحد تتجاهل معضلة الخير -الأطفال الأصحاء- مع أنها الأغلب والأحكم والأعم والأشمل؟

ثم لو كان إلحادك صحيحًا لما استوعبت وجود أطفال مشوهين ولا معاقين؛ لأننا لو كنّا أبناء هذا العالم فلن يبدو فيه شر ولا خير، ولن تعرف معنى الخطأ ولا الخلل وهذا ما يقرره بالحرف، ريتشارد داوكينز Richard Dawkins-عـرّاب الملحدين في العالم- حين قال: «الكون في حقيقته بلا تصميم، بلا غاية، بلا شر ولا خير».

The universe we observe has precisely the properties we should expect if there is, at bottom no design, no purpose, no evil and no good[1].

فإذا كانت قسوة عمياء غير مبالية كما تقولون فكيف أنت تبالي بالخير أو بالشر؟

إن مبالاتك بالخير والشر وتساؤلك عن وجود أطفال مشوهين هو أكبر دليل على سخافة التصور الإلحادي للوجود!

(1) River out of Eden, p.131-132.

ثم إن وجود التشوه يُسقط الإلحاد رياضيًا لو كنت تعي!

فلو كانت قضية وجود الإنسان في هذا العالم محض صدفة وعبث وتطور، فلن ينشأ إنسان واحد معافًى بالصدفة، ولا كائن أقل تطورًا ولا ميكروب ولا حتى عضية خلية بل ولا إنزيم واحد!

فلو تحول الكون بأكمله إلى برميل من الأحماض الأمينية ومضى على هذا البرميل مليارات عمر الكون فلن يُنتج إنزيم واحد متخصص فضلاً عن آلاف الإنزيمات والبروتينات المتخصصة التي توجد في أدنى الكائنات الحية وأبسطها.

وهذا ما يعترف به الملحد العنيد فريد هويل Fred Hoyle حين يقرر أن فرصة الحصول على فقط مجموعة الإنزيمات لأبسط خلية حية تصل إلى 10 أس 40,000 مع أن عدد الذرات في الكون كله لا تتجاوز 10 أس80.

بل مجرد افتراض أن البرنامج المنظم للخلية الحية، يمكن أن يظهر بالمصادفة في الحساء البدئي لبيئة الأرض الأولى، من الواضح أنه نوع من الهراء على أعلى مستوى ممكن.

the chance of obtaining the required set of enzymes for even the simplest living cell without panspermia was one in 1040,000. Since the number of atoms in the known universe is infinitesimally tiny by comparison 1080[1].

وهذا نفس ما توصل إليه اللاديني فرانسيس كريك Crick Francis في كتابه: «الحياة نفسها نشأتها وطبيعتها Life Itself: Its Origin and Nature».

---

(1) Sir Fredrick Hoyle and Chandra Wickramasinghe, Evolution from Space (New York: Simon & Schuster, 1984), p. 148.

حيث قرّر كريك أن نشأة بروتين واحد وظيفي بسيط بالصدفة هو ضرب من الاستحالة يكاد يفوق 10 أس 260 مع أن عدد ذرات الكون ككل لا تتجاوز 10 أس 80، هذا في بروتين وظيفي بسيط. وأدنى الكائنات به آلاف البروتينات.

وفي النهاية يعترف فرانسيس كريك قائلًا: «كرجل منصف، ومُسلح بالعلم المتاح لنا الآن، أستطيع أن أُقرر بشيءٍ من المنطق، أن نشأة الحياة معجزة».

«If a particular amino acid sequence was selected by chance, how rare an event would this be?

«This is an easy exercise in combinatorials. Suppose the chain is about two hundred amino acids long; this is, if anything rather less than the average length of proteins of all types. Since we have just twenty possibilities at each place, the number of possibilities is twenty multiplied by itself some two hundred times. This is conveniently written 20200 and is approximately equal to 10260, that is, a one followed by 260 zeros.

"An honest man, armed with all the knowledge available to us now, could only state that in some sense, the origin of life appears at the moment to be almost a miracle, so many are the conditions which would have had to have been satisfied to get it going." p. 88

فإذا كنت أيها الملحد صادقًا مع نفسك في طرحك للشبهة، فودِّع إلحادك قبل طرحها!

وبعد أن تترك إلحادك دعني أُجيبك من منظور ديني عن سبب الشر والتشوه.

فالشر موجود لأنك في عالم اختباري تكليفي توجد فيه بعض الغوامض التي لا تستوعبها لكن تكِل علمها إلى الله وهذا هو التصرف الحكيم المُطالب به يقول الله تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ۖ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ ۗ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٧﴾ ﴾ [آل عمران: 7].

فأنت تجد المحكم -الأطفال الأصحاء- وهو الأصح والأشمل والأعم، وتجد المتشابه -المشوهين- في صورة بسيطة خاصة جدًّا، والمطلوب منك أن تكِل علم هذا المتشابه إلى الله لأن حكمتك ليست كُلية وربما يفتح الله عليك بالجهد العلمي المادي والجهد الإيماني الروحي وتتطلع على شيءٍ من الحكمة! ﴿ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٢٦٩﴾ ﴾ [البقرة: 269].

يقول ديكارت في كتابه التأملات: «ليس لدي أدنى سبب يجعلني أتذمر من أن الله لم يمنحني قدرة أعظم على الفهم، أو أنه لم يهبني نورًا طبيعيًّا أكثر مما وهب، فمن الطبيعي أن تظل هناك أشياء غير مفهومة بالنسبة لفهمٍ محدود، ومن الطبيعي أن يظل الفهم المخلوق محدودًا»[1].

ثم صدقني أيها الملحد! لا فرق بين الذي يموت في سن المائة بضيق الشرايين التاجية، والذي يولد مشوهاً. فالعبرة لا تقاس بمعامل واحد في مسألة متشابكة كالإنسان، فربما المشوه يجد الوقت ليتدبر ويرتقي، وابن المائة سنة يرتع في الملذات ويسقط في الدركات، لذا التبسيط واختزال المعاملات

(1) Descartes, R., Meditations and Other Metaohysical Writings, p.49.

في معامل واحد أسلوب غير مقبول منطقيًا وغير مقبول دينيًا، ولكنه الحجة الوحيدة للملحد وبدون هذا الأُسلوب لن تستقيم له شبهة.

ثم إن التشوه من منظور آخر هو أكبر دليل على وجود الكمال فلولا الكمـال لما تصورنـا التشوه، ولولا استقرار الكمال في الفِطر لما أدركنا معنى الخلل، وكل هذه مفاهيم لا تنتمي إلى هذا العالم المادي اللامعياري في شيء!

والتشوه في أصله كما نعرف جميعًا هو خلل طارئ في ترتيب بعض القواعد النيتروجينية -ربما قاعدة واحدة من أصل 3مليار قاعدة في نواة الخلية-، ويأتي هذا بسبب أخطاء الإنسان كتلوث البيئة ووسائل منع الحمل، والمواد الحافظة والعقاقير.

لكن في الحقيقة العدالة الإلهية كما يقول الأستاذ العقاد: «لا تحيط بها النظرة الواحدة إلى حالةٍ واحدة، ولا مناص من التعميم والإحاطة بحالاتٍ كثيرةٍ قبل استيعاب وجوه العدل فى تصريف الإرادة الإلهية. إن البقعة السوداء قد تكون فى الصورة كلها لونًا من ألوانها التى لا غنى عنها، أو التى تضيف إلى جمال الصورة ولا يتحقق لها جمال بغيرها، ونحن فى حياتنا القريبة قد نبكى لحادثٍ يعجبنا ثم نعود فنضحك أو نغتبط بما كسبناه منه بعد فواته».

ثم لو كان الله موجودًا فما المـانع أن تكون له حكمـة في تدبير الامور؟

بل أليس هذا هو الأليـق به سُبحـانه؟!!

فما أبعد أحكامه سبحانه وتعالى عن الفحص، وطُرقه عن الاستقصاء.

وقد جلّى الله الحِكمة من أفعال الخضر لسيدنا موسى مع أنها أفعال تُعد ظاهريًا مُنكرة وغير مستساغة، لكنها تكتنف على خيرٍ عظيم، وقصة موسى

والخضر لم تأت في القرآن من باب السرد والحكايا لكن من باب التدبر والإخبات والإقرار بقصور النفس البشرية وحكمها المُتعجل.

ولا يجوز لملحد أن يحتجَّ في باب الحِكمة الإلهية بشيء؛ لأن الملحد بداهةً ليس كُلي العلم، ولا يعرف ما في غدٍ حتى يُقرر ويعطي نظرة شمولية لمسألةٍ لم يستوعبها.

ذكر الأصبهاني: أن نبيًّا من أنبياء بني اسرائيل كان يجلس بالقرب من بئر ماء، فجاء فارس ليشرب، ثم وهو خارج من البئر سقطت حافظة نقوده ولم يلتفت إليها، فجاء راعي غنم يرِد الماء فوجد حافظة النقود فوضعها في جيبه، ثم جاء شيخٌ كبير ليشرب من البئر، ثم جلس على حافة البئر يلتقط أنفاسه فعاد الفارس باحثاً عن ماله فلم يجده، فاتهم فيه الشيخ الكبير فقتله.

فقال النبي: يارب ضُرِبت عنق الرجل ولم يأخذ المال، وإنما الذي أخذ المال الراعي. فَجَلِّ - فأظهِر - لي الحكمة!

فأوحى الله إليه أن والد الفارس أخذ هذا المال من والد الراعي فرددت المال إلى الوارث، وإن هذا الشيخ قتل والد الفارس فاقتصصت منه!

الخلاصة: حُكم الملحد على الأمور التي تخفى فيها الحِكمة قاصر بقصور الطبيعة البشرية نفسها، وبقصور نظرتها الإدراكية.

فالاستيعاب الشمولي، والحُكم الكُلي، ليس مجال النفس البشرية ولا يقع في نطاق قدرتها القاصرة، وبالتالي فلا يحق للملحد أن يتحدث في باب الحِكمة الإلهية بشيء.

﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝٧﴾ [آل عمران: 7].

يدعي الملحد أن الكفار يفعلون الخيرات، وأنجلينا جولي تساعد الفقراء وتؤمن بالقيم.

الرد:

صراحةً شمامسة الإلحاد يروجون كثيرًا لهذه الدعايات، ومع أن أنجلينا جولي لا يوجد جزم بإلحادها أصلاً، والحديث عن الإلحاد في المجتمع الأمريكي شيء ممجوج ومستقبح للغاية ويدعو للغثيان- ولذا نادرًا ما يُعلن شخص عن إلحاده.

ومع ذلك فتصرفات أنجلينا جولي الأخلاقية، تؤكد على قيمة الأخلاق ومطلقيتها وأن الجميع يعتنقونها بوعيٍ وبغير وعي، فالبشر ليسوا مُخيرين في رفض التكليف الإلهي.

فالأخلاق يعتنقها الجميع ويؤمنون بمعناها، مع أن هذه الأخلاق ليست ربحية بل هي تأتي دائمًا ضد المصلحة الشخصية وضد المادة، وفي هذا توكيد سامق على استحالة رد الإنسان للنموذج المادي، أو تحليله في إطار حتميات مادية.

بل إن قصور الإنسان في القوة ناتج عن التزامه الأخلاقي القيمي، فالقيم لا معنى لها من هذا العالم، فهي تحمل في طياتها معنى التكليف الإلهي.

ولذا فحتى الملحد لا يستطيع أن يرفض ذلك التكليف الإلهي!

ثم إن الملحد يفترض مسبقًا مطلقية القيمة، ولذا يُعطي أحكامًا ويطرح رؤيةً ويقرر الصواب والخطأ وينتقد ويمتدح بناءًا على هذا الوعي الفطري داخله بمطلقية القيمة، وفي هذا الحجة الأولى والأكبر للدين.

وإما أن تكون أعمال أنجلينا جولي وغيرها الخيرية عظيمة فعلاً

وساعتها لا معنى للإلحاد؛ لأن كلمة «الخير» كلمة ميتافيزيقية والقيم لا تستمد معناها من هذا العالم بل هي ضد المادة في أصلها.

وإما أن تكون أعمال أنجلينا جولي الخيرية بلا معنى وساعتها لا مجال لمدحها.

لكن قد يسأل سائل: هل أنجلينا جولي تنال ثواب مقابل عملها هذا؟

يقول الشيخ عبد العزيز الزنداني حفظه الله في كتابه التوحيد: «إن الذين لا يؤمنون بالله ولا يرجون ثوابه، ولا يخافون عقابه يعملون أعمالهم وهم لا يريدون بها وجه الله، ولا يبتغون رضاه ولا يهمهم هل عملوا حلالًا أم حرامًا، فهم بهذا لا يستحقون الثواب على العمل وإن كان صالحًا؛ لأنهم كفار لم يقصدوا به أن ينالوا ثواب ربهم، ولا ابتغوا به رضا خالقهم»[1].

والكافر مُعاقب على كفره وضلاله؛ لأنه لم يبحث عن دين الله ولم يحاول الاستماع إلى البيان الإلهي الذي جاء به المرسلون، زيادةً على ذلك فهو إذا سمع آيات الله تُتلى عليه اتخذها هزوًا، لذلك فعمله مردودٌ وهو معاقبٌ على كفره ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ ﴾ [الفرقان: 23].

﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٨﴾ ﴾ [إبراهيم: 18].

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ ﴾ [النور: 39].

(1) التوحيد، للشيخ عبد المجيد الزنداني، ص9.

ويضرب الدكتور الزنداني مثالاً جميلاً إذ يقول: «دخل رجلٌ إلى بستانٍ كبير لا يملكه فأكل وشرب وظل يلهو ويعبث داخل البستان، بينما دخل البستان رجلٌ آخر فقال لا أفعل شيئًا حتى أتصل بصاحب البستان أو مَن ينوب عنه وأخذ يسأل ويبحث، فإذا بمندوب صاحب البستان يصل إلى الرجلين، ووبخ اللامبالاة وعدم الامتنان الذي يبديه الرجل الأول، وشكر للرجل الثاني صنيعه وبحثه، وظل الرجل الأول على استهتاره وعبثه فهل هذا حتى لو أحسن في البستان ينتظر أن يُكافأ؟ إنه لم يفعل ذلك إلا لمصلحته هو ولذته هو ولا يبالي بصاحب الحق -صاحب البستان- شيئًا.

وكذلك هذه الأرض وما فيها ملكٌ لله ورسل الله هم المندوبون، والمؤمن هو الذي يتبع سبيل الرسل، والكافر هو الذي يتصرف بلا إرشادات».

إن القضية ليست فعل الخير وإنما القضية الآكد هي لمن تفعل الخير وهل تفعله اتفاقًا، وتفعله لمصلحتك الشخصية كمزيد سعادة أو تسميع في الدنيا، أم انكسارًا لله ورضًا بعبوديته؟

الحجة الرسالية

هل الدين بالوراثة؟

الرد:

الكل يولد ومعه الإجابة الصحيحة موروثة في داخله، ولا يبقى إلا توقيعه هو!

وهذه الإجابة هي الفطرة التي غُرست فيك والبديهيات العقلية الأولية التي لو سرت على مقتضاها ستلتزم بالحق متى تبين لك، ولو لم يتبين لك

فأنت لن تُعذب ﴿ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ ﴾ [الإسراء: 15].

إذن الذي يملك الجنة والنار، قدّر لك أنك لن تُعذب حتى تُقام عليك الحجة الرسالية؟

أيضًا الذي خلقك وخلق الجنة والنار لن يظلمك ولن يظلم أحد ﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [فصلت: 46].

فلم التمرد؟!!

ثم إن الدين هو الذي يبدأ وراثيًا وليس الإيمان، فالإيمان مكتسب وليس وراثي، وإيمانك يمر بمرحلة اختبارية في كل لحظة وفي كل موقف تمر به وفي كل شيء تراه وتقيس عليه أصول دينك وعقيدتك، وهل تجد في دينك تحليلًا متكاملاً لما تراه؟!! وهل ثمة تناقض جوهري أم صوري؟!! وهكذا إلى تُقبض ويوم القيامة يفصل الله بينك وبين حججك ﴿ ۞ يَوْمَ تَأْتِى كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾ ﴾ [النحل: 111].

وأصل القضية الإيمانية هي عمل كسبي واتباع لمقتضى الفطرة والبديهيات الأولية التي غرسها الله فيك، وإلا فإن ابن الكافر قد يكون نبي، وابن النبي قد يكون أكفر الخلق، وفوق كل ذلك أصل اختبارك يوم القيامة هو اختبار للسرائر وليس لما يبدو للناس ﴿ يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ﴿٩﴾ ﴾ [الطارق 9].

فلا تجعل من كفر غيرك مبررًا لكفرك، ولا تجعل مما لم تحط بعلمه دليلًا على العلم!

وعدم معرفتك بالشيء ليست معرفةً تبني عليها كُفرًا!

﴿بَلۡ كَذَّبُواْ بِمَا لَمۡ يُحِيطُواْ بِعِلۡمِهِۦ وَلَمَّا يَأۡتِهِمۡ تَأۡوِيلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ٣٩﴾ [يونس: 39].

القضية الدينية مُسلمة عقلية ومعرفية ووجدانية وفطرية ونقلية بدرجة يقينية، فلا تجعل من افتراضك بديلاً لليقين، ومن ظنك بديلًا للبديهة، فما أكثر الافتراضات والظنون، فهذا طريق يزينه الشيطان فهو سوق الشيطان الوحيد وقِوام بضاعته، وعليه ينصب رايته!

ولن يدخل النار أحد لم تقم عليه حجة رسالية، ولن يدخل الجنة أحد أنكر الحجة الرسالية بعد استيفاء الشروط وانتفاء الموانع.

ويوم القيامة هو يوم الفصل الأكبر، وهو أطول من عمر البشرية كله، وهو سن البلوغ التكليفي لأهل الفترة، فلا تنشغل إلا بنفسك، وكفر غيرك لا يبرر كفرك، وإلا فهذه حجة فرعون في كفره إذ قال: ﴿قَالَ فَمَا بَالُ ٱلۡقُرُونِ ٱلۡأُولَىٰ ٥١﴾ [طه: 51].

هل الشهب خلقت لرجم الشياطين؟

الشهب توجد في بقاع الكون المختلفة، فهل هي لرجم الشياطين فقط؟

الرد:

لم يقل القرآن أن الشهب مخصصة فقط لرجم الشياطين حتى نقول لماذا توجد في أماكن أخرى؟!!

أيضًا أحد مسلمات الفيزياء الرصدية اليوم، أن الظاهرة لا تقتصر أسباب وقوعها على جملة الأسباب التي تترائي لعلماء الطبيعة.

ألا يُخبرنا علماء الرياضيات التجريدية كل يوم أن طيران فراشة فوق

سهول سيبريا قد يكون من الأسباب المُفضية إلى وقوع إعصار في أمريكا، فيما يُعرف بتأثير الفراشة Butterfly Effect.

ونظام الأسباب الكوني أشد تعقيدًا من الرصد الإمبريقي - التجريبي- وأيضاً أشد تعقيدًا من رصد الرياضيات الخطيَّة، وأساس العلم التجريبي يقوم على تسهيل التصور، وتقليل الفرضيات لتضييق دائرة الإحتمالات وهذا أصل العلم التجريبي.

فلا تمنع معرفة عملية اختراق الشهاب للأرض لا تمنع تلك العملية استصحاب رجم شيطان وهذا كله من غيب الله تعالى المكنون الذي ستره عن البشر.

إشكالات فقهية

كيف تحسم حواراً مع علماني مثل سيد القمني؟

كل لقاءات وحوارات ومناظرات العلماني سيد القمني تدور حول قضيتين اثنتين لا غير:

القضية الأولى: أنه يرى حتمية الحل العلماني حتى يعم السلام والرخاء وحقوق الإنسان!

وهذه فضيحة من أكبر الفضائح التي يروج لها العلمانيون العرب، فبتسوانا وناميبيا وجامبيا وموريشيوس والسنغال كلها دول أفريقية تُدار بأنظمة ليبرالية علمانية رأسمالية ديموقراطية تمامًا منذ عشرات السنين، ومع ذلك هذه الدول من أفقر دول العالم على الإطلاق وأكثرها انتهاكًا لحقوق الإنسان!

ودولة ليبريا الأفريقية، تعمل بالدستور الأمريكي مباشرّة، وعملتها الدولار، وبها مجلس شيوخ ومجلس نواب منذ أكثر من نصف قرن من الزمان، وهي علمانية ليبرالية عتيقة، وأهلها ليبراليون جدًّا - يرقصون الشارلستون ويأكلون لبان تشكلس ويرتدون أحذية نايكي- ومع ذلك دولة ليبريا مُصنفة كأفقر دول العالم على الإطلاق.

وفي العام الماضي لم يلتحق بالجامعة في ليبريا طالب واحد، فجميع الطلاب بلا استثناء فشلوا![1].

ثم إن جميع الحروب الكبرى في القرن العشرين جرت بين دولة علمانية علمانية، والحربان العالميتان الأولى والثانية واللتان أبادتا 5% من سكان العالم وأعادتا المهزوم والمنتصر ثلث قرن إلى الوراء كانتا حروب حصرية بالدول العلمانية.

وجميع الأيديولوجيات الإجرامية التي ظهرت في القرن العشرين مثل النازية في ألمانيا والفاشية في إيطاليا والستالينية في الاتحاد السوفيتي والماوية في الصين، كلها أيديولوجيات علمانية نشأت وترعرعت في دول علمانية.

والحزب النازي في ألمانيا وصل إلى الحكم بطريقة ديموقراطية علمانية رشيدة، وكل قرارات الإبادة التي قام بها الحزب تمت بطريقة ديموقراطية عقلانية.

والمشروع الإمبريالي الغربي قامت به حكومات تم انتخابها بطرق علمانية سليمة، وعمليات السخرة والإبادة كانت تحظى بالتأييد العلماني.

أما حقوق الإنسان التي يتمحك بها العلمانيون أمثال سيد القمني فليس لها

(1) http://today.almasryalyoum.com/article2.aspx?ArticleID=394860.

في الإرث العلماني نصيب، فحقوق الإنسان قضية ميتافيزيقية بحتة، فقولك أن البشر متساوون هذا ممكن فقط إذا كان الإنسان مخلوقًا لله، فالمساواة بين البشر هي خصوصية أخلاقية وليست حقيقة طبيعية أو مادية أو عقلية، فالناس بالمنظور المادي أو الطبيعي أو العقلي هم وبلا شك غير متساوين، وتأسيسًا على الدين فقط يستطيع الضعفاء والبسطاء المطالبة بالمساواة.

ففي المنظور المادي العلماني العلاقات بين البشر تسودها الرؤية الداروينية والبقاء للأصلح Survival for the Fittest، والانتخاب الطبيعي Natural Selection.

وفي الإطار المادي يتم تقسيم البشر وتصنيفهم طبقًا لمقاس حجم الجمجمة Skull Measurement وهو المفهوم الذي أسست لهم العلمانية الغربية، فحجم جمجمتك يحدد درجة ومستوى جنسك وبالتالي حقك في البقاء.

وداخل العالم المادي العلماني الغربي اضطرت أجناس كاملة من البشر ومنهم المصريون إلى الدخول في أقفاص الحيوانات Human Zoo باعتبارهم حلقات أدنى[1].

فالذي يتحدث عن حقوق الإنسان بمنظور علماني هو شخص لا يعرف شيء عن التاريخ ولا الفكر ولامعنى العلمانية ذاتها!

المشكلة أن أمثال القمني دائمًا يستحضرون بعض النماذج الغربية التي يرون أن صورتها مشرقة دائمًا -مثل هولندا وأسبانيا والبرتغال وفرنسا-، وطبعًا لابد أن تكون مشرقة دائمًا لأن ثرواتها جاءت نتيجة 500 عام من الاستعمار، و50 عام من صندوق النقد الدولي.

(1) http:// query .nytimes .com /gst /abstract .html? res= 9C04E7 D81F 3EE 733 A25753C1A96F9C946797D6CF.

السبي -الرق-العبودية:

القضية الثانية عند سيد القمني: حديثه في كل لقاءٍ له عن العبودية وملك اليمين وكيف أن هذه القضايا تجاوزها العصر الحديث ولم يعد لها مكان، وبالتالي بعض آيات القرآن الكريم لها بعد تاريخي فقط.

وللرد على هذا الجهل لابد من تحليل قضية الرق من داخل التاريخ ذاته كالتالي:

أولاً: العبودية هي مرحلة أساسية في تاريخ الجنس البشري، ومن مقتضيات عصور بشرية أصيلة.

ثانيًا: لا يوجد في تاريخ البشرية ديانة ولا فلسفة ولا مذهبًا ولا فِرقة، إلا وأجازت الرق واعتبرته بديهة وجودية.

ثالثًا: اختفاء الرق في القرن الماضي كان فقط لظهور المكائن - الآلات التي حلت محل البشر - وإلا فالرق كان وسيظل موجودًا ما وُجد الإنسان.

رابعًا: لا يوجد مانع ديني ولا أخلاقي ولا مادي ولا علمي ولا فلسفي ولا إلحادي يمنع من ممارسة الرِق بمفهومه الإسلامي -الذي هو أقرب للتبني- كما سنبين بعد قليل.

خامسًا: لم يتوقف الرق فجأةً لضجر العبيد أو لرهافة إحساس الأسياد، ولكن فقط نتيجة استغناء مباشر عن العبيد بالمكائن التي ظهرت في القرن الماضي.

سادسًا: لم يعرف التاريخ ناقدًا للعبودية على طول الخط وانتهاء العبودية جاء فقط كنتيجةٍ بديهيةٍ لعدم الحاجة إليهم، ولذا قال نيتشه: «لو أمطرت السماء حرية لأمسك العبيد مظلات».

وفلاسفة الدنيا كلها أطبقوا على أن مفهوم الرق في أصله مفهومٌ مقبول وسنذكر بعض الأمثلة:

1- كان أرسطو يرى أن العبودية أمر بَدَهِيٌّ، وكان من أشد المؤيدين لها والحريصين عليها.

2- قال أرسطو: الذي يخضع للقانون هو أيضا عند مستوًى ما من العبودية.

3- جمهورية أفلاطون الفاضلة لا تخلو من العبيد.

4- يؤيد هيجل العبودية بشدة ويرى أن العبد يحقق متعته في خدمة سيده.

5- يقول كارل ماركس بدون عبيد لا وجود لأمريكا الشمالية[1].

سابعًا: يرى هيجل أن الغريزة الأساسية في الإنسان هي الرغبة في نيل الاعتراف-ينال قيمته-، وفي هذا الإطار فالعبد يحقق غايته تمامًا، حيث أن العبد يحقق متعته في خدمة سيده وهو في ذلك يسعى إلى الرغبة في الاعتراف، والعبد لا يتمرد على سيده أبدًا لأنه أصلاً لا يعرف أنه ينقصه شيء، فهو رغباته المادية يحققها من أموال سيده ورغباته فوق المادية مثل الرغبة في الاعتراف يحققها ببراعته في عمله، بل وكلما كان أكثر إخلاصًا لسيده كان أكثر تحقيقًا لهذه الرغبة، لذا فالعبد لا يشعر أنه عبد، بل يتحرك في إطار عقلاني يستوعبه ويستوعب سيده، لذا لم يتمرد العبيد. فالعبد في البداية والنهاية مسوقٌ إلى الدور المطلوب منه - كالسيد تمامًا -.

ثامنًا: يقول مؤسس الدولة المدنية جون لوك: «الملوك في أمريكا القديمة والذين كانوا يملكون أراضٍ شاسعة هم أفقر ماديًا من عامل إنجليزي في ورش مانشستر».

(1) http://www.marxists.org/archive/marx/410.htm.

لكن الملك لديه من يعترف به فتزداد سعادته، فالسعادة قيمة نسبية لا علاقة لها بالوسائل المادية المتاحة، وإنما هدف السعادة المادية هو نيل الاعتراف وهذا متحقق للعبد ماديًّا!

تاسعًا: في لحظةٍ ما عندما نحتاج للعبيد سيعود العبيد، خاصةً وأنه بعد اختراع الأسلحة النووية ظهرت في الأدب العالمي فكرة احتمالية أنه في أي لحظة يمكن أن يخسر العالم كل التكنولوجيا الحديثة ونعود للخيل والجِمال مرةً أخرى، وفي فيلم محارب الطريق the road warrior للمنتج الاسترالي جورج ميلر، نرى حضارة مستقبلية قائمة على الخيل والعربات التي تجرها الحيوانات[1].

عاشرًا: الذي ينتقد العبودية هو حتمًا سينتقد منظومة العمل والحياة الوظيفية الآن، فالحياة الوظيفية هي رِق جزئي -عبودية جزئية-، وفي تعريفها الرسمي: استقطاع ساعات معينة من وقت الموظف لصالح مؤسسة أو شركة أو شخصٍ ما، مقابل تقاضي أجر محدد أو منفعةٍ محددةٍ.

لكن الإنسان المعاصر يستسيغ المنظومة الوظيفية الآن ولا يستسيغ مسألة الرق فقط بسبب المعاصرة - فهو معاصر للمنظومة الوظيفية ولم يعاصر مسألة الرق -.

بل إن الفرق الجوهري بين الرق والمنظومة الوظيفية هو فرق زمني لا قِيمي، فالمنظومة الوظيفية هي رِق وقتي، وسخرة جزئية كما يتفق على ذلك المُشرّعون!

أيضًا الرق ليس بالصورة التي يرسمها ويروِّج لها العصرانيون، وإنما

(1) المصدر: نهاية التاريخ، فرانسيس فوكوياما، ص 86.

ربما تنطبق تلك الصورة على ما كان يجري في الدولة الرومانية، بينما في بلادنا كان الرقيق أئمة الدنيا وعلماء الدين. ودولة المماليك خير شاهدٍ عبر الزمان.

إذن الرق أمر بَدَهِيٌّ عبر التاريخ وعبر الجغرافيا، والحفاظ على حقوق الرقيق هو الوصية العاشرة من الوصايا العشر في التوراة. [سفر التثنية 5 - 21].

والحفاظ على حقوق الأسياد ووجوب طاعتهم مِن قبل العبيد هو وصية الإنجيل. [الرسالة إلى أفسس 6:5]

ولم يكن الإسلام بِدعًا من الأديان، ولم يكن النبي ﷺ بِدعًا من الرسل فقد جاءت الوصية مباشرةً بحفظ حقوق الرقيق في الإسلام.

حفظ حقوق الرقيق في الإسلام:

1- قال الله تعالى: ﴿ ۞ وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡجَارِ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡجَارِ ٱلۡجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلۡجَنۢبِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخۡتَالٗا فَخُورًا ﴿٣٦﴾ ﴾ [النساء: 36].

2- وقال تعالى: ﴿ فَمِن مَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۚ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِإِيمَٰنِكُمۚ بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖۚ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذۡنِ أَهۡلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِ ﴾ [النساء: 25].

فأمر سبحانه مَن أراد أن يتزوج من أمته أن ينكحها بإذن أهلها وأن يعطيها مهرها كاملاً!

3- قال رسول الله ﷺ: «لا يقولن أحدكم: عبدي وأمتي وليقل: فتاي وفتاتي»[1].

---

(1) صحيح مسلم.

4- وقال ﷺ: «إنّ إخوانكم خولكم جعلهم الله تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه ممّا يأكل وليلبسه ممّا يلبس، ولا تكلفوهم ما يغلبهم فإن كلفتموهم ما يغلبهم فأعينوهم»[1].

ولذا صار الرقيق في الدولة الإسلامية ملوكًا وحُكـامًا، وأصبحت فترات تاريخية كاملة في حِكرًا على الرقيق[2].

ولا يعرف تاريخ الإنسانية دينًا أشد حرصًا على الرقيق من الإسلام، يكفي أن تعلم أن هناك ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين يوم القيامة كما في نص الحديث عن رسول الله ﷺ:

1- رجل آمن بالكتاب الأول والكتاب الآخر، ثم أدركني فآمن بي.

2- ورجل كانت له أمة فأعتقها وتزوجها.

3- وعبد أدى حق الله وحق مواليه[3].

إذن الرجل لو أعتق جاريته وتزوّجها له أجره مرتين.

والعبد الذي يطيع سيده له أجره مرتين.

ولذا قال أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في الحديث المُتفق عليه: «والذي نفس أبي هريرة بيده لولا الجهاد في سبيل الله والحج وبر أمي لأحببت أن أموت وأنا مملوك».

لكن هنا قد يطرح العلماني تساؤلًا هامًّا وهو: ما مصدر الرقيق وكيف يتحول الحر إلى عبد؟

---

(1) متفق عليه.
(2) دولة المماليك في مصر.
(3) متفق عليه.

ولماذا يتحول الأحرار إلى عبيد؟

لا يعرف الكثير من العلمانيين أن الرق هو في الاصل رحمة!

فالرق ينحصر في أرض المعركة وساحة القتال، فالكافر المقاتِل يُقتل، والكافرة المقاتلة تُسبى ولا تُقتل وبالتالي تصبح في باب الرق أو السبي أو ملك اليمين وكلهااصطلاحات لها نفس المعنى.

لكن لماذا نقوم باسترقاق النساء؟

هذا كما قلنا من باب الرحمة، لأن الذي جاء يقاتلك ويحاربك لابد أن تقاتله، هذه بديهة تتفق عليها جميع الدساتير والشرائع!

أما المرأة التي جاءت لتقاتلك فلا يجوز لك أن تقاتلها إلا لو باشرت قتلك!

فالمرأة لا تُقتل؛ لأن الإسلام لا يُجيز لك قتل النساء ولا الأطفال ولا الشيوخ ولا أصحاب الحرف الذين لم يأتوا إلى ساحة المعركة لمحاربة المسلمين وإنما لممارسة حرفهم مع أنهم كفار ومع أنهم في ساحة المعركة!

فمن رحمة الإسلام بالمرأة أنها لا تُقتل -لأنها ضعيفة ولا تباشر قتل المسلمين في الغالب- بل تُسبى.

والمرأة تُسبى حتى يتم فدائها بأسيرات المسلمين أو العفو عنها وإعادتها للعدو بلا مقابل ﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ [محمد: 4].

ولاحظ قوله تعالى: حتى تضع الحرب أوزارها، يعني في أرض المعركة، ولاحظ إما مناً بعد: أي تمُن عليها بأن تُطلق سراحها بلا مقابل، وإما فداء: أي تفديها بالمسلمات اللاتي أسرهن العدو.

فلا يوجد في الإسلام سبي إلا من أرض المعركة، وهذه قاعدة هامة!

ولا تُسبى المرأة إلا لأنه يحرم قتلها، مع أنها جاءت في جيش العدو وأرادت استئصال شأفتك!

وقد فتح المسلمون بلاد الدنيا وملكوها ولم ينقلوا سكانها الأصليين سبايا إلى الجزيرة العربية فهذا لا يقوله عاقل، بل ولم ينقلوا ساحة المعركة إلى بيوت المدنيين الآمنين، بل إن هؤلاء المدنيين لم يجدوا عزهم وحريتهم إلا في كنف الإسلام!

وتُسبى المرأة ولا يجوز قتلها؛ لأنها كما قلنا حتى لو قاتلت فلا تباشر ذلك في الغالب بنفسها، فعقوبتها أهون من الكافر الذي يريد قتل المسلمين ويباشر ذلك بنفسه، ودليل ذلك قول رسول اله ﷺ: «ما كانت هذه لتقاتل».

لكن هل يجوز نكاح المسبية؟

المسبية لها عقد نكاح، أي يجوز نكاحها، كما الزوجة لها عقد نكاح، لكن شروط عقد نكاح المسبية تختلف عن شروط عقد نكاح الزوجة، فالزوجة لها شرط الاختيار فيمن يتقدم لها.

أما امرأة مقاتلة جاءت لتقاتلك مع جيش العدو وتم سبيها، فهذه ليس لها شرط اختيار من يتقدم لها.

لكن الزوجة والمسبية يتفقان في الأُطر العامة، فلا تنتقل الزوجة إلى رجلٍ آخر إلا بطلاقٍ ومهرٍ جديدين، ولا تنتقل المسبية إلى رجلٍ آخر إلا بإطلاقٍ وعقدٍ جديد.

والتعرض للمسبية في حكم الشريعة يطابق التعرض للزوجة، فلو اغتصبها أحد يُقام عليه حد الزنا.

قال الشافعي: «وَإِذَا اغْتَصَبَ الرَّجُلُ الْجَارِيَةَ، ثُمَّ وَطِئَهَا بَعْدَ الْغَصْبِ، وَهُوَ مِنْ غَيْرِ أَهْلِ الْجَهَالَةِ أُخِذَتْ مِنْهُ الْجَارِيَةُ وَالْعُقْرُ، وَأُقِيمَ عَلَيْهِ حَدُّ الزِّنَا»[1].

وهل يجوز سبي نساء الكفار المقاتلين الآن؟

لو تم وضع قانون بحرمة سبي النساء والتزم به المسلمون والكافرون -كما هو حادث الآن-، فهنا لا يجوز للمسلم مخالفة القوانين والعهود، إلا لو بدأ العدو الغاشم في المخالفة!

وعليه تُحترم كل العهود والمواثيق التى تمنع السبى فى الحروب الآن. وقد فصّلنا هذه النقطة تحت مبحث «هل الإسلام هو داعش؟».

وفي فترة حرب البوسنة كان المجرمون الصرب يغتصبون المسلمات البوسنيات، ومع ذلك لم يُجز علماء المسلمين للمجاهدين في ذلك الوقت سبي نساء العدو.

ثم هل وجدتم رحمةً أعظم من أن تلتزم في مقاتلة عدوك بسلاحه هو، فلا يجوز لك أن تقتله بسلاح فتاك يهلك الديار والعباد، وإنما تقاتله بنفس سلاحه ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾﴾ [البقرة: 194].

والله أعلم!

لكن يبقى السؤال: هل يحق للملحد أن ينتقد مسألة الرق؟

(1) كتاب الأم، للشافعي، باب الغصب، ص253.

في واقع الأمر قبل أن ينتقد الملحد مسألة الرق عليه أن يجيب عن الآتي:

(1) الدولة الوحيدة الملحدة على وجه الأرض الآن هي كوريا الشمالية، وداخل هذه الدولة يتم تقسيم الناس رسميًّا إلى سادة وعبيد، في نظام يُعرف باسم السونجبن Songbun، وحسب هذا النظام يتم تحديد كمية الغذاء ونوع البروتين وكميته وطبيعة العمل للمواطن الكوري الشمالي ولأولاده من بعده بحسب طبقته داخل السونجبن!

وهذا النظام معمول به منذ قرابة نصف قرن من الزمان -منذ انفصال الكوريتين- ولم نسمع أن ملحداً أو علمانيًّا تمرد على هذا الأمر أو انتقده![1].

(2) أليس التمرد على الرق هو تمرد صريح على الداروينية وعلى قانون كوني يحكم وجودنا وهو قانون البقاء للأصلح؟

(3) أليس التمرد على الرق هو تمرد على الحتمية المادية؟

(4) أليس الرق يساعد مباشرةً على الانتخاب الطبيعي - عبر انتخاب الأقوياء والأكثر سيادة -، إذن لو كان الملحد ملحدًا، وكان الإلحاد صحيحًا وكانت الداروينية قضية حتمية، لأصبحت عودة الرق هدف كل ملحد، أليس كذلك؟

(5) ما معنى الأخلاق؟ و هل تمت البرهنة عليها علميًّا حتى يتبناها الملحد؟

(6) الملحد ينظر للإنسان على أنه لطخة بروتوبلازمية ثلاثية الأبعاد، حدود الطبيعة هي حدوده وقوانين المادة هي قوانينه، فكيف تسنّى له أن يستوعب الخطأ في الرق ثم ينتقده؟

(1) http://en.wikipedia.org/wiki/Songbun

(7) لا يوجد للأخلاق ترميز جيني - تشفير في الجينات -، إذن ليس لها مصدر مادي، فكيف يتبنى الملحد نموذجًا أخلاقيًا ينتقد من خلاله عملية الرق؟

والآن وقبل أن نختم هذا الموضوع الثري نريد أن نعرض لبعض الصور المشرقة للرقيق في دولة الإسلام!

حَكم المماليك -الرقيق- مصر والشام قرابة 600 عام، منذ عام 1240إلى 1811 ميلادية.

أي: نصف تاريخ مصر والشام في الإسلام كان تحت سيادة المماليك، بل ولولا خيانة محمد علي وجريمته الشنعاء حين قام بذبحهم في مذبحة القلعة الشهيرة، لظل المماليك سادة الدنيا.

وفي عهد المماليك كانت جميع المقاطعات والولايات يحكمها مماليك.

والشاهد من ذلك أن الإسلام لا يمنع الرقيق أن يكونوا سادة الدنيا، وفي الحديث الصحيح أن النبي ﷺ قال: «أُوصيكم بتقوى الله، والسمع والطاعة وإن كان عبدًا حبشيًا».

إذن أوصى رسول الله ﷺ بالسمع والطاعة للرقيق حين يحكمون بلاد المسلمين!

ومن عجيب ما يُذكر هنا أن قطز وبيبرس حين وصلوا الحكم مصر كانوا رقيقًا وظلوا رقيقًا زمناً طويلاً، إلى أن قدم التتار إلى بلاد الشام فاجتمع قطز بالأعيان والقضاة والأمراء، وطلب منهم جمع المال لتكوين جيش مصري عملاق، فقام الإمام العز ابن عبد السلام -رحمه الله- وطالبهم أن يكاتبوا أنفسهم حتى يقتدي بهم باقي المماليك، ففدوا أنفسهم بأموالٍ عظيمة- والمكاتبة في الشريعة الإسلامية هي أن يدفع العبد مبلغًا من المال لسيده

مقابل حريته، وهذا حق جوهري من حقوق الرقيق في الإسلام ﴿وَٱلَّذِينَ يَبۡتَغُونَ ٱلۡكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ فَكَاتِبُوهُمۡ إِنۡ عَلِمۡتُمۡ فِيهِمۡ خَيۡرٗاۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ ءَاتَىٰكُمۡ﴾ [النور: 33].

وبالفعل ظهر الجيش المصري العملاق!

لكن السؤال هنا: بالنسبة للرقيق الذين عاشوا في دولة الإسلام العادلة هل يحرصون على المكاتبة أو تعنيهم أصلاً؟

إن قطز وبيبرس لم يكاتبوا أنفسهم ويتحولوا إلى أحرار إلا لتمويل الجيش لا أكثر!

فقد كان المماليك سادة الدنيا، وكان جيش المماليك من أعظم جيوش الدنيا.

وقد هزم المماليك المغول في معركة عين جالوت عام 1260 م.

أيضًا السلطان المملوكي -العبد- قنصوه الغوري الذي حكم مصر والشام والحجاز، انتصر على البرتغال التي كانت تريد تطويق أفريقيا في ذلك الوقت، وهزمهم شر هزيمة في موقعة مالابار عام 1508م.

وقد دافع السلطان قنصوه الغوري عن عدن وعن ديار الإسلام من هجمة المستعمر الجديد!

وكان للمماليك جهود عظيمة في شق الترع ومشاريع عملاقة في بلاد المسلمين، ولم يكن في الدنيا جيش يضاهي جيش المماليك إلا جيش الخلافة العثمانية!

ولولا خيانة محمد علي وجريمته النكراء في حق المماليك -مذبحة القلعة-، ربما ما تجرأ المستعمر الغربي العفن على ديار الإسلام وعلى استعمارها ولله الأمر من قبل ومن بعد.

أضف إلى ما سبق أن: الرقيق أيضًا هم سادة الآخرة، فأجرهم ضعف أجر السيد بنص الحديث كما بيّنا قبل قليل.

إذن المشكلة هي الصورة النمطية التي انطبعت في أذهان المعاصرين عن الرق، وليس الرق في حد ذاته.

وإلا فإن بلال بن رباح وعمار بن ياسر وزيد بن حارثة وأم أيمن وسمية بنت خياط، كلهم رقيق، وكلهم عظماء الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ، وما قلّل رِقهم من قيمتهم شيئًا.

وفي التابعين من الرقيق العلماء العدد الكبير، فمنهم المحدث العظيم نافع مولى ابن عمر وعكرمة مولى ابن عباس ومجاهد وعطاء ومكحول وابن سيرين والحسن البصري وسعيد بن جبير، أئمتنا وسادتنا رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ أجمعين!

لكن هل الرق قضية تاريخية انتهى زمنها كما يزعم القمني وأتباعه؟

الذي يقول ذلك هو أجهل الناس بالتاريخ فاختفاء الرق رسميًّا في القرن الماضي -عام 1905- كان فقط لظهور المكائن - الآلات التي حلت محل البشر.

وإلا فالرق كان وسيظل موجودًا ما وُجدت الحاجة إليه، ولا فرق كما فصّلنا بين العمل الوظيفي وبين الرق إلا في المحتوى الزمني لكلٍ منهما.

وسيعود الرق حال اختفاء المكائن كما تنبأ فرانسيس فوكوياما!

لكن طبعًا القمني وأتباعه لا يعرفون لا تاريخ ولا فوكوياما فضلاً عن تبصر أحوال البشر ودورات الزمان!

جهاد الطلب

يقول الملحد: هل يوجد في الإسلام جهاد طلب؟

الرد:

في البداية؛ جهاد الطلب هذا فهم وليس نص، فلم ترد آية واحدة فيها لفظة «جهاد الطلب»، ولم ترد هذه اللفظة هكذا في أي حديث صحيح أو ضعيف أو حتى موضوع.

وبالتالي فمصطلح «جهاد الطلب» مبني على فهم وليس مبنيًا على نص وما بُني على فهم ينضبط بالفهم!

أكرر: ما بُني على فهم ينضبط بالفهم.

وقد فهِم العلماء جهاد الطلب من سيرة الصحابة -رضوان الله عليهم-، وبما بشّر به النبي ﷺ من فتوحات البلدان وانتشار الإسلام في أصقاع الأرض.

والآن لنا وقفات هامة:

أولاً: هل كل ما في جهاد الطلب يُنسب للإسلام؟

هذا خطأ بداهةً! فكل تطبيق يُخالف النظرية لا يُمكنك أن تنسبه للنظرية.

وإلا فلم تكن إبادة مئات الآلاف من المسلمين العُزل في أفغانستان والعراق-التطبيق- إلا انطلاقًا من نشر الديموقراطية وحقوق الإنسان- النظرية-.

ولم يتم تفريغ قارات بأكملها من البشر كالأمريكتين-التطبيق- إلا انطلاقًا من عبء الرجل الأبيض في نشر الوعي-النظرية-!

فمخالفة التطبيق للنظرية أمر وارد، والإفراط في فهم النظرية أو التفريط في فهمها كلها أمور متوقعة، فنحن بشر ولسنا بمعصومين وحين يتم التطبيق قد يظهر ما يخالف النظرية.

وقد خالف التطبيق النظرية منذ عهد رسول الله ﷺ.

وأقرب مثال على ذلك ما قام به خالد بن الوليد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حين قتل ناسًا من بني جذيمة لم يحسنوا أن يقولوا أسلمنا، فجعلوا يقولوا صبأنا صبأنا، وأمر جنوده أن يقتلوا أسراهم فرفض ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وقال: والله لا أقتل أسيري ولا يقتل رجلٌ من أصحابي أسيره. حتى قدموا على النبي ﷺ وذكروا له الأمر، فرفع النبي ﷺ يديه وقال: «اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد مرتين»[1].

فهنا خالد بن الوليد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ خالف النظرية -مجتهدًا- لكن لا يُنسب اجتهاده للنظرية.

مثال آخر على التطبيق المخالف للنظرية: حين قتل أسامة بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رجلاً قال: لا إله إلا الله في معركة، فلما بلغ ذلك رسول الله ﷺ قال لأسامة بن زيد: «أقتلته بعد ما قال لا إله إلا الله؟». قال: قلت: يا رسول الله إنما كان متعوذاً. قال: «أقتلته بعد ما قال لا إله إلا الله؟». قال: فما زال يكررها عليّ حتى تمنيت أني لم أكن أسلمت قبل ذلك اليوم[2].

(1) صحيح البخاري.
(2) صحيح البخاري ومسلم.

مثال ثالث: المرأة التي وُجدت مقتولةً في معركة، فقال النبيﷺ «ما كانت هذه لتقاتل»[1].

فهذه كلها تطبيقات تخالف النظرية ولا تُنسب إلى النظرية.

بالمناسبة: نحن نقول لفظة: «نظرية» تقريبًا للمثال، وتيسيرًا للفهم. وإلا فالنص الديني قطعي الثبوت لا يحتمل ما تعنيه لفظة «نظرية» في اصطلاح المتأخرين فوجب التنويه.

ثانيًا: هل الإسلام دين مسالم؟

يقول المفكر الإسلامي طارق رمضان في مناظرته مع الملحد هتشنز: «-الإسلام دين مسالم- هذه لفظة خادعة، فأي دين يتعامل مع بشر. وحين تتعامل مع البشر فأنت تتعامل مع العنف ومع السلام ومع أصناف متفاوتة بشدة من البشر، فبطبيعة الحال سيتعامل الدين مع العنف وسيتعامل مع السلوك العدواني، فأن تتوقع من الدين ألا يتعامل مع هذه المسألة فأنت لا تعرف البشر -هذا حلم لا يمكن أن يحدث-، ولا توجد ديانة ولا فكرة ولا فلسفة ولا مذهب يتسم بشمولية المعالجة لقضايا الإنسان لا يتعامل مع العنف، وإلا فهو مذهب غير متكامل.

الإسلام يساعدنا للتوجه نحو السلام

هذه هي العبارة الصحيحة، وهذه هي العبارة التي نوافق عليها!».

وقد عاش الجنس البشري في حاضرة الإسلام قرابة ألف عام، وقد أمدّ الإسلام المدن بالنور والعلم والخير والجمال، ونهضوا بعبء الحضارة، فكان الناس يدخلون في الدين باضطرادٍ ثابت لما رأوا من عدل الإسلام وعظمته وكماله.

(1) رواه الجماعة إلا النسائي.

بل إنه حين فتح السلطان العثماني مراد الثاني مدينة سلانيك عام 1431 م جاءه وفد من مدينة (يانيا) التي كانت آنذاك تحت حكم إيطاليا، فقال رئيس الوفد للسلطان العثماني مراد الثاني: نحن أيها السلطان لسنا بمسلمين، بل نحن نصارى، ولكننا سمعنا كثيرًا عن عدالة المسلمين، وأنهم لا يظلمون الرعية، ولا يُكرهون أحدًا على اعتناق دينهم، وإنّ لكل ذي حقٍ حقه لديهم، لقد سمعنا هذا من السيّاح، ومن التجّار الذين زاروا مملكتكم، لذا فإننا نرجو أن تشملنا برعايتكم وبعطفكم، وأن تحكموا بلدنا لتخلصونا من حكامنا الظالمين. ثم قدّموا له مفتاح المدينة الذهبي. واستجاب السلطان لرجاء أهل مدينة (يانيا)، وأرسل أحد قواده على رأس جيشٍ إلى هذه المدينة، وتم فتحها فعلاً في السنة نفسها، أي في سنة 1431 م.

ومثال آخر أعجب من ذلك: حين فتح سعيد بن عثمان سمرقند صلحًا، فمات سعيد وتولى من بعده قتيبة بن مسلم ولاية خراسان ففتح سمرقند عنوةً دون أن يُخطرهم فقبِل أهل سمرقند الأمر على مضض، حتى آلت الخلافة إلى عمر بن عبد العزيز سنة 99هـ وبلغهم عنه ما اشتهر به من العدل ونصرة الحق فأنابوا عنهم وفدًا يلقى الخليفة ويشكو له ما فعله بهم قتيبة، فاستقبل الخليفة الوفد واستمع إلى مظلمته، ثم كتب إلى سليمان بن أبي السرح عامله على سمرقند كتابًا يدعوه إلى القضاء بالحق في تلك الظلامة، فأحال سُليمان القضية إلى جُميع بن حاضر قاضي سمرقند.

واستمع القاضي إلى شكاية أهل سمرقند وإلى شهادة الناس وجيش قتيبة. وعندما استبان القاضي الحقيقة أصدر حكمه المجلجل الذي قضى بإخراج الجيش المسلم من سمرقند، وكذلك إخراج المسلمين الذين دخلوها بعد الفتح، وهنا أخطر الوالي الخليفة بالقرار فجاء الرد بتنفيذ الحكم كاملاً، فأصدر قراره إلى الجيش بالرحيل وإلى المسلمين المدنيين بالمغادرة،

وبينما المدينة في رجةٍ بسبب هذا العدل والإنصاف الذي لم يخطر على بال أهل سمرقند، وإزاء ذلك لم يسعهم إلا الإعلان عن تنازلهم عن شكواهم والمطالبة بإبقاء الحال على ما هو عليه.

وأسلم خلقٌ كثير من أهل سمرقند، وأصبحت سمرقند حاضرة إسلامية كبرى.

لقد انتصر الحق والأخلاق على المكاسب المادية والأرض.

ثالثًا: لكن ألا يوجد مَن يشوه صورة النظرية؟

صحيح؛ وهذا أمر بديهي في حال البشر! لكن عندما يحدثك أحدهم عن جماعات تكفيرية، يمكنك أن تُحدثه بهدوء عن حضارة عظيمة كانت تحتوي تعددية وأثنيات لم يُرى لها مثيلًا -الحضارة العثمانية وهذا تطبيق أيضًا-، وكانت الأندلس قلعة في الثقافة والفكر وكانت العواصم الكبرى والمدن الإسلامية مثل بغداد والكوفة والبصرة ودمشق وقرطبة والقيروان والقاهرة مفتوحة لكل الأجناس والأديان، وكانت المناظرات تُعقد ليل نهار، وكانت الناس يأتون من الدنيا كلها يتلقون العلم، وكان العلم تجارةً رائجة -وهذه كلها تطبيقات-.

فالتاريخ مستودع ضخم يمكنك أن تُخرج منه ما تريد أن تُظهره، لكن في النهاية تبقى النظرية هي الفيصل، ويبقى أيضًا التاريخ الأغلب وليس الجزئيات التي يركز عليها من يُريد أن يُشوّه الصورة بأكملها بهذه الجزئيات التي تُنسب إلى البشر هو الحكم!

رابعًا: إذن دعنا نتحدث مباشرةً عن جهاد الطلب من خلال النص، لماذا يوجد جهاد الطلب؟

عليك أن تعي أن معركة الدين ليست مع أعراقٍ أو أجناس.

معركة الدين لا علاقة لها بإبادةٍ أو تطهيرٍ عِرقي.

معركة الدين لم تقم يومًا ما من أجل لون البشرة، أو بسبب جنسٍ مختار favoured race، ولا مقاس جمجمة محدد.

وهذا على العكس تمامًا من فلسفات إلحادية قامت على أكتافها الحروب العالمية والأيديولوجيات الإجرامية كالفاشية والنازية والستالينية.

فمعركة الدين الحقيقية مع الباطل، أينما وُجد، وفي أي مكانٍ قامت له دولة.

وهذا واجب الدين، بل لن يكون دين سماوي بدون مسئولية عُظمى كهذه تُلقى على عاتقه.

فالدين يقاتل الطواغيت التي تمنع نشر رسالته للشعوب، وبعد مقاتلتهم وبعد إيصال رسالته يترك لتلك الشعوب حريتها الكاملة في الانتقال إلى ذلك الدين أو بقائها على الكفر.

وفي لحظة مقاتلة الطواغيت -جهاد الطلب- إذا جاء في جيش الطواغيت امرأة أو أجير أو أطفال أو كهنة فلا يجوز التعرض لهم.

فكما في الحديث الصحيح: «لا تقتلوا شيخًا فانيًا ولا طفلًا ولا صغيرًا ولا امرأةً».

وفي الحديث الآخر: «لا تغدروا، ولا تغلوا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا الولدان، ولا أصحاب الصوامع»[1].

خامسًا: قد يقول الملحد: هذا كلامٌ جيد؛ لكن لجهاد الطلب مصلحة مادية «الغنيمة»؟

هذا خطأ تمامًا، بل العكس هو الصحيح، فالغنيمة في الإسلام عبء

(1) الحديث أصله في البخاري، واللفظ لأحمد.

وهَم، وتقليل للأجر الأُخروي، قال رسول الله ﷺ: «ما من غازيةٍ تغزو في سبيل الله فيصيبون الغنيمة، إلا تعجلوا ثلثيّ أجرهم من الآخرة ويبقى لهم الثلث، وإن لم يصيبوا غنيمة تم لهم أجرهم»[1].

إذن فالغنيمة في أصلها عبء؛ لكنها بُلغة ليتقوى بها المسلمون في مقاتلتهم.

سادسًا: هنا اتضحت أفرع المسألة بفضل الله، لكن يبقى إشكال أخير وهو: هل يُقتل هؤلاء الطواغيت فقط لكفرهم؟

هذا خطأ شديد وعليك أن تعيد قراءة ما سبق، فالطواغيت لم يُقاتَلوا إلا لأنهم وقفوا في وجه رسالة الإسلام وحرمانهم لشعوبهم من وصولها إليهم.

والقتال في الإسلام إنما وجب في مقابلة الحراب لا في مقابلة الكفر.

أُكرر مرةً أخرى: القتال في الإسلام إنما وجب في مقابلة الحراب لا في مقابلة الكفر.

ولذلك لا يقاتَل النساء ولا الصبيان ولا الزمني ولا العميان ولا الرهبان مع أنهم كلهم كفار وفي جيش الطواغيت.

وهذه كانت سيرة رسول الله ﷺ في أهل الارض ؛ وسيرة صحابته من بعده فكان ﷺ يقاتل مَن حاربه، إلى أن يدخل في دينه، أو يهادنه، أو يدخل تحت قهره بالجزية -أي يتيح نشر رسالة الإسلام في بلده- وبهذا كان يأمر سراياه وجيوشه إذا حاربوا أعداءهم، فإذا ترك الكفار محاربة أهل الإسلام وسالموهم وتركوا رسالة الإسلام تظهر كان في ذلك مصلحة للشعوب رجاء إسلامهم إذا شاهدوا أعلام الإسلام وبراهينه، أو بلغتهم أخباره، فلا بد أن يدخل في الإسلام بعضهم، وهذا خيرٌ من قتلهم.

(1) صحيح مسلم، رقم الحديث 3528.

وجهاد الطلب هو سنة الأنبياء من قبل، فقد جاهد موسى وجاهد يوشع بن نون وجاهد داوود وجاهد سليمان عليهم الصلاة والسلام، كلهم جاهدوا جهاد طلب، ولم يخرج يوشع بن نون من مصر إلا في سبيل جهاد الطلب، ولم يُؤمر موسى بمقاتلة طواغيت كنعان إلا في سبيل جهاد الطلب.

وقد جاهد النبيون والمرسلون وعانوا الأمرين مع الطواغيت والمتجبرين.

لكنها سنة الله الماضية يجريها في الأرض حيث دار الابتلاء والاختبار و تمحيص الناس وصَهرهم في بوتقة الإيمان ليتميز الخبيث من الطيب، والمؤمن من الكافر، فلا يبقى إلا صادق الإيمان قويُّ العقيدة.

سابعًا: هل يجوز للملحد أن ينتقد جهاد الطلب؟

قوام الإلحاد ككل على فلسفة الصراع من أجل البقاء، والبقاء للأصلح Survival for the Fittest، والصدام المستمر الذي لا يتوقف perpetual conflict.

فالملحد الذي ينتقد الجهاد أو حتى الإبادة الشمولية هو يقر مسبقًا انهيار إلحاده وعدم صلاحيته وبؤس معطياته.

فطبقًا لإلحاده -لو كان يفهم معنى الإلحاد- تتحول جرائم الإبادة الشمولية والتطهير العرقي إلى فضائل عليا في سبيل البقاء للأصلح وتنقية الأعراق.

وفي سبيل الإلحاد قتل الملحد ستالين 800 ألف ملحد سوفيتي، فضلاً عن عشرات الملايين من المتدينين[1].

وداخل منظومة الإلحاد تختفي القيمة والمعنى فيتساوى إحراق الأطفال بقنابل النابلم مع مضغ كيس شيبس، فمضغ كيس شيبس يتسبب في إبادة ملايين الباكتريا في فمك، ولا يوجد إلحاديٌّ تفاضل بين الباكتريا والبشر.

(1) Seumas Milne: The battle for history. The Guardian. 12 September 2002.

يقول آرثر ألين ليف Arthur Allen Leff أستاذ القانون بجامعة يال بالولايات المتحدة الأمريكية: « لا توجد طريقة لإثبات أن حرق الأطفال بقنابل النابالم هو شيء سيئ».

there is today no way of 'proving' that napalming babies is bad[1].

فالملحد الذي ينتقد الجهاد ليس بملحد بل هو عبء على الإلحاد والملحدين.

﴿ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ ﴾ [التوبة: 29].

أحد الزملاء الملاحدة سألني عن قوله تعالى: ﴿ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾ [التوبة: 29].

وأنه أمر إلهي مباشر بقتل كل كافر!

الرد:

(1) في البداية نتفق أن الإلحاد يبيح قتل أهل الأرض جميعًا؛ لأن الحياة لا معنى ماديًّا لها ولا تفسير في الإطار المادي لوجودها، فجميع البشر مجرد نفايات نجمية بلا قيمة -كما قال كارل ساغان-، فلا فرق بين أن تبيد أهل الأرض وبين أن تكنس الرصيف أمام منزلك -لأنك بكنس الرصيف تقتل آلاف المستعمرات البكتيرية التي تقطنها ملايين الباكتريا، ولا فرق تطوريًّا بين الإنسان والباكتريا إلا فرق في الدرجة-!

(1) Economic Analysis of Law: Some Realism about Nominalism (1974), p.454.

(2) اعتبار أن قتال الكفار شبهة هذا يعني خطأ الإلحاد، فأنت تقر داخلك أن للحياة معنًى وللوجود قيمة وغاية، وهذا ينسف الإلحاد.

واستحضار شبهات تتعلق بالقتال هذا يؤكد أنه لا يوجد ملحد واحد يلحد إلحادًا كاملاً على وجه الأرض.

وهذا يعني قيمة التكليف الإلهي الذي صبغ الله عليه البشر جميعًا، فحتى الملحد يُقر بقيمة الإنسان وغاية وجوده.

لكن قيمة الإنسان لن تتحقق إلا بمددٍ من عالمٍ آخر غير عالمنا المادي، وهذا يسقط الإلحاد أو يسقط معنى وجود الإنسان ككل فليختر الملحد أحدهما!

(3) بخصوص الآية الكريمة ﴿ قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾ [التوبة: 29]، لو أكملها صاحب الشبهة فقط لانتهى الإشكال، فنحن نقاتل fight: أي ندفع! وليس نقتل kill.

ثم نحن نقاتل مَن؟

أكمل الآية: ﴿ قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ﴾ [التوبة: 29].

الذين لا يحرمون ما حرم الله ورسوله، فهم يستبيحون المحرمات وينتهكون الأعراض، وهؤلاء يقاتلهم كل الشرفاء وكل الدساتير حتى الوضعية؛ فالكافر الذي اجتمع مع كفره إباحته لكل المحرمات واستباحته للأعراض هذا يجب أن يقاتله المسلمون.

﴿ قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ﴾.

(4) أما الكافر المجرد فلا يُقتل لكفره، ولا توجد آية ولا حديث صحيح ولا ضعيف ولا حتى موضوع تقرر أن الكافر يُقتل لأنه كافر، بل إن الإسلام كفل للذمي الكافر الذي لا يؤمن بالله ولا برسوله منتهى الرعاية والصيانة.

بل الإسلام صريح في أن مجرد التعرض للمعاهَد أو الذمي الكافر، جريمة شنعاء!

عن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن النبي ﷺ قال: «من قتل معاهداً لم يرح رائحة الجنة، وإن ريحها يوجد من مسيرة أربعين عاماً»[1].

تخيل أن قتل كافر لا يجعلك ترح رائحة الجنة؟

أيضًا اقرأ قوله تعالى: ﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۚ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ ۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾ ﴾ [البقرة: 190 - 193].

(5) أجاز لك الإسلام التعايش مع الكافر المسالِم، بل وأجاز لك بِرّه ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ ﴾ [الممتحنة: 8].

(6) ينهى الإسلام صراحةً عن أي ظلم للكافر بل أمرك بأن تعدل معه ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [المائدة: 8].

---

(1) أخرجه البخاري في صحيحه.

المدهش أني بعد أن أجبت هذا الزميل بما تقدم وصفني بالمسلم الكيوت- اللطيف-!

مع أني فسرت القرآن بالقرآن وهذه قمة الضبط وأعلى درجات التفسير كما يقرر الأصوليون!

ولذا علقت عليه قائلاً: إذن إسلامي كله كيوت!!

لكن يبدو أن الزميل تأثر بشبهات الملاحدة حيث يزعمون بناءًا على قول بعض المتأخرين أن هذه الآية آية السيف«التوبة:29» نسخت قرابة مائتي آية من كتاب الله، وهي آيات الموادعة والمصالحة وآيات ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ ﴾ [البقرة: 256]، وآيات ﴿ لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ ٦ ﴾ [الكافرون: 6]، وآيات الأمر بالجنوح للسلم ﴿ ۞ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٦١ ﴾ [الأنفال: 61].

ولا يدري المسكين أن هذا قول ضعيف متأخر لا يُعتد به، وقد وصف ابن الجوزي في كتابه «نواسخ القرآن» القائلين به بأنهم: «لا فهم لهم من ناقلي القرآن، إنما نسخت آية السيف حكماً واحداً هو إتمام العهد لمن عاهدوه من المشركين بالكف عن قتالهم، فنسخت ذلك».

والأصل في التعامل مع كافة المشركين قوله تعالى: ﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ١٩٠ وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡ وَأَخۡرِجُوهُم مِّنۡ حَيۡثُ أَخۡرَجُوكُمۡۚ وَٱلۡفِتۡنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلۡقَتۡلِۚ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمۡ عِندَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِيهِۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمۡ فَٱقۡتُلُوهُمۡۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ ١٩١ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٩٢ وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِۖ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَلَا عُدۡوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ١٩٣ ﴾ [البقرة: 190 - 193].

لكن هذا حال الملحد:

أ- اتباع ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله!

ب- اتباع أقوال المتأخرين!

ج- ترك الأثر الصحيح «القرآن والسنة الصحيحة»، والتعلق بقال فلان!

د- ترك المُحكم الذي يقرر المصالحة والموادعة، والالتفات إلى الأحكام الخاصة!

هذا هو أصل شبهات الكافرين، أما غير ذلك فوطابهم خاوٍ وحججهم صفر.

عورة الحرة وعورة الأمة

سؤال تكرر مِن قبل الملحدين وهو: هل ثمة تفرقة بين عورة الحرة وعورة الأمة؟

الجواب:

المشكلة أن الملحد العربي ضحل الثقافة قصير النظر، فهو لا يعرف أن الإماء في الأصل، كُنَّ كالقواعد من النساء لكبرهن وزهد الناظر اليهن فيهن.

وهؤلاء ليس عليهن الستر الكامل سواءًا كن حرائر أو إماء.

وقد ذكر ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله فقال: «إنَّ الإماء في عهد الرسول عليه الصَّلاة والسَّلام، وإن كُنَّ لا يحتجبن كالحرائر؛ لأن الفتنة بهنَّ

أقلُّ، فَهُنَّ يُشبهنَ القواعدَ من النِّساء اللاتي لا يرجون نكاحاً، قال تعالى فيهن: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍ بِزِينَةٍ﴾ [النور: 60].

وقال: وأما الإماء التركيّات الحِسَان الوجوه، فهذا لا يمكن أبداً أن يَكُنَّ كالإماء في عهد الرسول عليه الصَّلاة والسَّلام، ويجب عليها أن تستر كلَّ بدنها عن النَّظر، في باب النَّظر.. فالمقصود من الحجاب هو ستر ما يُخاف منه الفِتنة بخلاف الصَّلاة، ولهذا يجب على الإنسان أن يستتر في الصَّلاة، ولو كان خالياً في مكانٍ لا يطَّلع عليه إلا الله؛ لكن في باب النَّظر إنما يجب التَّستر حيث ينظر الناس. قال: فالعِلَّة في هذا غير العِلَّة في ذاك، فالعِلَّة في النَّظر: خوف الفتنة، ولا فرق في هذا بين النِّساء الحرائر والنِّساء الإماء».

وقال ابن القيم رحمه الله في «إعلام الموقعين»: «وأما تحريم النظر إلى العجوز الحرة الشوهاء القبيحة، وإباحته إلى الأمة البارعة الجمال، فكذب على الشارع، فأين حرم الله هذا وأباح هذا؟ والله سبحانه إنما قال: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ﴾ [النور: 30]».

فعورة الأمة كعورة الحرة سواءً بسواء، فلم يرد نص في الشارع بالتفرقة!

قال أبو محمد ابن حزم رحمه الله: «إن الأمة كالحُرَّة؛ لأن الطَّبيعة واحدة والخِلْقة واحدة، والرِّقُّ وصف عارض خارج عن حقيقتها وماهيَّتها، ولا دليلَ على التَّفريق بينها وبين الحُرَّة».

ثم قال: «وقد ذهب بعض من وهل في قول الله تعالى: ﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾ [الأحزاب: 59]، إلى أنه إنما أمر الله

تعالى بذلك؛ لأن الفساق كانوا يتعرضون للنساء للفسق فأمر الحرائر بأن يلبسن الجلابيب ليعرف الفساق أنهن حرائر فلا يتعرضوهن». ونحن نبرأ من هذا التفسير الفاسد الذي هو إما زلة عالم أو وهلة فاضلٍ عاقل أو افتراء كاذبٍ فاسق؛ لأن فيه أن الله تعالى أطلق الفساق على أعراض إماء المسلمين، وهذه مصيبة الأبد. وما اختلف اثنان من أهل الإسلام في أن تحريم الزنا بالحرة كتحريمه بالأمة، وأن الحد على الزاني بالحرة كالحد على الزاني بالأمة ولا فرق، وأن تعرض الحرة في التحريم كتعرض الأمة ولا فرق».

وقال أحمد بن حنبل في الأمة: إذا كانت جميلة تنتقب، وهذا حكم الحرة لا فرق.

أما الأمة التي لا يُخشي منها الفتنة فلها كشف الوجه كالحرة، وعلي هذا كان فعل عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في الروايات الواردة، قال الشيخ محمد إسماعيل المقدم حفظه الله: «الظاهر بضميمة الآثار الآتية عن الفاروق أنه عبر هنا - أي في قوله: اكشفي رأسك - عن الجزء بالكل و أن مقصوده: اكشفي وجهك، و الله أعلم»[1].

ونقل حفظه الله رد الشيخ أبي هشام عبد الله الأنصاري علي الدكتور محمد تقي الدين الهلالي رحمهما الله، و فيه قوله: «وأما ما قاله فضيلة الدكتور من أن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان يضرب الإماء علي ستر الرأس فليس بصحيح، بل الصحيح أنه كان يضربهن علي ستر الوجه»[2].

وفي ذلك تيسيرٌ علي الإماء. والله أعلم.

---

(1) أدلة الحجاب: 208 في الهامش.

(2) أدلة الحجاب: 230.

حد الرجم

هل حد الرجم مذكور في القرآن الكريم؟

حد الرجم ليس في كتاب الله، ولكنه في السنة القولية والتقريرية!

وله شرطان وهما: شهادة أربعة رجال على الواقعة. وهذا متعذر إن لم يكن مُحال، أو الاعتراف: وهنا يعترف الرجل أو المرأة بالفعل. وهذا غير مرغوبٌ فيه. بل الأصل أن الإنسان يستغفر ربه ويرجع دون أن يرفع أمره إلى القاضي.

ولذا في المرأة الغامدية راجعها النبي ﷺ أكثر من مرةٍ وردّها إلى أهلها أملاً في أن تستغفر ولا يُقام عليها الحد، لكنها عادت في كل مرةٍ راغبةً في التطهر من الذنب.

وهنا يقوم الحاكم بإقامة الحد الشرعي عليها وهو الرجم حتى الموت، ولو حاولت الهروب أثناء إقامة الحد أعانها، وهذه سنة متروكة -حيث غضب النبي ﷺ حين لحق الصحابة بماعز حين حاول الهرب أثناء الرجم-.

المهم خلاصة ما نقوله هنا أن: الحدود للزجر أكثر منه للتطبيق، ولذا كان هناك بلد مضرب المثل في قطع الطرق واستباحة الحرمات، ما أن حكمتها الشريعة حتى صارت أقل بلاد العالم جريمة -أقصد بهذه البلد السعودية حين أقام فيها محمد بن عبد الوهاب رحمه الله الشريعة الإسلامية-.

وإليك قصة المرأة الغامدية باختصار: بينما كان رسول الله ﷺ جالسًا يومًا في المسجد وأصحابه وإذا بامرأةٍ تدخل باب المسجد حتى وصلت إليه عليه الصلاة والسلام، ثم وقفت أمامه وأخبرته أنها زنت وقالت: يا رسول

الله أصبت حدًّا فطهرني، فاحمرّ وجه النبي ﷺ حتى كاد يقطر دماً، ثم حوّل وجهه إلى الميمنة، وسكت كأنه لم يسمع شيئاً.

فقد حاول الرسول ﷺ أن ترجع المرأة عن كلامها، فقالت: أُراك يا رسول الله تريد أن تردني كما رددت ماعز بن مالك، فوالله إني حبلى من الزنا.

فقال لها النبي ﷺ، بعدما علم أنها حبلى من الزنا: «اذهبي حتى تضعيه». فوضعته، وفي أول يومٍ أتت به وقد لفّته في خرقةٍ، وقالت: يا رسول الله طهرني من الزنا. فقال لها: «ارجعي وأرضعيه». فذهبت إلى بيت أهلها فأرضعت طفلها حتى فطمته، فأقام عليها الحد، وقال: «لقد تابت توبةً لو قُسمت على سبعين من أهل المدينة لوسعتهم».

الشاهد من القصة أن الحدود ليست غاية في ذاتها وليست هدفًا.

بل الشارع يُضيقها إلى أقصى حد، ويتيح الفرص للتفلت منها، فالتوبة أفضل وأيسر وحياة المسلم خيرٌ من موته.

وولي الأمر الذكي إذا جاءته امرأه تريد التطهر يضربها حتى تهرب فإذا هربت تركها، ولذا لم يُذكر في تاريخ أمة الإسلام إقامة حدود إلا في أضيق الحالات ما به ينزجر جموع المسلمين عن ارتكاب الجرم. والله أعلى وأعلم.

إشكالات حول المرأة!

(التأصيل الشرعي في الرد على الإشكالات حول المرأة من وحي كتاب العقلية الليبرالية في رصف العقل ووصف النقل، عبد العزيز بن مرزوق الطريفي حفظه الله).

المرأة والمعركة حولها حتى تكون معهم!

مصدر ضلال الإلحاد التدرج البطيء في الخطأ واتباع الهوى فالسمع يأنف الدق الخفيف لكن سرعان ما يألفه، والطحان ينام على صوت الطاحون ولو توقف ربما استيقظ، فأذنه التي أنفت الدقة الأولى هي التي تنتبه الآن إذا توقفت تلك الدقة -وهذا المثال ذكره الشيخ عبد العزيز الطريفي حفظه الله-.

وكذلك الإلحاد فهو يقوم على التدرج البطيء، فبَعد إلف التعري يصبح مدرسة حضارية، ويصبح التحشم شؤم ورجعية ﴿أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ۝٨٢﴾ [الأعراف: 82].

والمرأة هي مُستهدف الإلحاد في كل مرحلةٍ من مراحله، والمرأة في كل حالٍ هي تابع يُراد بها الخير أو الشر، لكن يبدو أن هؤلاء الملاحدة قد نسوا ان إلحادهم قد أحال المرأة إلى موضوع إعجابٍ أو موضوع استغلال، وفي كلتا الحالتين إلحادهم يحرم المرأة من شخصيتها، وهذا نُلاحظه بشده في طوابير الموديلات فقد تحولت المرأة من كائن إنساني مُميز إلى حيوانٍ جميل.

بينما المرأة في الدين تمثل رمز وسر وكائن مُقدس، والجنة تحت أقدامها، والعلاقة بينها وبين الرجل علاقة مقدسة، وعلى الرجل ميثاق غليظ نحو رعاية المرأة وحمايتها وإحاطتها من كل سوء ﴿وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ۝٢١﴾ [النساء: 21].

وقال رَسُولُ اللهِ ﷺ: «خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِأَهْلِهِ وَأَنَا خَيْرُكُمْ لِأَهْلِي»[1].

لكن من شؤم الإلحاد العربي أنه اصطدم بصرح الإسلام، فلم يجد فيه ما يجعله يغرّر بالمرأة، فعاد خائبًا مخذولاً.

(1) أخرجه الترمذي، وصححه الألباني في صحيح الجامع.

ولم يبق له إلا الصياح بأشياءَ مثل:

1- قوله تعالى: ﴿وَٱضۡرِبُوهُنَّ﴾ [النساء: 34].

ومراد الشرع في ﴿وَٱضۡرِبُوهُنَّ﴾ إظهار حق الرجل بالطاعة عند التمرد ولو برمي المسواك، وليس المراد الإيلام فضلاً عن التعذيب.

ولذا عامة مفسري السلف كابن عباس وعطاء يقولون: الضرب بالسواك وشبهه. مع كون الضرب بالسواك الذي لا يؤلم الصبي هو آخر مراحل علاج الخلاف بين الزوجين بعد النصيحة والهجران.

لكن هل نسي الملحد أن داروين كان يقرر أن المرأة لا تصلح إلا لمهام المنزل، وإضفاء البهجة على البيت، فطبقًا له المرأة في البيت أفضل من الكلب[1].

وهل نسي الملحد أنه طبقًا لإلحاده حجم المخ الخاص بالمرأة يكاد يطابق ذلك الخاص بالغوريلا، والمرأة تأتي في المرحلة السفلى من مراحل تطور الإنسان[2].

الذي لن ينساه الملحد هو الترويج لإلحاده ولو بضده!

2- أن الإسلام لا يوجد فيه تسوية كاملة بين الرجل والمرأة.

الذي يريد التساوي بين المعادن لأنها معادن هذا جاهل بفروق التركيب.

فالتباين في الجسم والفطرة والرغبة يوجب مقدار من التباين في

(1) Charles Darwin, The Autobiography of Charles Darwin 1809-1882, New York pp. 232-233.

(2) Gould, The Mismeasure of Man, p.105.

الواجبات يتناسب مع مقدار التباين الفطري، وهذا كمال العدل، ولا يُلتفت للمهرف الذي لا يجيد إلا العويل.

فقد حرّم الله أشياء على الرجال أحلّها للمرأة موافقةً لخلقتها، وأوجب على الرجال أشياء ولم يُلزم بها المرأة مراعاةً لجلدهم وقوة بأسهم، والعكس بالعكس.

فأوجب على الرجال الجهاد وصلاة الجماعة والنفقة ولم يُلزم المرأة بشيءٍ من ذلك.

أما جل الأحكام وكل الأجور المبنية على فعل الخير، أو الذنوب المبنية على فعل الخطأ فيتطابق فيها الرجل والمرأة.

ولا يكون تخصيص حكمٍ برجلٍ أو امرأةٍ إلا بدليل، ولا يكون هذا التخصيص إلا برحمةٍ وحكمة.

والجنس الواحد يتفاوت في واجباته، فالشاب الصغير يختلف عن الرجل المسن، فيلزم الصغير أن يُسلم على الكبير، ولا يجوز للصغير أن يُقبل زوجته وهو صائم على عكس الكبير -عند بعض الأئمة- ولا يتقدم الصغير على الكبير في الحديث ولا الشهادات.

بل إن التساوي بين الجميع قد يفضي إلى التنازع، فإذا تساوت الواجبات تنازع الأب والزوج في النفقة على الزوجة!

ولا أعرف جهةً سواءً علمية أو رياضية أو فكرية أو فلسفية ترضى التسوية بين الرجل والمرأة لعلم الجميع أن هذا ظلم وجهل وإسراف في حقوقٍ على حساب حقوق.

ومن نافلة القول هنا أنني كنت يومًا ما من متمرسي لعبة الشطرنج- وتوقفت خروجًا من النزاع الفقهي- المهم أن لعبة الشطرنج هي لعبة عقلية

ذهنية تجريدية. ومع ذلك تستقل بطولات الشطرنج الخاصة بالمرأة عن تلك الخاصة بالرجل تمامًا!

ومن أصل 1441 بطل شطرنج عالمي حاصل على لقب أستاذ كبير Grand Master GM في تاريخ اللعبة لم يحصل على اللقب سوى 31 امرأة[1].

ويتقرر الوصول للقب أستاذ كبير الحصول على 2500 نقطة، هذا في الرجال.

أما المرأة فيكفي فقط 2300 نقطة لتحصل على لقب أستاذة كبيرة WGM Woman Grandmaster

ويعرض د. سيمون بارون كوهين أستاذ علم النفس والأمراض النفسية بجامعة كمبريدج، نتائج أبحاثه التي استمرت عشرين عاماً في مجال التمايز العقلي والنفسي بين الرجال والنساء في كتاب نشره عام 2003 بعنوان «الفوارق الجوهرية بين المخ الذكوري والمخ الأنثوي».

The truth about male and female brain, the essential difference

ويمكن تلخيص محتوى الكتاب في قول د. كوهين: «إن المخ الأنثوي قد تم تشكيله وإعداده سلفاً ليقوم بالمشاركة والتعاطف بينما تم تشكيل المخ الذكوري ليقوم بالوظائف التحليلية والتنظيمية».

The female brain is predominatly hard wired for empathy, while the male brain is predominatly hard wired for understanding and building systems

يقول دكتور سيمون بارون كوهين: «لا شك أن إنكار هذه الفوارق الجنوسية يعد أكبر محاولات التدليس في تاريخ العلم».

(1) http://ratings.fide.com/download.phtml.

ولذا تتطلب دراسة الفيزياء مثلاً قدرات تحليلة وإنشائية لا قِبل لمُخ المرأة بها، ومن بين 170 عالمًا حاصلين على جائزة نوبل في العلوم هناك ثلاث سيدات فقط.

كما أظهرت دراسة أجرتها الهيئة القومية للعلوم بالولايات المتحدة أن 23 % من علماء البيولوجيا من النساء، بينما تكون النسبة 5 % في الفيزياء و3 % في الهندسة[1].

فقضية التسوية التامة هي قضية ظالمة للمرأة، وجاهلة بأبسط أبجديات الحياة.

تقول الدكتورة أليس روزي Alice Rossi إحدى عالمات الاجتماع الشهيرات، أن من ينكرون الفروق الفطرية بين تفكير وسلوك كلٍ من الرجال والنساء يقفون في وجه علوم البيولوجيا وعلوم المخ والأعصاب، وترى أليس روزي أن إنكار هذه الفوارق يعتبر كالوقوف في وجه تغيرات الطقس أو إنكار وجود جبال الهيمالايا، وترى د. روزي أن الفوارق المدهشة في تركيب المخ وآلياته تؤثر في مزاجنا وأولوياتنا وآمالنا وطموحاتنا وفي قدراتنا ومهاراتنا، إنها ببساطة فروقٌ في ذاتنا وكينونتنا، إن إنكار تلك الفروق لا يعد إخلالاً بحقائق العلم فحسب ولكنه إخلالٌ أعمقُ بإنسانيتنا كرجال ونساء وتهديدٌ كبيرٌ لحياتنا الأسرية[2].

إن محاولات المساواة بين الرجل والمرأة هي وقوف في وجه الحتمية البيولوجية والفطرة الإنسانية، والخاسر الحقيقي نتيجة هذه المحاولات

(1) Women in science and engineering, American scientist, 79 p404.

(2) Rossi A.S., Gender and Parenthood , Gender and Lifecourse , aldine, New York.

هو المرأة التي تُدفع إلى طريقٍ مليءٍ بالتعاسة من خلال إنكار الفوارق البيولوجية.

لكن يبقى سؤالٌ هام وهو: لماذا دائماً تَعتبر الداعيات إلى المماثلة بين الجنسين أن قيمَ الرجال هي القيمُ الأساسية التي ينبغي أن تتبناها النساء، وأنها هي المقياس والمرجع الذي نحكم من خلاله على الافضلية؟

إن أيَّ محاولةٍ لأن تكون المرأة أكثرَ شبهاً بالرجل تعني أنها ستكون أقلَّ سعادةً كامرأة![1].

تقول الدكتورة آن موار Anne Moir في كتابها «جنس المخ Brain Sex» ما يلي: «لم يمر على البشرية عبر التاريخ وقتٌ سعت فيه بإصرار إلى مخالفة الفطرة الإنسانية والطبيعة البيولوجية كما يحدث الآن في حضارتنا المادية الحديثة، إنه زمانٌ بشِعٌ يُصارع فيه كلٌّ من الرجل والمرأة ضد الفوارق الفطرية الطبيعية بينهما»[2].

وللإنسان أن يتساءل: لماذا الحضارة بنمطها الغربي الحديث تتنكر لهذه الحقائق العلمية؟ لماذا الوقوف ضد الحتمية البيولوجية؟؟ ولمصلحة من؟؟

يقول دكتور ليونيل تايجر أستاذ الأنثروبولوجيا الأمريكي أن: «مقولة التماثل بين الذكور والإناث قد أدت إلى قدرٍ كبير من عدم المساواة، ذلك أن إنكار الفوارق يعني استمرار كل مؤسسات المجتمع في ممارسة مهامها على النمط الذكوري. وعلى النساء أن يتنافسن في عملهن بالأسلوب والمقاييس الذكورية مما يعني الكثير من الإحباط والتوتر والاكتئاب نتيجة الإخفاق

(1) Tannen D., you just don't understand: women and men in conversation. William Morrow.

(2) Moir A., (1992) Brain Sex, chapter 11, Dell publishing New York.

في تحقيق مستويات ذكورية، فإذا كان أداء الفتيات في امتحانات القدرات والمهارات والامتحانات التحريرية ينخفض أثناء الدورة الشهرية بمعدلات تصل إلى 14 % أليس من حق الإناث أن يُراعي الممتحنون ذلك عند تقويم نتائجهن، أم نتجاهل هذه الحقيقة ونعاملهن كذكور؟».

أما الدكتور أحمد عكاشة أستاذ الطب النفسي بجامعة عين شمس، والرئيس الأسبق للجمعية العالمية للطب النفسي فيقول: «لقد توصل العلماء في بدايات العام 2011 إلى أن هناك اختلافاً في الشحنات العصبية الكهربية الصادرة عن مخ كلا الجنسين، سواءً عند ممارسة النشاطات العقلية كالقراءة أو في حالة الاسترخاء، لقد ثبت أن هناك انفصالاً بين مشاعر الرجل ومنطقه بمعنى أن الرجل عندما يحب فإنه يحب بلا منطق، وعندما يمنطق الأمور فإنه يُمنطقها بلا عاطفة، في حين أن المرأة تُمنطق الأحداث بعاطفية، وفي قمة عواطفها لا تتخلى عن المنطق، ولقد تبين من الاكتشافات الحديثة أن المرأة عندما تتسلط عليها الأفكار الحزينة تبذل جهداً عقلياً أكثر مما تبذله عند حل أعقد معادلات الرياضة الحديثة»[1].

ولا أدري مَن يغازل الملحد بمطلب التسوية التامة وعلى حساب من؟[2].

3- المواريث في الإسلام...

من يتحدث من الملاحدة عن باب الموازيث في الإسلام وأن للذكر مثل حظ الأنثيين، يتحدث عنه مجرِدًا له عن نظام الأموال المتوازي المكافيء في

(1) مقدمة الدكتور أحمد عكاشة لكتاب المخ ذكر أم أُنثى، ص5.
(2) بعض الاقتباسات من كتاب: المخ ذكر أم أنثى، د. عمرو شريف، مكتبة الشروق الدولية.

الدين، فتقسيم الإسلام للأموال يسير وفق نظام كامل وبناءٍ متكامل وليس حالةً واحدة، فلا يجوز مثلاً في الإسلام تحمل المرأة نفقة نفسها سواءً المأكل أو الملبس أو العلاج، ولا يجوز أن تدفع مهرها ولو تنقلت بين الأزواج.

ولو طلّق الرجل المرأة قبل أن يدخل وجب أن ينفق عليها حتى تنتهي عدتها.

ولو أخرجنا حالة واحدة من بناء الأموال في الإسلام لصار حكمنا مجحفًا فجًا، بل يجب النظر إلى البناء ككل والحكم من خلال البناء لا من خلال الحالة الواحدة!

وإلا كان كالذي يستلّ شامة من وجهٍ حسن ليُثبت سواد الوجه. على حد تعبير الشيخ عبد العزيز الطريفي!

ويعمل الملحد جهده على تكبير هذه الشامة وجعلها كالليل العريض وتضخيم أبواق الإعلام عليها حتى يستقر في الأذهان سوادها، فيلزم حتى تعود لموضعها إعادة تصغير، ثم زرعها بدقة في المكان الذي خرجت منه، وهكذا كل شبهة خرجت من موضعها أو مبناها وتضخمت الأبواق حولها ورُسمت الصور الماكرة الساخرة لها.

ولو كان الملحد منصفًا حتى في إخراجه للشبهة وتضخيمها لأخرج مسألة التضييق على الرجل في لبس الحرير والذهب؛ لكنه يريد أن يصل للمرأة ويدغدغ عاطفتها.

ولو بحث عن كد الرجل من أجل طلب الرزق للمرأة، وما في ذلك من الديون والإلزامات والمشاكل ما لا يُحصى، لأدرك أنه متحيز حتى في مَكره وخُبثه.

المهم أنه لو جُمعت الأحكام في نظام الإسلام تامةً ووضعت في موضعها الصحيح من وجهه الحسن، لصحّ النظر لها وفهم الناس مقصدها وتعليلها.

ومسائل المواريث 520 مسألة بها عشرات المسائل تأخذ المرأة أكثر من الرجل بحسب موقعها وسنّها، فمنظومة المال في الإسلام متكاملة وعادلة؛ لأنها من لدن حكيم خبير ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [الملك 14].

4- شهادة المرأة على النصف من شهادة الرجل...

هذا حكم شرعي لا يفهمه من يعيش في بيئة مختلطة تخالط المرأة الرجل فيها في كل شيء، وتعاقر معه جميع أنواع المعاشات بل والمنكرات، ولن يدرك الملحد ساعتها أن المرأة في الأصل بعيدة عن أحوال التجارة وأصناف السلع والسفر وأسعار السوق فلا تضبط كضبط الرجال، والأصل فيها عند الرجل جهالة الحال والستر.

فالبيئة المختلطة لن تدرك الحكمة من كون شهادة الرجل بامرأتين ولن تظهر لهم العلة فيرون غرابة الحكمة، فالشريعة يجب أن تصحح غيرها ليتناسق معها لا أن تلغي ما تبقى باعتبار فساد الأصل.

وشهادة المرأة على النصف من شهادة الرجل هذا نظير عدم قبول شهادة البدوي على صاحب القرية، كما في الحديث: «لا يجوز شهادة بدوي على صاحب قرية»[1].

فلا تُقبل شهادة البدوي ولا يُعتد بها!

فالبدوي بعيد عن البيئة الحاضرة وأسواقهم وسلعهم وطرق تجارتهم، فالحواضر تبيع أثاثًا وثمارًا وأمورًا لا يعرفها البدوي، فلا يضبط وينسى مع الوقت.

---

(1) رواه أبو دواد.

فهذا رجل -البدوي- لا تصح شهادته أصلاً، ولو اجتمع معه رجل بدوي آخر، ولما كانت المرأة أقرب لبيئة الرجل وتسمع وترى الأحوال ولو من بعيد قُبلت شهادتها لكن مع غيرها لعلل واحترازات كما تقدم.

والمرأة مثلاً في مسائل هي أضبط لها من الرجل، وهنا تقبل شهادة المرأة وتُرد شهادة الرجل بالكلية، كمسائل الرضاع فهي فيها أضبط وأحفظ.

فشهادة المرأة في الرضاع أضبط وأكثر قبولاً من شهادة عشرة رجال.

لكن قلّ من يتدبر!

5- دية المرأة على النصف من دية الرجل...

وكذلك الأمر في الدية، فلو قُتلت أنثى خطأً، على القاتل نصف الدية تسليةً لأهل القتيلة، وهو عوض أقل من عوض الذكر للورثة.

لأن الورثة لا يتأثرون باختلال نظام المال بفوات أنثاهم؛ لأن المرأة لا تنفق في نظام الإسلام على زوجٍ ولا ولد.

لكن هل هذا تقليل من حق المراة؟

خطأ ؛ فالمرأة ماتت ولن تنتفع بالمال قل أو كثر.

ولو قُتلت المرأة عمدًا فساعتها يُقتل بها من قتلها، ولو اجتمع على قتلها عشرة رجال فكلهم يُقتلون.

أما الديات ولأنها مرتبطة بمؤسسة المال سابقة الذكر؛ فدية المرأة تكون أقل لأن انفلات نفسها لا يؤثر على وضع العائلة المالي بعكس الرجل متحمل النفقات.

وفي الأصل لا يوجد دافع مركب داخل الرجل ليتعدى على امراة حتى

يصل التعدي إلى قتل خطأ، بعكس ما يكون بين الرجال وبعضهم في تنافسهم في أعمالهم وأسواقهم فاشتد الزجر في الثانية وقل في الأولى.

وأما التعدي بالقتل العمد فهو يوجب القصاص.

ومن أراد أن يُنزل حكم الدية منفصلاً عن مجمل تشريع الإسلام وبنائه المالي فسيختلّ فهمه وتقديره للعلة.

يقول الشيخ عبد العزيز الطريفي: «فإذا أردت أن تضع لبنة على رأس حائط فابن أصل الحائط ووسطه قبل أن تضعها، وإلا وضعتها في هواء وسقطت وما استوعبت تصرفك العقول ولا الأفهام.

وحيطان الأفكار تُرسم في العقول فلابد من ضبط البناء قبل الاستيعاب.

ولن يستسيغ إنسان تحريم السلاح وقت الحرب، كذا لن يستسيغ تحريم الخلوة بالأجنبية والزنا مباحٌ في قلبه!»[1].

لكن الملحد يتعجل الفهم ويلتقط ما تحركه نفسه له مع أول وقعٍ للعين، فيزِل ويُزِل.

وفي النهاية يبقى التساؤل: لماذا توجد شبهات؟

لماذا لم تكن الأدلة قطعية ويكون الدين بلا شبهات؟

الرد:

ومن قال لك: إن هذا ليس أحد مرادات الشارع؟

بل إن هذا السؤال ينم عن عدم استيعابنا للقضية التكليفية الكبرى.

(1) العقلية الليبرالية في رصف العقل ووصف النقل، عبد العزيز بن مرزوق الطريفي، الطبعة الأولى 2011، دار الحجاز للنشر والتوزيع.

قوام الدين كله على وجود نسبة متشابه ليميز الله الخبيث من الطيب!

فكل أمرٍ تجد فيه احتمالية ولو ضئيلة لشبهة.

حتى يتبع الفاجر الشبهة ويترك الحق الظاهر ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۗ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ۝٧ ﴾ [آل عمران: 7].

ولو ظننت أن الله من المفترض أن يأتي بالمحكم بدون أي متشابه، فما عرفت مقصد الرسالة ولا غاية الاختبار ولا معنى استخدام العقل الذي هو مناط تكليفك ﴿ وَقَالُواْ لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝١٠ ﴾ [الملك: 10].

ولذا من الجهل بمكان أن يسأل سائل ويقول:

لماذا لا توجد أدلة قطعية على الدين كالشمس لتحسم الأمر مع الكافرين؟

فالذي يطلب دليل كالشمس على الإيمان لا يعرف شيء عن الإيمان، ولا عن القضية الوجودية بأسرها، فوجود أدلة قاطعة تقضي بالإيمان بنسبة 100 % هذا لن يكون إيمانًا اختياريًّا وإنما إيمانًا اضطراريًّا، مثل الإيمان بوجود الشمس، وهذا إيمان لا يترتب عليه ثواب ولا عقاب لأنه إيمان اضطراري.

فلو كانت الأدلة بهذا المستوى لما أصبح لوجودك التكليفي في هذا العالم معنىً، انظر لقول الله عز وجل في كتابه العزيز: ﴿ وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ مَلَكٞۖ وَلَوۡ أَنزَلۡنَا مَلَكٗا لَّقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ۝٨ ﴾ [الأنعام: 8].

ولا يطلب أدلة من هذا القبيل إلا أبعد البشر عن العقل والمنطق ﴿ وَقَالَ

﴿ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ ۘ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ ۗ قَدْ بَيَّنَّا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾﴾ [البقرة: 118].

فقد بيّن الله تعالى آياته للموقنين؛ فالآيات والقرائن واضحة جلية لمن يريد أن يؤمن ويُسلم لله بالخلق والأمر، أما من يريد العبث فسيجد من المتشابهات التي أوجدها الله سبحانه لتكملة الامتحان ما يبرر له طغيانه وتمرده، لكن من رحمته سبحانه أن هذه المتشابهات لا تطغى على المُحكم ولا تُضعف قيمته، ولا يتبعها إلا من أراد أن يُشربها ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾﴾ [آل عمران: 7].

لكن هل معنى ذلك أن هذه الأدلة لا توصل لليقين؟

لا طبعًا!

إن أصل أدلة الإسلام هي أدلة عقلية، وسمعية «نقلية»، ورصدية «بديع الخلق وعجائب الصنع»، وفطرية «أولية A-Periori»، واستدلالية «يستخدمها بعض المتكلمين ولا تخرج في جملتها عن الأدلة السابقة، وإن كانت فيها بعض القياسات الفاسدة والصحيحة».

آحاد هذه الأدلة يوجب العلم اليقيني بصحة الإسلام فضلاً عن مجموعها!

وما قامت سوق المناظرات مع الملحدين وما انقطعت ألسنتهم إلا بقوة أفراد الأدلة التي ما أسعفهم أمامها سوى السفسطة!

بل إن آحاد آحاد الأدلة قد يولّد يقينًا لا يبق معه إلا التسليم لله، وقد أسلم السابقون الأولون أمثال أبي بكرٍ الصديق وخديجة والمُبشَّرون قبل انشقاق القمر والإخبار بالغيب والتحدي بالقرآن.

لكن هل أدلة الإيمان أدلة اضطرارية؟

الدليل الاضطراري هو دليل لا يحتاج إلى إعمال عقل أو تحرير نقل، مثل وجود الشمس. فهذا النوع من الأدلة لا يتعلق به عملٌ عقلي، ولا يُساق أصلاً إلا لجملة المجانين!

وشتان بين الأدلة الاضطرارية وبين الإيمان اليقيني!

فالأول يحجب العقل ولا يترتب عليه ثوابٌ أو عقاب. والثاني قائم في آحاد آحاد الأدلة فضلاً عن آحادها فضلاً عن جملتها!

فالإيمان اليقيني يسهل أن تصل إليه بالنظر في آحاد آحاد الأدلة باستخدام العقل أو الانقياد للفطرة والانتصار على هوى النفس. لكن الأدلة في ذاتها لا تفيد الإيمان الاضطراري بمجرد النظر المباشر!

فلابد من إعمال العقل في الأدلة للوصول إلى الإيمان اليقيني، وإلا فمجرد النظر لا يفيد اضطرار الإيمان.

ولن يندم الكفار يوم القيامة على شيءٍ ندمهم على إيقاف عقولهم عن الأدلة التي تفيد إيمانًا يقينيًا ﴿وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾﴾ [الملك: 10].

فسنة الله في خلقه التكليف، وسنته في التكليف خفاء الحكمة، وسنته في الحكمة دقائقها، والفائزُ مَن استدل بما يعلم على ما خفي ودقّ، والخاسر من جعل مما يجهل حجابًا يحرمه من الاستدلال بما يعلم.

فمن قال: ن أدلة النظر المباشر تفيد الإيمان الاضطراري، فهو جاهلٌ بأصل التكليف ومناط الحساب وأحوال الناس.

فالعقل مناط التكليف، ولو كان هناك من الأدلة ما يوجب علماً اضطراريًّا بمجرد النظر ما تطلب الإيمان إعمال عقل، ولا ترتب عليه ثوابٌ ولا عقاب.

الفصل الخامس

أدلة الإيمان

الفصل الخامس

أدلة الإيمان

يأتي هذا الفصل كمسك ختامٍ لكتابنا بعد جولةٍ في شتى مناحي الفكر الإلحادي، فما أردنا أن نُغلق الكتابَ بعد التخلية من الإلحاد إلا بتحليةٍ بشيءٍ من أدلة وجود الخالق، ولمحات من سيرة خير البرية ﷺ، ثم شيء من دلائل نبوته ﷺ!

أدلة وجود الخالق سبحانه

مِن المقدمات العقلية على وجود الخالق سبحانه أن وجودنا لا يُفسر نفسه بنفسه إذن لنا مُوجِد: ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [الطور: 35].

ومن المعطيات المادية المنطقية أن رصد عالمنا المادي يفيد تغيره وعرضيته وعدم اكتفائه بذاته، ولذا أصبح الجميع مضطرٌ للخروج خارج الكون للبحث عن سببٍ لوجوده، فافترض الملحد أكوان لا نهائية -مع أن هذا ليس جوابًا، وإنما إرجاء للمطلب المعرفي الذي يرومه السائل إلى درجة من درجات تسلسل لا نهائي لا يوصلنا إلى جواب البتة!- وتأكد المؤمن من صحة أدلته الدينية ﴿ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [الطور: 36].

ومن الأدلة الإيمانية النقلية موافقة ما جاء به الشرع مع الفطر السليمة والعقول الصحيحة.

ونداء التوحيد الذي جاء به الشرع يظهر في صورته السامية النقية في الإسلام وهو نداء فطري أولي غريزي، ولذا فقد خرجت التعديلات اللاهوتية اللاحقة على اليهودية والمسيحية على يد توما الاكويني وموسى بن ميمون كإفراز لقراءتهم المنشور الإسلامي في عقيدته الصافية بالله، والتي شوهتها معاصي اليهود والمسيحيين، فحاول الرجلان تنسيق ديانتيهما بما يتناسب مع المنشور الجديد الذي سيجذب كل أتباع الديانات إليه إذا لم يحدث تدّخل سريع لمواربة الصدع ومحاولة التقرب من عقيدة الإسلام النقية، وإثبات أن كلتا العقيدتين الأخريين بناؤهما الأصلي وعمادهما أيضاً على توحيد الله في الصيغة النهائية، فالتحسينات التي أُدخلت على العقيدتين لم يكن منها مناص لإيقاف أفواج الداخلين في الدين الجديد.

ومن الأدلة الإيمانية النقلية أيضًا ثبوت النبوات وما رادفها من معجزات وآيات وعلامات ونبوءات والمعيار الجوهري في التسليم بصحة الرسالة هو صدق النبي، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في رائعته «ثبوت النبوات»: «ليست المعجزة هي الشرط الأوحد للنبوة، فمُدعي النبوة إما أن يكون أصدق الصادقين أو أكذب الكاذبين ولا يُلبس هذا بهذا إلا على أجهل الجاهلين، وقد أسلم السابقون الأولون أمثال أبي بكر الصديق وخديجة والمُبشّرون قبل انشقاق القمر والإخبار بالغيب والتحدي بالقرآن، .... وكثير من الناس يعلم صدق المُخبر بلا آية البتة، وموسى بن عمران لما جاء إلى مصر وقال لهم: إن الله أرسلني. علموا صدقه قبل أن يُظهر لهم الآيات، وكذلك النبي لما ذكر حاله لخديجة وذهبت به إلى ورقة بن نوفل قال: هذا هو الناموس الذي أتي موسى. وكذلك النجاشي، وأبو بكر علموا صدقه علمًا ضروريًا لما أخبرهم بما جاء به وما يعرفون من صدقه وأمانته مع غير ذلك من القرائن يوجب علمًا ضروريًا بأنه صادق، وخبر الواحد المجهول من

آحاد الناس قد تقترن به قرائن يُعرف بها صدقه بالضرورة، فكيف بمن عُرف بصدقه وأمانته وأخبر بمثل هذا الأمر الذي لا يقوله إلا مَن هو أصدق الناس أو أكذبهم، وهم يعلمون أنه من الصنف الأول دون الثاني »[1].

ومن أدلة الصبغة الفطرية أن البشرية كلها عبر الزمان وعبر المكان لم توجد بها قرية ولا نجع بغير إيمانٍ بالله، ولا يُعرف تاريخ الإنسان إلا في إطار الدين والإيمان بوجود الله.

ولم توضع فلسفات العالم ومحارات عقول العالم إلا من أجل التأسيس للدين.

والمنطق منذ أرسطو إلى يومنا هذا يدور في إطار وجود الله كقضية بديهية؛ يقول المؤرخ الإغريقي [بلوتارك]: «لقد وجدت في التاريخ مدن بلا حصون، ومدن بلا قصور، ومدن بلا مدارس، ولكن لم توجد أبدا مدن بلا معابد»

فوجود الله قضية أزلية محسومة في الصبغة البشرية التي فطر الله الناس عليها ﴿ صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾ ﴾ [البقرة: 138]..

وصراع الأنبياء مع أقوامهم لم يكن حول وجود الله وإنما حول عبادة الله، ولذا تقول الكاتبة الإنجليزية الشهيرة [كارين أرمسترونج] في كتابها الأخير «مسعى البشرية الأزلي الله لماذا؟» أن الإنسان ليس homo sapiens sapiens، وإنما هو homo religiosus فالإنسان ليس حيوانًا عاقلاً وإنما إنسان ديني.

ومن الأدلة الفيزيائية: المعايرة الدقيقة للكون.

---

(1) ثبوات النبوات، للابن تيمية، (ص573).

المعايرة الدقيقة للكون Fine-tuning of universe

ظهر الكون إلى الوجود بمعايرة دقيقة لآلاف الثوابت الفيزيائية والطبيعية، والتي لو اختل ثابت منها بمقدار جزء من مليار مليار جزء لاختل الكون قبل أن يبدأ أو لتوقف عند مرحلة البيضة الكونية cosmic egg.

يقول الفيزيائي الشهير ستيفن هاوكنج Stephen Hawking في كتابه: «إن سرعة توسع الكون سرعة حرجة جدًّا إلى درجة أنها لو كانت في الثانية الأولى من ظهور الكون أقل من جزء من مليون في مليار جزء لانهار الكون حول نفسه قبل أن يصل إلى وضعه الحالي»(1).

وكل الثوابت الفيزيائية ظهرت في نفس اللحظة بنفس المعايرة الدقيقة والضبط الحرج فمثلاً:

(1) كتلة الإلكترون Electron mass تمثل 0.2 % من كتلة النيوترون Neutron mass، وهذه هي الكتلة القياسية لتكوين الذرّة.

(2) ولو كانت كُتلة البروتون Proton أثقل مما هي عليه الآن بـ0.2 % فقط، فإنه سينحّل إلى نيوترونات Neutrons، وبالتالي سيعجز عن الإمساك بالإلكترونات التي تدور حول النواة وسينهار النموذج الذري، ولو كانت النسبة بين كتلة البروتون إلى كتلة الإلكترون أقل قليلاً مما هي عليه الآن، فلن تظهر نجومٌ مستقرّة، ولو كانت أعلى قليلاً مما هي عليه الآن فلن تظهر الأنظمة التشفيرية في خلايا الكائنات الحية DNA؛ لأن الأنظمة التشفيرية تعتمد على توازن ذرات الكربون التي تُشكِّل القواعد النيتروجينية في أنظمة التشفير، وذرات الكربون تحتاج إلى توازن كتلة البروتون مع كتلة

---

(1) موجز تاريخ الزمان، ستيفن هاوكنج، ص121.

الإلكترون حتى يصبح الكربون ذرة مستقرة..، وبالتالي لن يظهر الكائن الحي.

(3) عندما تلتحم ذرتان من الهيدروجين فإن 0.7 % من كتلة الهيدروجين تتحول إلى طاقة، لو كانت هذه الكتلة هي 0.6 % بدلا من 0.7 %، فإن البروتون لن يلتحم بالنيوترون، ولظل الكون مجرد هيدروجين فحسب، ولما ظهرت باقي العناصر، ولو كانت الكُتلة المتحوّلة إلى طاقة هي 0.8 % بدلاً من 0.7 %، لأصبح الالتحام سريعاً للغاية، الأمر الذي سيؤدي إلى اختفاء الهيدروجين فوراً من الكون، فتستحيل معه الحياة، فالرقم يلزم أن يكون بين 0.6 % و 0.8 %.

(4) النسبة بين القوى الكهرومغناطيسية والجاذبية هي 1: 10 أس40، وهو فرق شاسع لا يمكن استيعابه، كذلك الفرق بين القوى النووية القوية والقوى الجاذبية، هو أيضاً فرق مهول للغاية، ولو افترضنا أن الأرض التي تجذب الإنسان بقوى الجاذبيّة، قامت بجذبه بالقوى النووية القوية، فإن وزن الإنسان على الأرض سيُعادل مائة مليون نجم!

لكن السؤال الآن: ما الذي يجعل القوى الجاذبية بهذا الضعف الشديد، والقوى النووية القوية بهذه القوة الشديدة؟ مع أن هذا الفارق الرهيب في موازين القوى ليس من شروط ظهور الجسيمات الأُولى، ولا من مُعطياتها..!! إنه الإعداد الإلهي بالعناية الفائقة.

(5) يقول [ماكس تيجمارك Max Tegmark] عالِم الكونيات الأمريكي: «إذا كانت القوى الكهرومغناطيسية أضعف مما هي عليه بـ4 % فقط، لانفجرت الشمس فور تكونها، وستصبح نفس النتيجة إذا زادت القوة الكهرومغناطيسية عما هي عليه، إن ثوابت الطبيعة تبدو مُعدّة بعناية

عند مستوًى ما، وإذا كانت القوى النوويّة الضعيفة أقل مما هي عليه الآن لن يتكون الهيدروجين، وبالتالي سيظل الكون مجرد غبار كوني، وإذا كانت أقوى قليلاً فإن جسيمات النيوترينو neutrinos ستعجز عن مغادرة المستعرات العملاقة - السوبرنوفا Supernova- وبالتالي لن تنتقل العناصر اللازمة للحياة خارج المستعرات العملاقة - النجوم المُنفجرة -»[1].

(6) قوى الجاذبية لو كانت أقوى قليلاً مما هي عليه الآن لما استغرقت حياة الشمس التي ستتكون بعد ذلك أكثر من عشرة آلاف سنة. فهذا ضبط غير قابل للاختزال أو للتأجيل، فسبحان بديع السماوات والأرض!!.

ولذا يرى [ليونارد سوسكايند] أستاذ الفيزياء النظرية بجامعة ستافورد والمؤسس لنظرية الأوتار الفائقة أن مُعطياتنا عن الثوابت الكونية - مثل النسبة بين الإلكترون والبروتون-، تقف كلها على حافة سكين وكلها مُستقلة عن بعضها البعض، وفي الوقت نفسه تتلاقى لتسمح فقط بإحداث الحياة، وتغيُّرُ أيِّ مُعطى من هذه المعطيات التي نشأت مستقلة لم يكن يسمح لها بالتلاقي فضلاً عن إمكانية إيجاد حياة أو حتى منظومة كونية[2].

ولو افترضنا للحظة أننا نرغب مثلاً في رؤية الذرات الموجودة داخل رأس دبوس صغير، فإننا بحاجة إلى تكبير رأس الدبوس بحيث يصير بحجم الكرة الأرضية، وفي تلك الحالة لن يتجاوز حجم الذرّة كرة قدم صغيرة.. لماذ الذرات بهذا الحجم المدهش؟

إذا افترضنا أننا نرغب في رؤية النواة داخل الذرّة، فإننا بحاجة لتكبير كُرة القدم السابقة لتصير بحجم ملعب كرة قدم كبير وفي تلك اللحظة فلن

(1) space.mit.edu/home/tegmark/multiverse.pdf.
(2) http://www.edge.org/3rd_culture/smolin_susskind04/smolin _ susskind.html.

يتجاوز حجم نواة الذرة حبة غُبار صغيرة للغاية.. فحجم نواة الذرَّة يساوي جُزءًا من عشرة بلايين جُزء من حجم الذرَّة.. ومع ذلك توجد كُتلة الذرة كلها في النواة 99.5 %.

والآن التساؤل الهام: كيف تكون كتلة ملعب عملاق كلها موجودة فقط في حبة غُبار منه والباقي فراغ تـام؟

إن هذا النظام الذري بهذا الشكل وهذا التوازن بين كتلة النواة في مقابل حجمها داخل الذرة هو النظام الوحيد الذي يسمح بتشكيل الكون وبحدوث التفاعلات الفيزيائية.

فهذا الأمر لا يُمكن استيعاب حدوثه بالصُّدفة أو الخبط العشوائي إنه تدبيرُ وإحكامُ وعجيبُ صُنْعِه، ولذا يأمر الله سبحانه باستمرار بتدبر آيات خلقه وشواهد قدرته!

وهكذا آلاف الثوابت الكونية في كوننا والتي جاءت بمنتهى المعايرة الدقيقة والضبط بحيث تتيح كل صور الحياة والاتـزان حولنا، وكل ثابت منها يمثل معجزة بحد ذاته وأروع هذه الثوابت هو الثابت الكوني Cosmological constant الذي لو اختلفت قيمته بأقل من جزء من صفر يليه 123 صفر ثم 1 من الواحد لانهار الكون بأكمله، وغيرها من الثوابت الشيء الكثير مثل درجة غليان الماء، ومثل كتلة البروتون ومثل حجم النواة ومثل حجم الذرة و...، إنها معايرة دقيقة وضبط بعناية وإلا ما ظهر الكون، إذن الخلق لابد أن يستتبعه إعداد بعناية fine tuning of the universe وهذه الكلمة fine tuning of the universe دخلت إلى الفيزياء عن طريق الفيزياء وليس عن طريق الدين.

هذا هو الإشكال الحقيقي الذي يفرض نفسه على الملحد من ضمن

آلاف القرائن والأدلة التي تثبت روعة الخلق وضبط الصنع، ولا يبقى إلا شكر المنعم أو تجاهل القضية وتمضيتها عبث في عبث.

ومن الأدلة البيولوجية وجود الخريطة الجينية داخل كل كائن حي.

الخريطة الجينية

معضلة ظهور الحياة هي المعضلة المستحيلة، فكل طاقات البشر وكل معارفهم وكل مكائنهم العملاقة لم تستطع أن تنتج ولو صورة مبسطة من أبسط صور الحياة، ومع ذلك يفترض الملحد أن الحياة ظهرت بالصدفة، ثم يقتنع الملحد بسخافة هذا القول فيقرر تضييق فرص نشأة الحياة لجعلها معجزة لا تكرر.

يقول ريتشارد داوكينز: «الحياة كما نعرفها قد نشأت فحسب مرة واحدة على الأرض»[1].

ومسألة النشوء -ظهور الحياة- بالصدفة هي مسألة يؤكد العلم استحالتها -كما فصّلنا من قبل في باب التطور-.

يعترف مثلاً الملحد الفكلي الشهير فريد هويل Fred Hoyle أن رصده لهذا العالم يجعل إلحاده يهتز بشدة «greatly shaken» كما يقول في كتابه «تطور من الفضاء» Evolution from Space، وأن افتراض العشوائية هو افتراض مجنون وهراء فارغ.

is evidently nonsense of a high order

يقرر فريد هويل أن فرضيات نشأة الحياة على الأرض كما يزعم التطوريون هي جنون عقلي سخيف، وقد قدّم فريد هويل في عام 1982

(1) صانع الساعات الأعمى ص 343.

كتابه «التطور من الفضاء Evolution from Space» كمحاضرة للمعهد الملكي، بعد النظر إلى ما اعتبره الاحتمال الضئيل لنشوء الحياة على الأرض وقال: «ولو تابعنا بشكل مباشر ومستقيم في هذه المسألة، ودون أن نبالي بالخوف من مخالفة الرأي العلمي السائد، نصل إلى استنتاج مفاده أن المواد البيولوجية بما تحويه من قياس ونظام يجب أن تكون ثمرة تصميم ذكي، ولا توجد أي احتمالية أخرى يمكنني التفكير بها»[1].

فطبقًا لحسابات فريد هويل، فإن فرصة الحصول على فقط مجموعة الإنزيمات لأبسط خلية حية تصل إلى 10 أس 40,000 مع أن عدد الذرات في الكون كله لا تتجاوز 10 أس80.

the chance of obtaining the required set of enzymes for even the simplest living cell without panspermia was one in 1040,000. Since the number of atoms in the known universe is infinitesimally tiny by comparison (1080).

وفي هذه اللحظة يستنتج فريد هويل التالي: «فكرة أنه ليس فقط البوليمر الحيوي biopolymer بل مجرد البرنامج المنظم للخلية الحية، يمكن أن يظهر بالمصادفة في الحساء البدئي لبيئة الأرض الأولى، من الواضح أنه نوع من الهراء على أعلى قدر».

The notion that not only the biopolymer but the operating program of a living cell could be arrived at by chance in a primordial organic soup here on the Earth is evidently nonsense of a high order[2].

---

(1) Hoyle, Fred, Evolution from Space, Omni Lecture, Royal Institution, London, 12 January 1982; Evolution from Space (1982) pp. 27-28.

(2) Sir Fredrick Hoyle and Chandra Wickramasinghe, Evolution from Space (New York: Simon & Schuster, 1984), p. 148.

ومن اللافت للنظر أن هذه النتيجة توصل إليها أيضًا اللاديني فرانسيس كريك Crick Francis في كتابه: «الحياة نفسها نشأتها وطبيعتها :Life Itself Its Origin and Nature»، فقد قرّر أن نشأة بروتين واحد وظيفي بسيط بالصدفة هو ضرب من الاستحالة يكاد يفوق 10 أس 260 مع أن عدد ذرات الكون ككل لا تتجاوز 10 أس 80، هذا في بروتين وظيفي بسيط مع أن أدنى الكائنات به آلاف البروتينات، وفي النهاية يعترف فرانسيس كريك قائلاً: «كرجل منصف، ومُسلح بالعلم المتاح لنا الآن، أستطيع أن أُقرر بشيءٍ من المنطق، أن نشأة الحياة معجزة.»

«If a particular amino acid sequence was selected by chance, how rare an event would this be?

«This is an easy exercise in combinatorials. Suppose the chain is about two hundred amino acids long; this is, if anything rather less than the average length of proteins of all types. Since we have just twenty possibilities at each place, the number of possibilities is twenty multiplied by itself some two hundred times. This is conveniently written 20200 and is approximately equal to 10260, that is, a one followed by 260 zeros.

"Moreover, we have only considered a polypeptide chain of rather modest length. Had we considered longer ones as well, the figure would have been even more immense. The great majority of sequences can never have been synthesized at all, at any time"[1].

«An honest man, armed with all the knowledge available to us now, could only state that in some sense, the origin of life appears at the moment to be almost a miracle, so many are the conditions which would have had to have been satisfied to get it going»[2].

---

(1) p. 51-52.

(2) p. 88.

أضف إلى ذلك أن ظهور الحياة ليس قضية حياة فحسب، بل هي منظومة على أعلى درجات التعقيد والضبط، فقد ظهرت الخريطة الجينية كاملة مع أول كائن وهي خريطة تحمل شفرة الكائن، وكل المعلومات التي يحتاجها حيث يتم ترميزها قبل ظهور الكائن الحي في شفرة تسمى بالخريطة الجينية وإلا لن يظهر الكائن الحي.

والخريطة الجينية «الجينوم» هي شريط الـDNA الموجود داخل نواة كل خلية من خلاياك.

وهذا الشريط عبارة عن كتالوج -كتاب- يوجد داخل كل نواة خلية من خلايا جسدك، وبهذا الكتالوج مواصفاتك وبرمجة كاملة لمنظوماتك الوظيفية «طولك ولون عينيك ووظائف أعضائك، ونوع شعرك وكمية البروتين التي تحتاجها عضلاتك، والقوانين التي تحكم أجهزة جسدك وسرعة النبضة الكهربية في أعصابك، ومعدلات ضخ الدم في قلبك، ومعدلات إفراز الهرمونات في غددك؛ إلى جانب كل ذلك تفصيل دقيق لكل وظائفك الحيوية وطريقة تصنيع كرات دمك وأنظمة الهضم والإخراج والأيض، وكل ما يختص بالوظائف البيولوجية لجسدك و..إلخ.

ويوجد في الكتاب فصل كامل خاص بحالات الطوارئ؛ مثل التعرض لنزيف حاد والذي يستدعي عمل جلطة تغلق مخارج الدم وانكماش شديد للطحال لضخ الدم المتخزن فيه لتعويض الفاقد، ومنظومة معقدة من عدة مراحل لعمل إنكماش في أوعيتك الدموية حتى لا يحدث هبوط قاتل لضغط الدم لحظة النزيف.

أيضًا يوجد في الكتاب -الكتالوج- فصل كامل يتعلق بالتجهيزات اللازمة لحظة التعرض لمخاطر كبرى مثل الأوبئة، فالكتاب يحتوي على

طريقة تصنيع الجسم الدفاعي G أو IGG الذي يسمى «كتيبة المشاة والمدرعات والمدفعية»، وطريقة تصنيع الجسم الدفاعي A أو IGA صاحب المهام الخاصة، وكل شيء عن التنظيمات الدفاعية التي لن تظهر مهامها إلا لحظات الخطر.

أيضا الكتالوج يحدد متى تبدأ شرايينك التاجية في الضيق وعقلك في الهذيان وجلدك في التجعد وشعرك في المشيب، ويصف الكتاب بالضبط طريقة حدوث ذلك بمنتهى الدقة.

الكتاب -الكتالوج- ضخم ويحوي كل شيء عنك.

هذا الكتاب هو محتوى معلوماتي، لاحظ العبارة.

الكتاب محتوى معلوماتي يخزن معلوماتك كلها.

أضف إلى ذلك؛ أن هذه المعلومات توجد بنظام «ترميز» coding وحين يتم فك الترميز decode تظهر المعلومات السابقة.

والجينوم أو شريط الـ DNA يملأ 1000 مجلد بواقع 500 صفحة لكل مجلد - 3 مليار حرف - كلها موجودة في مساحة 1 على 1000 من الملليمتر مُلتف على نفسه 100 ألف لفة داخل نواة الخلية.

والجينوم الذي في حجم رأس الدبوس يحمل معلومات تفوق في سعتها بليون مرة فلاشة 4 جيجا.

وجميع المعلومات داخل هذا الكتاب مُشفرة بنظام تشفير رباعي C G T A.

واضع المعلومات الرقمية- 3 بليون معلومة بمنتهى الضبط والدقة-، التي ستُستخدم لاحقًا، خالق عليم قدير، هل هذه المعلومة بحاجة إلى ضبط عقلي لتحريرها؟

وهذه الخريطة الجينية معقدة ومركبة وقانونية ولغوية ومنتجة!

وأبسط بديهيات العقل والمنطق تقول أن خالق هذه الخريطة الجينية هو خالق حكيم عليم قدير مريد، فلغة الخريطة الجينية تدل على أن وراءها متكلم مريد، خاصةً وأن الخريطة الجينية تصل إلى أهداف مشفرة مسبقًا وهي أهداف لها قانونية كاملة.

يقول مايكل دانتون في كتابه «التطور نظرية في أزمة»: «كي نفهم حقيقة الحياة على النحو الذي كشفه علم الأحياء الجزيئية علينا أن نُكبر الخلية ألف مليون ضعف، وبهذا ستبدو الخلية كمنطاد عملاق بحيث يستطيع أن يغطي مدينة كبيرة مثل نيويورك أو لندن، وإذا اقتربنا من الخلية وتفحصناها نجد عليها ملايين البوابات الصغيرة، وإذا تسنى لنا دخول أحد هذه البوابات سنجد أنفسنا في عالم من التكنولوجيا المدهشة والتعقيد الفائق»[1].

وما الحياة إلا تنفيذ للخريطة الجينية المقننة الهادفة، وهذا يجعلها دالة على مقنن هادف، فصفة الأثر دالة على صفة المؤثر.

فالحياة تسير بنظام دقيق منتج هادف واعي قانوني، تحت إشراف خريطة جينية ظهرت بمنتهى الضبط منذ البدء!

وكل نواة خلية حية تحتوي قاعدة معلومات Database تشمل كل ما يحتاجه الكائن الحي من وظائف وأعضاء ومهام وأسلحة ودفاع وإنتاج إنزيمات ومواد كيماوية وبروتينات متخصصة وأجسام مناعية ومضادات حيوية - في الإنسان قاعدة المعلومات داخل كل خلية حية تتكون من ثلاثة

(1) P.242 Theory in Crisis.

مليارات حرف- وعندما تأكل شريحة لحم فإنك تنهش أكثر من مائة بليون نسخة من الموسوعة البريطانية.

وهذه الخريطة الجينية قانونية فهي تُنشئ قوانين غاية في الضبط والتعقيد، فسونار الطبيب أو رادار المرور قد صممها مصمم وفق قانون دقيق ومحكم ليؤدي الغرض الذي صُنع من أجله، وبنفس القياس العقلي نقول أن سونار الخفاش قد صممه مصمم ليؤدي قانون وظيفي دقيق ومحكم ومحدد فالخفاش يستخدم تقانة عالية لتحديد المواقع بالصدى echo location.

يقول الملحد ريتشارد داوكينز: «تحمل الخفافيش أجهزة مصغرة لطائرات التجسس التي تعج بالأجهزة المعقدة، وأمخاخها حزم من الآلات الالكترونية المضبوطة برهافة قد برمجت برمجة بارعة بما يلزم لفك شفرة عالم من الأصداء echos في الوقت الصحيح، فهي مبرمجة لإتقان إشعاع الموجات الفوق صوتية في الاتجاهات المطلوبة»[1].

هذه المنظومات عالية التعقيد تستعصي على التفسير في إطار التطور.

فالخريطة الجينية محنكة نظريًا وبارعة عمليًا وعالية الضبط تشفيريًا.

فمصمم السونار قد فهم «ظاهرة الدوبلر» وعبّر عن فهمه في معادلات رياضية تم فكها لاحقًا لإنتاج السونار، ففهم المصمم قد جُسِّد في تصميم الجهاز ولكن الجهاز نفسه لا يفهم كيف يعمل، ويحوي الجهاز عناصر الكترونية معقدة بحيث تقارن أوتوماتيكيًا ترددين للرادار، وتحول النتيجة إلى الوحدات الملائمة - كذا ميل بالساعة-، ونظام الحسابات المستخدم معقد، ولكنه بالضبط في حدود قدرات صندوق صغير من عناصر الكترونية حديثة موصولة على النحو الصحيح.

(1) صانع الساعات الأعمى ص42.

هنا الخريطة الجينية يوجد بها ومنذ البدء الرسم التخطيطي للتوصيلات وكل معادلات ظاهرة الدوبلر وكل الأنظمة المعقدة التي يحتاجها الرادار... هل تحتاج هذه المقدمة إلى إضافة لإثبات القدرة الإلهية والخلق المعجز والتدبير المحكم؟

إن التصميم الهادف في الآلات المعقدة في الطبيعة لا حصر له ولا يستطيع باحث ولا مؤسسة استيعابه، وكل الحسابات الرياضية المركبة موجودة بضوابطها منذ البدء لكل الأنظمة.

فالخريطة الجينية مقننة وتعمل بقانون وهي لاعشوائية فهي تعمل في كل جزئية من جزئياتها لغاية وهدف معين، ويحكمها نظام يعرف عاقبة كل عمل. وهذا يؤكد أن الخريطة الجينية عمل هادف.

لكن هل في الخريطة الجينية يمكن أن يوجد حرف بالخطأ؟

هذا أمر نادر ومصدره في الغالب فساد من الخارج -تعرض لإشعاعات، مواد كيماوية، مواد مسرطنة- يقول داوكينز الملحد: «السكرتير الجيد في الحياة الواقعية له معدل خطأ يقرب من خطأ واحد في كل صفحة، وهذا نصف بليون ضعف معدل الخطأ في جين هستون هـ4 histone H4»[1].

بل إن هذه الحروف التي نسبتها نادرة جدًّا تقبع أيضًا داخل منظومة الابتلاءات، وتوكيد أننا في عالم أرضي لا نطمح فيه إلى نعيم دائم.

ومن حلقات صدفة الحلزون التي تمثل معادلات رياضية دقيقة إلى النسبة الذهبية في هندسة أطراف نجم البحر إلى متتالية فيبوناتشي الذهبية التي تحكم الكثير من أنساق الكائنات الحية في الطبيعة إلى كل كوارك

(1) صانع الساعات الأعمى ص176.

وإلكترون كل شيء يسير في قانون موحد دقيق صدر عن خالق أزلي وهو مَن يقنن كل القوانين.

وهذه القانونية يعجز الإلحاد عن مجرد الاقتراب منها، ويعجز التطور عن استيعابها، فقانون الإبصار يوجد بمثالية في الإنسان والأخطبوط، ومع ذلك على المستوى التشريحي لا علاقة لأحدهما بالآخر؛ فالعين هنا تختلف تمامًا عن العين هناك تشريحيًّا ومع ذلك الهدف والغاية في النهاية واحدة فهل سلك التطور طريقين مختلفين ليصل في النهاية لنفس النتيجة؟

أليس هذا من محالات الصدفة؟

أيضًا تكنولوجيا السونار تختلف تمام الاختلاف تشريحيًّا في الخفاش عن طيور الزيت عن الدلافين عن الحيتان، وجميع هذه الكائنات تتمتع بهذه التكنولوجيا بمنتهى الضبط والمثالية ومع ذلك تختلف تشريحيًّا تمام الاختلاف.

فهل سلك التطور عشرات الطرق ليصل لنفس النتيجة في النهاية؟

أيضًا الفراء الشوكي للشيهم الأفريقي يختلف تشريحيًّا تمام الاختلاف عن الفراء الشوكي للشيهم الأمريكي، أليست هذه أوجه تشابه خادعة تُثبت عجز فلسفة التطور عن استيعاب ظاهرة متطابقة نشأت عبر طرق مختلفة وأنتجت في النهاية نفس الشكل الخارجي بالضبط، ومع ذلك التشريح يختلف تمامًا!

ألا تعد هذه الظواهر دليل آكد على أن هناك مُسيِّر للخلق وضابط للنظم التي يحكمها خلق ووعي وحكمة وليس عبث وعماء!

فهناك قانون داخلي يحكم وخالق مسيطر وحكمة كلية وعلم محيط!

واللغة الجينية لها قاموس دقيق لا يتغير وينضبط بمثالية عالية.

فالخريطة الجينية دليل مباشر في الأنفس على الخالق الموجد الصانع الحكيم المبدع!

والمعايرة الدقيقة للكون دليل في الآفاق لا تخطئه عين فيزيائي ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ ﴾ [فصلت: 53].

وفي النهاية وبعد هذه الأدلة القطعية يبقى لنا أن نسأل: كيف يُستدل على ما هو دليلٌ على كل شيءٍ -سبحانه-؟

لمحات من سيرة خير الأنام ﷺ

والآن وقبل أن ننطلق في سرد دلائل نبوته ﷺ، ننقل لمحات خاطفة من سيرته العطرة ﷺ:

اللمحة الأولى:

في أول يوم من أيام الرسالة المحمدية حين نزل قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾ ﴾ [المدثر: 1 - 2]، أسلم أقرب أربعة إلى النبي ﷺ وهم:

أ- زوجته الكريمة خديجة بنت خويلد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فقد علمت البشارات وأبصرت فيه ملامح النبوة، وشهدت مقولة ورقة بن نوفل فيه، وأدركت صدقه وأمانته سنين طويلة.

ب- صديقه الحميم أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ آمن به في اليوم الأول دون تردد؛ لأنه كان يعلم سره وعلانيته.

ج- ابن عمه علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الذي كان يتبعه في كل أعماله، ويشهد إرهاصات نبوته.

د- ابنه بالتبني -قبل أن يحرم التبني في مرحلةٍ لاحقة- زيد بن حارثة، والذي فضّل النبي ﷺ على والده وأهله، حين جاءوا ليأخذوه فأبى.

فكان إيمان هؤلاء في اليوم الأول من أيام البعثة أعدل شاهد على صدقه ﷺ!

اللمحة الثانية:

في عام 5 هجرية، اجتمعت قريش وكنانة وبنو أسد وسليم وغطفان وغيرهم من قبائل العرب، وقرروا أن يستأصلوا شأفة الإسلام والمسلمين للأبد، فذهبوا نحو المدينة المنورة ليحاصروها بجيشٍ قوامه عشرة آلاف مقاتل، فيما يُعرف بـ«غزوة الخندق»، وفي هذه اللحظة العسيرة أعلنت بنو قريظة الجبهة الجنوبية المفتوحة للمدينة المنورة خيانة العهد ومقاتلة رسول الله ﷺ فصارت المعركة محسومة عسكريًا وماديًا لجيش المشركين والخونة اليهود، لكن الله منّ على عباده المؤمنين المستضعفين فأنزل جندًا من عنده، وأُصيب جيش الأحزاب بريحٍ باردةٍ شديدة عصفت بمعسكرهم واقتلعت خيامهم وقلبت قدورهم وزلزلت قلوبهم وأبدانهم وشتتت جمعهم، وألقى الله الرعب في قلوبهم، فعادوا خائبين يجرون ذيول الخزي والمهانة في موقفٍ سيُغير موازين القوى بين معسكر المشركين والمؤمنين للأبد.

المهم أنه بعد هذه الغزوة بشهورٍ قلائل -محرم 6 هجرية- خرج ثمامة بن أثال سيد اليمامة يريد اغتيال رسول الله ﷺ بنفسه، فأسره المسلمون وربطوه بساريةٍ من سواري المسجد النبوي، فمر به النبي ﷺ فقال: «ماذا عندك يا ثمامة؟». قال: عندي خير يا محمد؛ إن تقتل تقتل ذا دم، وإن تُنعم تُنعم على شاكر. فأطلقه النبي ﷺ في اليوم الثالث، فاغتسل ثمامة وأسلم، وذهب إلى مكة معتمرًا. وقال لقريش: والله لا يأتيكم من اليمامة حبة

حنطة حتى يأذن فيها رسول الله ﷺ. فلما انصرف منع بيع الحنطة لأهل مكة فعلاً، فجهدوا حتى كتبوا إلى النبي ﷺ يسألونه بأرحامهم أن يكتب إلى ثمامة يسمح ببيع الطعام لهم، ففعل ﷺ.

وأجاز لثمامة بيع الحنطة لهم وهم الذين منذ شهور قليلة كانوا يريدون استئصال شأفة كل مسلم ومسلمة وألبوا عليه قبائل العرب جميعًا.

ثم يأتي ملحد ويقول: أين هي رحمة محمد بعد أن قويت شوكته؟!

اللمحة الثالثة:

أحست قريش منذ اللحظة الأولى ببلاغة القرآن ولم يكن لديها ما تواجهه به، مع أنها كانت المرجع في الفصاحة واللغة، وكانت تعقد الأسواق للمبارزة الشعرية، فكانت قريش تمتلك ناصية ما يتحداها به القرآن.

لكن في واقع الأمر وجد هؤلاء أن تجميع الجيوش وتحزيب الأحزاب وتأليب القبائل لمحاربة رسول الله -ﷺ- أهون وأيسر من معارضة القرآن وقبول التحدي، فكانوا يؤلبون القبائل من ناحية ويقولون لا تسمعوا لهذا القرآن من ناحية أخرى، فهذا بالغ جهدهم ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [فصلت: 26].

وعندما قدم طفيل بن عمرو الدوسي وكان شاعرًا مفوهًا، ورئيس قبيلة دوس في اليمن، عندما قدم مكة استقبله أهل مكة وكعادتهم حذروه من سماع قرآن محمد ﷺ لئلا ينجذب لسحره، حتى حشا أذنه الكرسف- القطن- حين جاء إلى المسجد الحرام، كي لا يسمع منه ﷺ شيئًا، لكن يبدو أنه وقع في نفسه شيء من هذه الطريقة السخيفة، فقال في نفسه: إني لبيب وشاعر، ولا يخفى عليّ الحسن من القبيح. فوقع في أذنه شيءٌ من القرآن فتملك

عليه قلبه وأسلم وشهد شهادة الحق، وعاد إلى قومه يدعوهم إلى الإسلام وفي طريق عودته خرج نورٌ من سوطه فدخل به بلده وأسلم أهله، وأسلم قريبًا من ثمانين بيتًا من قومه، وهم الذين لحقوا برسول الله ﷺ فيما بعد في المدينة.

وإذا عدنا إلى أساطين اللغة في مكة فيبدو أنهم لم يكونوا أحسن حالاً من طفيل في انجذابهم لسحر القرآن، فكانوا يختبئون فرادى يستمعون القرآن من فرط انجذابهم لسحره حتى إذا تقابلوا قرب الفجر أجمعوا ألا يعودوا لمثلها وهكذا، ولم يتأخر إسلامهم إلا بسبب العصبية والقبلية لا نقص الحجة أو قصور الأدلة!

بعد كل هذا يأتي ملحد عربي لا يعرف كوعه من بوعه يقول: «أنا أتحدى القرآن». ثم يكتب كلامًا سمجًا على طريقة مسيلمة الكذاب، ظنًّا منه أن المحاكاة والتقليد استجابة للتحدي!

اللمحة الرابعة:

يتساءل الملاحدة كثيرًا: لماذا يتم قتل رجال بني قريظة؟

وهذه تقريبًا أكبر شبهة يثيرها الملاحدة في سيرة خير البرية ﷺ.

في البداية الذي يثبت وقوع هذه الحادثة عليه مسبقًا أن يثبت أن النبي ﷺ فى أعلى درجات النبوة؛ لأن الرواة الذين نقلوا هذه الحادثة هم الذين نقلوا المعجزات التي جرت خلالها على يده ﷺ، وبنفس درجة الثبوتية.

فالذي يثبت وقوع حادثة بني قريظة عليه أن يثبت قبلها:

(1) معجزة تكثير الطعام: ففي أثناء حفر الخندق رأى جابر شدة الجوع في رسول الله ﷺ فلم يصبر، فذبح بهيمة له وطحنت امرأته صاعًا -طبق

متوسط الحجم- من شعير، ثم دعا رسول الله ﷺ سرًّا في نفر من أصحابه، فقام رسول الله ﷺ بجميع أهل الخندق وهم قرابة ألف رجلٍ، فأكلوا وشبعوا وما زالت البرمة تغط، والعجين يُخبز[1].

(2) وذهبت أخت النعمان بن بشير بحفنة من تمر لأبيه وخاله، فبدده رسول الله ﷺ فوق ثوبٍ ودعا أهل الخندق فأكلوا ورجعوا، والتمر يسقط من أطراف الثوب.

(3) وعرضَت لجابر وأصحابه كدية شديدة فنزل رسول الله ﷺ، وضربها بالمعول فعادت كثيبًا أهيل - أي رملاً لا يتماسك-.

(4) وعرضت لبراء وأصحابه صخرة -حجمها كما يقول الرواة قريباً من 12 متر في 12 متر أي بحجم مسجد يتسع لمائتي مصلي- فنزل رسول الله ﷺ فقال: «بسم الله». ثم ضرب ضربةً بالمعول فقطع قطعة، وخرج منها ضوء، فقال: «الله أكبر أُعطيت مفاتيح الشام، وإني لأنظر إلى قصورها الحمراء الساعة». أي: سيتم فتح الشام قريبًا وهذا في الوقت الذي يحاصره فيه مجموعة من الأعراب لا يتجاوزون العشرة الآف، ثم ضرب الثانية وبشّر بفتح فارس، ثم الثالثة وبشّر بفتح اليمن، وانقطعت الصخرة.

ثلاث ضرباتٍ بمعولٍ بدائي تهشم صخرة بحجم مبنى عملاق، ويتنبأ ﷺ بفتح إمبراطوريات تقدر أعداد جيوشها بمئات الآلاف. فهل تُسلم أيها الملحد بهذه المعجزات، أم تختار فقط ما يجعلك تصبر على كفرك؟

(5) وعندما جاءت جيوش الأحزاب وأحاطت بالمدينة من الجهة الشمالية، لم يكن للمسلمين قِبل بها، فأنزل الله سبحانه جندًا من عنده،

---

(1) صحيح البخاري.

وأُصيب جيش الأحزاب برياحٍ باردةٍ شديدة عصفت بمعسكرهم واقتلعت خيامهم وزلزلت قلوبهم وأبدانهم وشتتت جمعهم، فعادوا خائبين يجرون ذيول الخزي والمهانة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا ٩ ﴾ [الأحزاب: 9].

(6) وبعد هروب الأحزاب أخبر النبي ﷺ أنهم لن يأتوا مرةً أخرى ولن يغزوا المدينة بعد ذلك، فقال ﷺ: «الآن نغزوهم ولا يغزونا»[1]. وبالفعل لم يتم غزو المدينة بعد غزوة الأحزاب، بل إن النبي ﷺ هو الذي سار إليهم فعلاً بعدها بثلاث سنوات في فتح مكة.

المهم أنه أثناء حصار الأحزاب لرسول الله ﷺ، توجه حُيي بن أخطب سيد بني النضير إلى يهود بني قريظة وكانوا في الجهة الجنوبية من المدينة، وأغراهم بنقض العهد مع رسول الله ﷺ، ومهاجمته فهذه فرصة لن تتكرر، فنقضوا العهد وفتحوا جبهتهم الجنوبية واستعدوا للهجوم على المدينة ﴿ إِذۡ جَآءُوكُم مِّن فَوۡقِكُمۡ وَمِنۡ أَسۡفَلَ مِنكُمۡ ﴾ [الأحزاب: 10]، وبلغ الخبر رسول الله ﷺ وهم مشغولٌ بحصار الأحزاب في الجهة الشمالية، فأرسل زيد بن حارثة في ثلاثمائة جندي لحراسة نساء المسلمين وذراريهم؛ لأنهم كانوا في الجهة الجنوبية، وأرسل سعد بن عبادة وسعد بن معاذ يستجلون خبر نقض العهد، فوجدوا اليهود في أخبث حال - كحال الملحدين العرب اليوم- يصرخون ويرتعون ويسبون الإسلام والمسلمين ويقولون من لمحمد بعد اليوم، فرجع الصحابيان وأخبرا رسول الله ﷺ بالخبر، وقد قلق رسول الله- ﷺ - حين بلغه غدرهم فاضطجع، ثم نهض وقال: «الله أكبر»، وبشر

(1) صحيح البخاري.

المسلمين بالنصر، وما هي إلا ساعات وقامت ريح عظيمة تدمر جيش الأحزاب وتقتلع قلوبهم فيهربون في الصحراء لا يلوون على شيء كما بينّا.

فعاد رسول الله ﷺ إلى بيته حامدًا ربه على النصر العظيم، وجاء موعد تأديب بني قريظة على خيانتهم للعهد وفتح جبهتهم الجنوبية أمام أي مجرم يريد محاربة المسلمين، فحاصرهم رسول الله ﷺ فطلبوا تحكيم سعد بن معاذ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في خيانتهم؛ لأنه كان رجلاً منهم فحكم بالتوراة نفسها التي يؤمنون بها، وهو أن يُقتل الخونة والمقاتلون، وليس كل الرجال كما تذكر بعض الروايات؛ لأن نص رواية البخاري تقرر أن الحكم يشمل المقاتلين فقط: «فإني أحكُمُ فيهم: أن تُقْتَلَ المُقاتِلَةُ».

فتم استئصال أفاعي الغدر والخيانة، وهذا الحكم لا يماري فيه إنسان، فالخيانة العظمى عقوبتها الإعدام حتى في الدساتير الوضعية.

لكن في واقع الأمر بعيدًا عن كل ذلك لا مانع إلحاديًّا من إبادة 99 % من البشر طبقًا للانتخاب الطبيعي والبقاء للأصلح، بل إن الإبقاء على الغير والبحث عن حقوقهم هذا يتعارض مع كل أسس الإلحاد المادي، بل لو كان الإنسان ابن الطبيعة فلن يشعر بالخطأ ولا الشبهة ولن يفهم معناهما؛ لأن الحتميات المادية تُحرك كل شيء، ولا يوجد في العالم المادي خطأ ولا ظلم ولا خير ولا شر، كما فصّلنا في بداية الكتاب، لذا فأنا أقول دائمًا أن الشبهة أكبر دليل على عدم وجود الإلحاد وأنه لا يصلح لتفسير ظاهرة الإنسان.

وشبهة بني قريظة التي عرضناها في هذه اللمحة لو اعترف الملحد بوقوعها، فيلزمه مسبقًا أن يعترف بأن نبوة نبينا ﷺ على أعلى الدرجات، فقد وقع خلالها الكثير من المعجزات التي نقلها نفس الأشخاص الذين نقلوا هذه الواقعة وبنفس درجة الثبوتية كما أوضحنا من قبل، ولله الحمد والمنة.

اللمحة الخامسة:

كان العرب ينتظرون نتيجة الصراع القائم بين قريش والنبي ﷺ، وكانوا يعتقدون أن الظالم لا يمكن أن يسيطر على المسجد الحرام، ولم تكن قصة أصحاب الفيل عنهم ببعيدة، فلما أكرم الله رسوله ﷺ بفتح مكة، لم يبق عندهم أدنى شك في كونه رسولاً حقًّا، فبدأت القبائل العربية تتوافد إليه من شتى البلدان تعلن إسلامها وتقر بطاعته ﷺ، وأخذ الناس يدخلون في دين الله أفواجًا، حتى سُمي العام التالي لعام فتح مكة - 9 هجرية - بعام الوفود، وأسلمت الجزيرة العربية لله في شهورٍ قليلةٍ لِما رأت من عناية الله برسوله ﷺ.

وفي هذا العام 9 هجرية بدأت الروم تستشعر قوة الحركات التحررية من نير الرومان التي تقودها القبائل العربية التي أسلمت، فرأى الرومان أن يقوموا بغزوة حاسمة يقضون بها على المسلمين في عقر دارهم، وتجهزت جيوش الروم للمعركة الكبرى وعلم رسول الله ﷺ بتحركهم، فاستنفر المسلمين وتحرك نحو تبوك لملاقاة جيش الروم، فيما يعرف في التاريخ الإسلامي بـ«غزوة تبوك»، وما أن علمت الروم بنزول رسول الله ﷺ في تبوك، إلا وخارت قواهم وألقى الله الرعب في قلوبهم فتفرقوا في داخل بلادهم، وظل رسول الله ﷺ عشرين يومًا معسكرًا في تبوك فلم يجرؤ منهم أحد على اللقاء.

وفي طريق عودته ﷺ إلى المدينة، مر الجيش بعَقبة فأخذ الناس بطن الوادي بينما سلك رسول الله ﷺ طريق العَقبة ولم يكن معه إلا حذيفة وعمار، فتبعه اثنا عشر رجلاً من المنافقين يريدون اغتياله في فرصة لن تتكرر وكانوا ملثمين، فعلم النبي ﷺ بشأنهم فأرسل إليهم حذيفة بن اليمان وحده

فأرعبهم الله وأسرعوا بالفرار، وأخبر النبي ﷺ حذيفة بأسمائهم فسُمي بصاحب سر رسول الله ﷺ.

وحاول الصحابة لسنوات عديدة بعد وفاة رسول الله ﷺ أن يعرفوا أسماء هؤلاء المنافقين لكن حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان يأبى، إلى أن مات ولم يُخرج سر رسول الله ﷺ.

كانت هذه لمحة من لمحات نصرة الله لنبيه، وتفضله عليه بالنعم والحفظ والمعجزات والنصرة بالرعب مسيرة شهر.

ثم يأتي ملحد أحمق ويقول: الإسلام انتشر بحد السيف، ووالله لو لم يكن نصرٌ من الله وتأييدٌ لنبيه لما تجاوز الإسلام شعب أبي طالب الذي حُبس فيه النبي ﷺ وصحابته إلى أن جاءت حشرة الأرضة، فأكلت صحيفة المقاطعة عدا لفظ الجلالة، فأخبر الله نبيه بالواقعه فأرسل رسول الله ﷺ بذلك، وتعهد الكفار إن كان ما قاله حقًّا أطلقوا سراحه فبهتوا وأسلم كثيرٌ منهم، لما رأوا ما أخبر به ﷺ، ثم انطلق بعدها النبي ﷺ مِن شِعب أبي طالب يبلغ رسالة ربه بعد أن بُهت الكافرون.

اللمحة السادسة:

المُكوِّن المعرفي والثقافي الضخم للقرآن الكريم حدا بالملحدين الحمقى أن يتفقوا مع المنصرين على أن النبي ﷺ تلقى العلم من بحيرا الراهب!

وهذا كلام ظاهر البطلان فالنبي ﷺ لم يلتق بحيرا الراهب إلا مرةً واحدةً!

فقد أراد أبو طالب أن يخرج بتجارةٍ إلى الشام في عيرٍ لقريش، وكان عمره ﷺ اثنتي عشرة سنة، فاستعظم رسول الله ﷺ فراقه، فرّق عليه

وأخذه معه، فلما نزل الركب قريبًا من مدينة بصرى على مشارف الشام خرج إليهم أحد كبار كهنة الشام وهو بحيرا الراهب، فتخلل القافلة ووصل إلى النبي ﷺ وأخذ بيده وقال: «هذا سيد العالمين، هذا رسول رب العالمين، هذا يبعثه الله رحمةً للعالمين».

قالوا: وما علمك بذلك؟

قال: «إنكم حين أشرفتم من العقبة لم يبق حجر ولا شجر إلا خر ساجدًا، ولا يسجدان إلا لنبي، وإني أعرفه بخاتم النبوة أسفل غضروف كتفه مثل التفاحة، وإنا نجده في كتبنا».

وقد جاء في بعض الروايات أن بحيرا الراهب نظر للقافلة من بعيد فرأى سحابةً تظلل النبي ﷺ من الشمس، فكلما اقترب بحيرا رأى من الآيات الشيء العجيب، فتخلل القافلة بسرعة وقال ما قال، ثم طلب من أبي طالب أن يعود به مسرعًا خوفًا عليه من اليهود، وقد نفَّذ أبو طالب وصيته!

ولا يزال دير الراهب بحيرا موجودًا إلى اليوم في مدينة بصرى التاريخية بسوريا.

هل في هذه الرواية التاريخية ما يثبت أن النبي ﷺ جلس ليتلقى العلم من بحيرا؟

أم أن فيها ما يثبت أن نبوة نبينا ﷺ في أعلى درجات النبوة، وأن لها شواهد لا تنتهي ولا تنحصر منذ طفولته ﷺ وأن بواعث نبوته مركوزة في أنفس الذين سبقوه؟

معلومة: فتش في كل شبهة يطرحها ملحد، وستجد فيها دلائل نبوة وآيات باهرة، لكنهم صمٌّ بكمٌ عميٌ!

اللمحة السابعة:

لما أراد النبي ﷺ أن يعتمر عمرة الحديبية، أرسل المشركون جيشًا بقيادة خالد بن الوليد -قبل أن يسلم- ليسد الطريق على المسلمين، ويمنعهم من البيت الحرام، وبعد أن اقترب المسلمون من جيش خالد وحانت صلاة الظهر، صلى بهم النبي ﷺ في وجه جيش خالد، فقال خالد: لقد كانوا على غرةٍ لو كنّا حملنا عليهم وهم يُصلون؟ فقرر أن يهجم أثناء صلاة العصر، فأنزل الله في ذلك اليوم صلاة الخوف بين الظهر والعصر ففاته الفرصة.

وقد رفض المشركون دخول المسلمين المسجد الحرام. وهذه جريمة لم يقوموا بها طوال جاهليتهم الجهلاء بل كانوا أحرص الناس على ضيافة الحجيج وحُسن وفادتهم.

المهم أن رسول الله ﷺ كان قد رأى في منامه أنه سيدخل مكة هو وأصحابه ويعتمرون ويحلقون ويقصرون رؤوسهم فأخبر بذلك أصحابه ففرحوا لكن لما صدهم الكفار بالحديبية ورجعوا غير معتمرين شق عليهم ذلك، فأخبرهم القرآن أن الرؤيا ستقع حقًّا، فقال تعالى: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾﴾ [الفتح: 27].

وقد صدق الله رسوله الرؤيا حقًّا وحدثت كل هذه الأمور في العام التالي مباشرةً، واعتمر هو وأصحابه، وجعل الله من دون ذلك فتحًا قريبًا أيضًا كما أخبر القرآن الكريم، وهو فتح خيبر في نفس العام.

ثم يأتي ملحد ويقول: القرآن لم يسجل أي معجزة!

ويأتي ملحد آخر ويقول: لماذا فتح المسلمون مكة طالما أنهم كانوا يؤدون مناسكهم بأمان؟ ويبدو أن الملحد العربي لم يقرأ في السيرة إلا من مواقع التنصير.

اللمحة الثامنة:

بعد عودة المسلمين من صلح الحديبية بدأ رسول الله ﷺ في مراسلة الملوك والأمراء يدعوهم إلى الإسلام ويُذكّرهم بمسئوليتهم تجاه رعاياهم، وقد أسلم كثيرٌ منهم لله إما سرًا أو جهرًا، وبعضهم اعترف له بالنبوة لكنهم خافوا من الأتباع والكهنة فظلوا على كفرهم-كما حصل مع المقوقس وعظيم الروم-، ولم يستهزئ برسالة رسول الله ﷺ إلا كسرى وفيه حدثت المعجزة الكبرى التي أسلم على أثرها أهل اليمن-وسنذكر القصة في اللمحة القادمة إن شاء الله-.

وقد أرسل رسول الله ﷺ إلى النجاشي أصحمة ملك الحبشة رسالةً يدعوه فيها إلى الإسلام، وأسلم النجاشي على يد جعفر بن أبي طالب وكتب إلى النبي ﷺ بإسلامه وبيعته، ومات في عام 9 هجرية ونعاه النبي ﷺ في اليوم الذي مات فيه، وصلى عليه صلاة الغائب.

أما المقوقس ملك مصر فقد أكرم حاطب بن أبي بلتعة رسول رسول الله ﷺ ووضع الرسالة في حُقٍ من عاجٍ وختم عليه، وكتب إلى النبي يُقر له بأن نبيًا قد بقي وأنه كان يظن أن خروجه بالشام، وأهدى حاطب جاريتين لهما شأنٌ عظيمٌ في القبط وهما مارية وسيرين، وأهداه بغلةً وكسوةً وأكرم نُزل حاطب إلى أن عاد إلى رسول الله ﷺ.

أما ملك عمان جيفر فقد أسلم هو وأخوه لله رب العالمين بعد حوارٍ طويلٍ مع عمرو بن العاص حامل رسالة رسول الله ﷺ إليهما.

أما المنذر بن ساوي ملك البحرين فقد أسلم هو وبعض قومه بعد وصول رسالة رسول الله ﷺ على يد العلاء بن الحضرمي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

أما قيصر ملك الروم فقد اعترف له بالنبوة ونادى في الناس بالإسلام، وقال قولته الشهيرة: لو كنت عنده لغسلت عن قدميه، وقال: يا معشر الروم! هل لكم في الفلاح والرشد وأن يثبت ملككم؟ فتُتابعوا هذا النبي. فحاص الكهنة حيصة حمر الوحش فخاف عظيم الروم على ملكه بعد أن رأى نفرتهم العظيمة التي رجت القصر، فعاد عن إسلامه وباء بإثمه وإثم رعيته كما قال النبي ﷺ.

هؤلاء كانوا سادة ذلك الزمان، ورأوا في رسالته ﷺ الحجة القائمة فتابعه بعضهم واعترف له بالنبوة أغلبهم!

ثم يأتي ملحد ساذج ويقول: الإسلام انتشر بحد السيف!

اللمحة التاسعة:

أرسل النبي ﷺ رسالةً إلى كسرى ملك الفرس -خسرو الثاني- يدعوه فيها للإسلام، وكان حامل الرسالة عبد الله بن حذافة السهمي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فلما قُرئت الرسالة على كسرى أخذها ومزقها ورمى بها، وأرسل رسالةً عاجلةً إلى باذان عامله على اليمن في صنعاء يقول له فيها: ابعث برجلين جلدين -قويين- إلى الحجاز، فليأتياني بهذا الرجل، فاختار باذان في سذاجةٍ نادرة رجلين من عنده ليأتيا برسول الله ﷺ، فلما قدم الرجلان إلى المدينة قابلا رسول الله ﷺ، ودخلا عليه وقد حلقا لحاهما وفتلا شواربهما، فكرِه النبي ﷺ النظر إليهما، وقال: «ويلكما من أمركما بهذا؟». قالا: ربنا. يقصدان كسرى، فقال الرسول ﷺ: «ولكن ربي أمرني بإعفاء لحيتي وقص شاربي».

فقال أحدهما: يامحمد إن شاهنشاه يعني ملك الملوك -يقصد به كسرى- قد كتب إلى الملك باذان يأمره أن يبعث إليك من يأتيه بك وبعثني إليك لتنطلق معي، وقالا قولاً فيه تهديد لرسول الله ﷺ، فلم يرد عليه النبي ﷺ وأمرهما أن يلاقياه غدًا.

وفي اليوم الثاني جاء الرجلان إلى النبي ﷺ فقال لهما النبي ﷺ: «أخبِرا الذي أرسلكما-باذان-: إن ربي قتل ربه الليلة- أي أن الله عز وجل أهلك كسرى في تلك الليلة-، وقولا له: إن ديني وسلطاني سيبلغ ما بلغ كسرى، وينتهي إلى منتهى الخف والحافر».

فقد انتقم الله لرسوله من كسرى وقتله في تلك الليلة، فعاد الرجلان إلى باذان يخبرانه بالأمر، فعجب جدًّا وانتظر الخبر من بلاد الفرس، فجاء الخبر بعد شهورٍ بمقتل كسرى في تلك الليلة التي حددها النبي ﷺ فعلاً، فأسلم باذان من هول المفاجأة، وأسلمت حكومته، وأسلم أهل اليمن بإسلامهم، وجاء وفدٌ من أهل اليمن يتعلمون الإسلام، وأرسل فيهم رسول الله ﷺ معاذ بن جبل.

وأمر النبي ﷺ وبر بن يحنس ببناء جامع في بستان باذان -سنة 6هجرية-، وحدد قبلته وإحداثياته بالضبط ببعض الصخور سيجدونها هناك.

وهذه معجزة أخرى مدهشة فصنعاء تبعد عن المدينة أكثر من 800 كيلو متر، وقد حافظ أهل اليمن قديماً وحديثاً على موقع المسجد الذي أمر به رسول الله ﷺ أن يُبني فيه، وذلك بالحفاظ على معالم حدوده التي حدَّها رسول الله ﷺ لبنائه، مثل الصخرة الململمة أحد حدّي المسجد وموقعه اليوم بين ساريتين من سواري المسجد تسمى إحداهما «المسمورة» والأخرى «المنقورة».

وسبحان الله نكتشف اليوم بالأقمار الصناعية أن القبلة التي حددها النبي ﷺ منذ أكثر من 1400 عام هي القبلة المثالية للجامع، فتصير معجزة جديدة كبرى نشهدها اليوم ويشهدها أهل اليمن إلى قيام الساعة.

والملحد الذي يطالبنا بدليل مادي رصدي قائم على معجزة من معجزات النبوة يمكنه ببساطة أن يرصد المسمورة والمنقورة في الجامع الكبير بصنعاء إلى اليوم![1].

اللمحة العاشرة:

بعدما بلَّغ رسول الله ﷺ الرسالة، وأدى الأمانة ونصح الأمة بدأت طلائع الوادع من الدنيا تتسم في أقواله وأفعاله...

اعتكف في رمضان من السنة العاشرة عشرين يومًا، وعارضه جبريل القرآن مرتين.

فقال لابنته فاطمة: «لا أرى ذلك إلا اقتراب أجلي». وودع معاذًا إلى اليمن فأوصاه، ثم قال: «يا معاذ إنك عسى ألا تلقاني بعد عامي هذا، ولعلك أن تمر بمسجدي هذا وقبري».

فبكى معاذ خشيةً؛ لشعوره بقرب فراق رسول الله ﷺ.

وقال ﷺ في حجة الوادع مرارًا: «لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا، ولعلي لا أحج بعد عامي هذا».

وكان نزول قوله تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا﴾ [المائدة: 3].

(1) https://www.youtube.com/watch?v=H99ycqm9q_I.

وكذلك نزول سورة النصر: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ۝٣﴾ [النصر: 1 - 3].

إشعارًا بأنه فرغ من مهمته في الدنيا، ولذلك سُميت بحجة الوداع، أي أنه ودَّع الناس للقاء ربه.

وفي أوائل صفر 11 هـ قبل وفاته بشهرٍ خرج ﷺ إلى جبل أُحد، فصلى على الشهداء كالمودع للأحياء والأموات، ثم انصرف إلى المنبر فقال: «أنا فرطٌ لكم، وأنا شهيدٌ عليكم، وإني والله لأنظر إلى حوضي الآن، وإني أُعطيت مفاتيح خزائن الأرض، أو مفاتيح الأرض، وإني والله ما أخاف عليكم أن تشركوا بعدي، ولكني أخاف عليكم أن تنافسوا فيها».

وفي أواخر صفر خرج إلى بقيع الغرقد في جوف الليل فاستغفر لهم، وقال: «إنا بكم لاحقون».

وفي الشهر التالي الذي مات فيه-ربيع الأول- دخل إلى بيت عائشة، وقال: «مَن كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد، إني أنهاكم عن ذلك».

وقال: «لا تتخذوا قبري وثنًا يُعبد».

وعرض نفسه أمام الناس للقصاص- مَن له عنده مظلمة فليقتص منه، وهذا من كمال خلقه ﷺ، وأوصى بالأنصار خيرًا، ثم قال: «إن عبدًا خيَّره الله بين أن يؤتيه من زهرة الدنيا ما شاء وبين ما عنده، فاختار ما عنده».

فبكى أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقال: فديناك بآبائنا وأمهاتنا. فقال الناس: انظروا إلى هذا الشيخ، يخبر رسول الله ﷺ عن عبدٍ خيَّره الله

بين أن يؤتيه من زهرة الدنيا وبين ما عنده، وهو يقول: فديناك بآبائنا وأمهاتنا.

ولم يكن الناس يعلمون أن المُخير هو الحبيب المصطفى ﷺ، فكان أبو بكر أعلمهم كما قال راوي الحديث أبو سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ثم أثنى رسول الله ﷺ على أبي بكرٍ، وأمر بسد الأبواب المفتوحة في المسجد من البيوت المحيطة إلا باب أبي بكر.

وبدأ يشتد المرض بالحبيب ﷺ فأرسل أبا بكر أن يصلي بالناس.

ويوم الأحد السابق مباشرةً لوفاة الحبيب ﷺ تصدق بكل ما عنده من مالٍ وكانوا سبعة دنانير، ووهب المسلمين سلاحه، وكانت درعه مرهونةً عند يهودي بثلاثين صاعًا من شعير.

ولما أصبح يوم الإثنين يوم وفاة الحبيب ﷺ قام أبو بكر يصلي بالناس صلاة الفجر، فكشف رسول الله ﷺ ستر حجرة عائشة ونظر إلى المصلين ثم تبسم يضحك، فنكص أبو بكر على عقبيه وكاد الناس أن يفتتنوا فرحًا بالحبيب ﷺ فأشار إليهم بيده أن أتموا صلاتكم، ثم دخل الحجرة وأرخى الستر.

ودعا رسول الله ﷺ فاطمة الزهراء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فسارّها بشيءٍ فبكت، ثم سارّها بشيءٍ فضحكت، وسألتها عائشة عن ذلك فكتمت، حتى توفي رسول الله ﷺ فأخبرتها أنه قال لها في الأولى أنه يموت في مرضه هذا فبكيت، وقال لها في الثانية أنها أول أهله لحوقًا به فضحكت.

وبدأ الاحتضار بالحبيب ﷺ فجعل يُدخل يديه في الماء، ويمسح بهما وجهه، ويقول: «لا إله إلا الله إن للموت لسكرات». ثم رفع يديه أو إصبعه

وشَخَص ببصره نحو السقف وتحركت شفتاه، فأصغت إليه عائشة فسمعته يقول: «مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، اللهم اغفر لي وارحمني وألحقني بالرفيق الأعلى، اللهم الرفيق الأعلى». وكرر الكلمة الأخيرة ثلاثًا، وفاضت روحه، ولحق بالرفيق الأعلى.

وتسرب الخبر بين الصحابة في لحظات، فأظلمت عليهم الدنيا وكادوا يفقدون وعيهم، فلم يكن يومٌ أحسن ولا أضوء من يوم دخل فيه رسول الله ﷺ المدينة، ولم يكن يومٌ أظلم من يوم مات فيه، ولم تُصب الأمة بمصابٍ أعظم من مصاب موته، اللهم صل وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ومَن والاه.

وبعد!

دلائل النبوة

فأما دلائل نبوته ﷺ: فلا حصر لها...

ومن دلائل النبوة:

(1) حادث «طُعمة»؛ وطُعمة كان رجل مسلم مسكين، سرق درع من جاره وخبأها عند يهودي، فوجد الناس الدرع عند اليهودي، فتحركت العصبية وقال اليهود أن المسلم «طعمة» هو سارق الدرع، وقال المسلمون إنها مكيدة يهودية للإسلام، فنزل الوحي بكشف طعمة وتبرئة اليهودي، فاستسلم طعمة واعترف ﴿وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١١٢﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ ۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ

عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾ ﴾ [النساء: 112 - 113]، فالذي كسب الخطيئة هو طعمة، والبريء هو اليهودي.

بل إن القرآن يعلم النبي ﷺ أن يستغفر لظنه السوء باليهودي ﴿وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾ ﴾ [النساء: 106].

وإن كان معذورًا ﷺ، لكن ما صدر منه بالنسبة إلى مقامه المحمود ﷺ يوشك أن يكون كالذنب.

﴿ وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾ ﴾ [النساء: 107].

فما أحكم القرآن وما أعدله حتى مع اليهودي!!

وما كانت هذه الآيات إلى من دلائل نبوته ﷺ إذ كيف يهم النبي ﷺ باتهام اليهودي مع اجتماع القرائن على تهمته، وفجأةً تنزل الآيات التي تُبرئه وتدافع عنه وتنقل التهمة إلى طُعمة، فالحمد لله رب العالمين!

(2) حادث حاطب ابن أبي بلتعة؛ الذي أرسل إلى قريش قبل فتح مكة يُخبرهم بأمر النبي ﷺ، حتى يؤمنه المشركون على أهله بمكة، وأرسل الرسالة مع امرأة، فأخبر الله نبيه، فأمر النبي ﷺ عليًا والزبير والمقداد أن ينطلقوا حتى يأتوا مكان يدعى «روضة خاخ» فإذا به امرأة معها كتاب وليأخذوه منها، فحدث ما أخبر به ﷺ. وسجّل الله هذا الحادث في كتابه ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ ۙ أَن تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى ۚ تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ ۚ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١﴾ ﴾ [الممتحنة: 1].

(3) أخبر النبي ﷺ أن التمكين قادم للإسلام في الأرض، وأنها ستعمر بعبادة الله فقال: «إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها، وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوي لي منها، وأعطيت الكنزين: الأحمر والأبيض». ولم يمض جيلٌ من الناس حتى كان الإسلام جناحاه بين أفغانستان شرقًا والأندلس غربًا.

(5) إخباره ﷺ بتقارب الزمان والمكان، وبالفعل ظهرت الوسائل السريعة للاتصال والنقل والتي جعلت أجزاء الأرض متقاربة، كما أخبر النبي ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى يتقارب الزمان وتزى الأرض زيًّا». أي: تُطوى ويضم بعضها إلى بعض.

(6) إخباره ﷺ بأننا لن نعود في حاجة إلى الجِمال بعد ظهور وسائل جديدة فقال ﷺ في أحاديث آخر الزمان: «ولتُتركن القلاص فلا يُسعى إليها». القلاص: الجِمال.

لمحة عن السُّحب:

السحاب عبارة عن سيول عملاقة تطير في جو السماء، وينزل ليُشكل الأنهار والمياه الجوفية والآبار.

وكان القدماء يظنون أن المياه الجوفية تتكون نتيجة فجوة في قلب الأرض تنقل مياه المحيط إليها - الطرح الأرسطي -، بينما يقول القرآن خلاصة ما توصل له العلم منذ عقود قليلة فقط، وهو أن المياه الجوفية مصدرها مياه الأمطار ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُۥ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ﴾ [الزمر: 21].

فمصدر المياه الجوفيه هو الينابيع المتكونة من الأمطار، وليس فجوة أرسطو التي في عمق القارة.

ويتكون السحاب نتيجة تبخر الماء وصعوده إلى مستوى يتجاوز أعلى قمم الجبال غالبًا، حتى لا تصير الجبال عائقًا لحركة السحب إلى أواسط القارات ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ ﴾ [الأعراف: 57].

ومن العجيب أن برودة الجو في الطبقات العليا سبب رئيس في عدم مغادرة السحاب لجو الأرض إلى ما بين الكواكب فيضيع الماء، وبالتالي تخرب الأرض و تتوقف الحياة ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [المؤمنون: 18].

فذهاب الماء المتصاعد أولى فيزيائيًا من تجمعه ثم نزوله مرةً أخرى، ولذا امتنَّ الله علينا بحفظه.

وعندما يصعد بخار الماء الخفيف نتيجة عمليات البخر، تتحرك الرياح المحملة بذرات الغبار فتتجمع حول ذرات الغبار جزيئات بخار الماء، ثم تتضخم تلك الجزيئات فتصير سحابًا عملاقًا به مليارات الجالونات من المياه محمولة في جو السماء ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ ﴾ [الروم: 48].

والآية صريحة في أن الرياح هي التي تُثير السحاب وإلا ما تجمع بخار الماء على شكل سحب، ولظل بخار الماء تائهًا في طبقات جو الأرض الفسيحة.

وهذه الرياح لها منظومة من ثلاث درجات بحيث تضبط حركة السحب وتنقلها وترفعها وتثيرها دون تداخل بين هذه الدرجات، فهناك درجة الرياح العادية وهي الملاصقة للأرض حتى ارتفاع 5 أميال ثم تأتي درجة التيار النفاث وهي رياح بسرعة 200 ميل في الساعة ولو نزلت إلى الارض لدمرت كل شيء، وليست الأعاصير المدمرة بسرعة 75 ميل إلا عبرة،

وتأتي الدرجة الثالثة وهي عند مستوى 8 أميال فوق مستوى سطح البحر وهي منطقة بلا ريح.

المهم بعد أن تتشكل السُّحب بإثارة الريح لها، ينزل الماء من السحب بمنظومة أعجب-منظومة القطرات لا السكب المفاجيء-، وتسلك تلك القطرات في الأرض دون أن تتعفن ولا تركد على ظهر الأرض فتعيق الحركة، ولا تغوص في باطن الأرض فلا ننتفع بها، بل تظل قريبّة من سطح الأرض في متناولنا، ويظل ماؤها نابعًا ومعينًا؛ و لو افترضنا أن مسامية الصخور التي ينزل ماء المطر بين عروقها زادت فقط للضعف لغار الماء في بطن الارض وما استطعنا إليه سبيلاً ولانهارت منظومة المياه الجوفية التي يعيش عليها 40% من البشر- أي يعيشون على نعمة أن مسام الصخور بهذا الحد الذي يتيح حفظ الماء وليس غوره بعيداً في قلب الأرض-، والله فقط يُذكرنا بهذه النعمة التي ربما لا نلتفت لها فيقول سبحانه ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الملك: 30].

لكن هنا السؤال الهام: كيف ضبط القرآن الكريم هذه المفاهيم العلمية الصحيحة لكيفية تكون السحب ونزولها وطريقة تشكل المياه الجوفية ونعمة عدم غَور الماء؟

ثم كيف نفترض أن الطبيعة العمياء قدّرت لنا هذه النعم بهذا الضبط التي لو اختلت منها منظومة واحدة لما كنّا هنا لنكتب أصلاً؟

نعود لتكملة دلائل النبوة:

(7) الجلد مصدر الإحساس وأغلب مراكز الإحساس في الجلد فحسب، ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾ ﴾ [النساء: 56].

فكلما نضجت جلودهم ظنوا أنهم استراحوا من عذاب النار، ويخبرنا سبحانه أنه سيبدلهم جلودًا غيرها، فكيف علم النبي ﷺ أن قضية الإحساس جلدية في المقام الأول؟

كيف علم النبي ﷺ أن نضج الجلد يوقف الألم؟!! ففي الدرجة الثالثة ينتهي عمل عصب الإحساس تمامًا، ولذا فالحرق المؤلم هي حرق الجلد فحسب ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوۡفَ نُصۡلِيهِمۡ نَارٗا كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمٗا ﴾ [النساء: 56]، أعاذنا الله من نار الدنيا والآخرة.

(8) حتى عام 1900 كانت فكرة وجود أمواج عميقة غير مطروحة، إلى أن لاحظ العلماء الإسكندنافيون في أوائل عام 1900 أمواج تحت سطح الماء، تقذف الغواصات على أبعاد عميقة ﴿ أَوۡ كَظُلُمَٰتٖ فِي بَحۡرٖ لُّجِّيّٖ يَغۡشَىٰهُ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ سَحَابٞ ﴾ [النور: 40].

(9) موافقة صفة النبي الخاتم واسمه ونعته لما يجده أهل الكتاب موصوفًا في كتبهم، ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ ﴾ [الأعراف: 157].

وبسفر نشيد الإنشاد في التوراة إلى اليوم اسم محمد ﷺ بالعبرية.. الذي يترجمه النصارى في الترجمة العربية إلى مشتهى الأمم، محمد نطقًا وكتابةً في ترجمة The KJV Old Testament Hebrew Lexicon Original Word من اليمين إلى الشمال: dmxm وبالنطق اللاتيني تتطابق مع «محمد» 'Transliterated Word Machmad Phonetic Spelling.... makh-mawd

وفي الإنجيل إلى اليوم الباركليتوس القادم الذي بشّر به المسيح والذي معناه باليونانية أفعل تفضيل من الحمد أي أحمد، والباراكليتوس ليس هو

الروح القدس كما يُروج أحبار النصارى؛ لأن الباركليتوس لن يأتي حتى يذهب المسيح، والروح القدس نزل على المسيح علي هيئة حمامة قبل هذا الحوار الذي تنبأ فيه بقدوم أحمد بسنوات.

(10) جاء في كتاب أدروا فيدم-الكتاب المقدس لدى الهندوس- وصف النبي ﷺ باسمه ونعته: «أيها الناس اسمعوا، يُبعث محمد بين أظهر الناس، وعظمته تُحمد حتى في الجنة». [الجزء 20، فصل127، فقرة70، عبارات 1 - 3].

وجاء في بهوشي برانم: «في ذلك الحين يُبعث محمد أُستاذ العالم، مُطهر بالخمس المطهرة- الصلوات الخمس-». [الجزء 2 الفصل 3 عبارات 3 وما بعدها].

(13) وما زالت كتب الهندوس إلى اليوم تحمل البشارة بالنبي ﷺ[(1)].

The Sanskrit text and translation of Verse 5 of Bhavishya Puran, Prati Sarg Parv III: 3, 3 are given below. (The boxed area in the Sanskrit text identifies the word Mahamad or Mohammad).

A malechha (belonging to a foreign country and speaking foreign language) spiritual teacher will appear with his companions. His name will be Mahamad...

The translation of Verses 5-27 (Sanskrit text of the Puranas, Prati Sarg Parv III: 3, 3) is presented below from the work of Dr. Vidyarthi.

"A malechha (belonging to a foreign country and speaking foreign language) spiritual teacher will appear with his companions. His name will be Mahamad. Raja (Bhoj) after giving this Mahadev Arab (of angelic disposition) a bath in the

(1) Bhavishya puran: prati sarg, part III: 3, 3, 5.
PROPHET MUHAMMAD IN HINDU SCRIPTURES.
http://www.cyberistan.org/islamic/prophhs.html.

'Panchgavya' and the Ganges water, (i.e. purging him of all sins) offered him the presents of his sincere devotion and showing him all reverence said, <I make obeisance to thee. 'O Ye! the pride of mankind, the dweller in Arabia, Ye have collected a great force to kill the Devil and you yourself have been protected from the malechha opponents (idol worshipers, pagans). 'O Ye! the image of the Most Pious God the biggest Lord, I am a slave to thee, take me as one lying on thy feet.

النبوءة الكبرى

﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥ وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ۝٦﴾ [الروم: 2 - 6].

لقد كان النبي ﷺ يتنبأ بانتصار المهزوم -الروم- الذي يكاد يستسلم لخصمه، ويحدد موعداً دقيقاً لهذا النصر الذي ما من شيء أبعد في تحققه منه.

اشتدت المعارك بين الروم والفرس خلال الفترة التي كان فيها المسلمون في مكة يعانون الأمرين من المشركين فقد كان أبرويز قد قاد حملة فارسية سنة 611 توّجت بانتصار كاسح على الروم في معركة أنطاكية - قرب البحر الميت - سنة 614 وكان هذا الخبر قد أحزن الرسول ﷺ وأفرح المشركين.

فجاء القرآن الكريم بتحديات غيبية معجزة وعجيبة:

(1) أن الروم غُلبت في أدنى الأرض. أي أخفض منطقة بالعالم

وبالفعل هذه المنطقة تقع قرب البحر الميت وهي التي وقعت المعركة قريبًا منها[1].

(2) يقرر القرآن الكريم في وعد عظيم ومدهش أن الروم بعد هزيمتهم سينتصرون في بضع سنين وهذا وعد الله لا يخلف الله وعده.

وهو ما دفع أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ للرهان مع أهل قريش أن الروم ستنتصر في بضع سنين من 3 - 9 سنوات.

الآن نعود لمعركة أنطاكية وبعد هذه المعركة التي حدثت كما ذكرنا عام 614 م وطيلة تسع سنوات لم تكن الروم تقف في وجه الجيوش الفارسية، بل كانت المدن تتوالى ساقطةً واحدة تلو أخرى وكان أبرويز يحرق الكنائس ويذبح الآلاف، حتى يروى أنه في القدس وحدها قتل تسعين ألفًا من المسيحيين ثم انتزع منها أقدس رمز ديني عند الروم وهو صليب الصلبوت وكانت هذه علامة على نهاية الروم.

الآن لا يوجد أدنى بصيص أمل في الأنتصار مجددًا وإلى عام 616 كان الفرس لهم الزعامة في العالم وانتزعوا الإسكندرية عام 616 م ووصلنا الآن إلى العام 619 م والفرس ينتصرون ويسحقون الروم سحقًا، ولم يبق على انتهاء المهلة التي حددها القرآن إلا أربع سنوات وفي هذه الفترة كان هرقل ملك الروم غارقًا في اللهو والخمر ومعاقرة النساء، وتتساقط منه الدول والمدن بلدًا بعد الآخر وقد سقطت منه مصر في تلك الأثناء وصارت تابعة للفرس.. ثم فجأةً تحدث اليقظة المفاجأة لهرقل - على حد تعبير كتّاب التاريخ - فيهجر ليالي الملذات ويركب الفرس ويمتشق السلاح!!

---

(1) أخفض منطقة بالعالم قرب البحر الميت.
http://en.wikipediaorg/wiki/extretremes-on-earth

ثم في المقابل أيضًا حدثت ظاهرة مماثلة لكنها معكوسة، إذ نجد أبرويز يتوقف فجأةً عن القيادة، وينغمس في اللهو على نحوٍ مفرط، حيث سيعتزل في قصر بدستجرد لينغمس في الملذات، وكان شغله الشاغل هو تحفيز النحاتين على نحت تمثال لشيرين أجمل زوجاته اللاتي بلغ عددهن ثلاثة آلاف!!

وبدأت المناوشات بين الروم والفرس تصب في صالح الروم لأول مرة وظلت المناوشات تزداد يومًا بعد يوم في صالح الروم إلى أن حدثت المعركة بين الروم والفرس عام 623 واسترد الروم ليس أنطاكية فحسب بل كل بلاد الشام من الفرس أي بعد الهزيمة بتسع سنوات تمامًا كما تنبأ القرآن، وسنة 624م كان طرد الفرس من سوريا يوم نصر بدر. و ظل هرقل زاحفًا حتى احتل عاصمة فارس واسترجع منها صليب الصلبوت.

ما الذي يدفع القرآن للحديث عن نبوءة كهذه؟ لو لم تقع ولو استمر هرقل غارقًا في ملذاته لسقطت الدعوة...!!

لكن القرآن تحدث عن ذلك وتحققت نبوئته، فكان أول انتصار للروم من بعد هزائمهم المتتالية بعد تسع سنوات بالضبط من هزيمتهم في أنطاكية.

يقول المؤرخ إدوار جبن Edward Gibbon «في ذلك الوقت، حين تنبأ القرآن بهذه النبوءة، لم تكن أية نبوءةٍ أبعدَ منها وقوعًا؛ لأن السنين العشر الأولى من حكومة هرقل كانت تؤذن بانتهاء الامبرطورية الرومانية»[1].

نعود لتكملة دلائل النبوة:

(1) الإسلام يوافق في عقيدته عقيدة جميع أنبياء العهد القديم فالإسلام

(1) تاريخ انحدار وسقوط الامبراطورية الرومانية، المجلد 5 ص74، طبعة جيه دي موريس.

هو تصحيح لمسار الديانات التي انحرفت، وإعادة لنهج أنبياء العهد القديم من لدن آدم إلى نوح وصالح وأيوب وهود وإبراهيم وموسى وداوود ويونس وهارون وعيسى، فعقيدة هؤلاء جميعاً هي عقيدة الرب إلهنا رب واحد بلفظ التوارة والإنجيل، هذه العقيدة التي لا تعرف تثليث ولا أقانيم ولا موت آلهة منتحرة ولا انتزاع آلهة من آلهة أخرى - انتزاع الروح القدس من الآب - ولا آلهة قومية، يقول تعالى: ﴿ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ ﴾ [الشورى: 13].

وقال تعالى: ﴿ ۞ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ ﴾ [النساء: 163].

إذن فالإسلام ليس ديانة كالديانات وإنما هو أصل الديانات وتصحيح للخلل الذي أصاب الديانات، وبالأخص اليهودية والمسيحية في نسختيهما العهد القديم والجديد.

ألم تر إلى ربك كيف مد الظل

يقول دكتور محجوب عبيد -رحمه الله- عالم الفضاء السوداني بناسا، والذي توفي في أوائل عام 2014.

عندما قال الله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾ ﴾ [الفرقان: 45 - 47].

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ ﴾ والمعني هنا واضح: ألم تنظر إلى بديع صنع الله وقدرته، كيف بسط الظل ومده. والإشارة إلى وقت النهار ابتداءً من الزوال، او منتصف النهار، وهو وقت زيادة طول الظلال.

والتأمل المطلوب في كيفية مد الظل يقود للتفكير في سببه، فنجد أن سببه دوران الأرض حول نفسها في اتجاه الشرق والغرب.

ما وجدنا له سبباً سوى إرادة الله سبحانه وتعالي، ذلك أن أجراماً سماوية كثيرة لا تدور حول نفسها، وهي إن دارت حول نفسها تدور في اتجاهات عفوية، فليس مما يناقض أي قانون طبيعي أن يكون دوران الأرض علي غير ما هو عليه، ولذلك جاءت الجملة اعتراضية: ﴿وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ﴾.

وهو إنما يكون ساكناً في حالتين فقط: في حالة سكون الأرض أو في حالة دورانها حول نفسها جنوباً وشمالاً، ويكون معني الجملة الاعتراضية: لو شاء الله لجعل الأرض ساكنة أو جعل دورانها شمالاً وجنوباً وإذن لما اختلت الظلال بل صارت ساكنة في نصف الأرض الذي يواجه الشمس، ولتكدرت حياة الإنسان بالحر الدائم علي هذا النصف والبرد الدائم علي النصف الأخر، ولا يكون في ذلك ما يناقض ما يعلم الإنسان من القوانين الطبيعية.

ولقد راجعت استعمال التعبير ﴿وَلَوْ شَآءَ ﴾ في القران الكريم، فوجدت في كل الحالات إن ما يرد بعد التعبير يكون مما لا يناقض حدوثه شيئاً مما نعلم من السنن والقوانين، ولكنه لا يحدث في الواقع بسبب إرادة الله.

من أمثلة ذلك:

﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾ [المائدة: 48]، ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ﴾ [الأنعام: 35]، ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم ﴾ [البقرة: 253]، ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ﴾ [يونس: 99]، ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ ﴾ [النساء: 90]، إلى آخر الآيات وهي كثيرة، بعد هذه الجملة الاعتراضية:

﴿ ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ﴾ [الفرقان: 45].

﴿ ثُمَّ ﴾ هنا تفيد الترتيب والتوقيت، أي: بعد أن يكتمل مد الظل تحت أعيننا، تكون الشمس دليلنا عليه، وذلك قبيل الغروب بقليل بعد أن يتعذر علي الناس متابعة امتداد الظلال إذ تطول وتبعد وتخفت وتتداخل، فيكون موضع الشمس دليلنا عليها، وبالنظر للشمس وتحديد موضعها نستطيع أن نحسب طول الظل واتجاهه وحدوده مما كان متيسراً بالقياس المباشر من وقت الزوال حتى هذا الحين قبيل الغروب.

وتستمر الشمس دليلنا علي الظلال حتى ارتفاعها بعد الشروق قدراً يمكن الإنسان من متابعة الظل علي وجه الأرض بالقياس المباشر، فيراه الآن ينحسر ويتضاءل، ولذلك جاءت الآية:

﴿ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾ ﴾ [الفرقان: 47] ونلاحظ ﴿ يَسِيرًا ﴾ مرة أخرى لمقتضى الترتيب والتوقيت. ويستمر انحسار الظل حتى وقت الزوال، فنكون قد أكملنا يوماً كاملًا من الزوال إلى الزوال، أي دورة كاملة من دورات الأرض حول نفسها شرقاً وغرباً. وهذا الدوران يحقق امتداد الظلال وانحسارها، ويحقق أيضا الليل والنهار، لذلك جاءت الآية:

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴾ أي: جعل دوران الأرض أيضا سبباً في الليل والنهار، وبهما تستقيم الحياة، إذ في الليل ستر وراحة للأبدان بالنوم وفي النهار انتشار الناس ومعايشهم.

ولكن نتساءل هل كل الدوران شرقاً وغرباً للأرض حول نفسها يحقق المعيشة الطيبة المستقرة بتعاقب الليل والنهار؟ الإجابة أن لمعدل الدوران أهمية قصوى في هذا، إذ هو الذي يحدد طول الليل وطول النهار. ولا يعرف الإنسان قانونًا طبيعيًّا يمنع أن تدور الأرض حول نفسها بمعدل عالٍ جدًّا، ففي السماء أجرام معلومة تدور حول نفسها بمعدل ثلاثين مرة في الثانية الواحدة.

ولكن تدبير الله سبحانه وتعالي جعل الأرض تدور حول نفسها بمعدل معين، مكن من تعاقب الليل و النهار بحيث تحققت راحة الأبدان ليلاً وتحصيل المقاصد والمعايش نهارًا، ولقد أشار لذلك بغاية البيان والتبيان، في لفظ ﴿يَسِيرًا ﴾ في الآية:

﴿ ثُمَّ قَبَضْنَـٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾ ﴾ أي: جعل الظل ينحسر شيئاً فشيئاً في تدرج ويسر وتأنٍّ. تبارك الله أحسن الخالقين.

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَـٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾ ﴾ [الفرقان: 45 - 47].

والله أعلم بمراده

نعود لتكملة دلائل النبوة:

(13) كيف لرجل يرعى الغنم على قراريط لأهل مكة أن يضع دستورًا يستمد منه الأولون والآخرون موادهم وقوانينهم؟

يقرر مارسيل أ. بويسارد Marcel A. Boisard في دراسة مستقلة أن: «أصول القانون الدولي الحديث مستمدة بالأساس من دواوين الفقه الإسلامي.»

وتشريع نابليون Napoleonic Code , French civil code مُستمد من الفقه المالكي.

بل وتم الاعتراف بالشريعة الإسلامية كمصدر عالمي للتشريع والقانون في عدد من المؤتمرات الدولية العلمية منذ عام (1932م) منها:

1- القانون المقارن الدولي في لاهاي عام 1932م.

2- مؤتمر لاهاي المنعقد في عام 1937م.

3- مؤتمر القانون المقارن في لاهاي 1938م.

4- المؤتمر الدولي عام 1945م بواشنطن.

5- شعبة الحقوق بالمجمع الدولي للقانون المقارن 1951م بباريس.

وقد صدرت عن هذه المؤتمرات قرارات هامة هي:

أ- اعتبار التشريع الإسلامي مصدرًا رابعًا لمقارنة الشرائع.

ب- الشريعة الإسلامية قائمة بذاتها لا تمت إلى القانون الروماني أو إلى أي شريعة أخرى.

ج- صلاحية الفقه الإسلامي لجميع الأزمنة والأمكنة.

د- تمثيل الشريعة الإسلامية في القضاء الدولي ومحكمة العدل الدولية.

(14) كيف يعلم رجل يرعى الغنم على قراريط لأهل مكة أن الجبال أوتادًا؟ ﴿وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ۝٧﴾ [النبأ: 7].

يقول الدكتور André Cailleux في كتابه «تشريح الأرض»:

The mountains, like pegs, have deep roots embedded in the ground, These roots are deeply embedded in the ground, thus, a mountain have a shape like peg.

الترجمة: الجبال تشبه الأوتاد فهي تملك جذوراً عميقة في الأرض، هذه الجذور ممتدة بعمق في الأرض ولذلك فإن شكل الجبل يشبه الوتد.

ما هذه الدقة الجيولوجية العجيبة؟

(15) كيف يتنبأ ﷺ أن أمته ستكثر ثم ستتداعى عليها الأُمم؟

«يوشك أن تداعى عليكم الأمم من كل أفق كما تداعى الأكلة على قصعتها». قال: قلنا: يا رسول الله أمن قلة بنا يومئذ؟ قال: «أنتم يومئذ كثير ولكن تكونون غثاء كغثاء السيل، ينتزع المهابة من قلوب عدوكم ويجعل في قلوبكم الوهن». قال: قلنا: وما الوهن؟ قال: «حب الحياة وكراهية الموت»[1].

(16) أخبر النبي ﷺ أن أسرع أزواجه لحوقًا به أطولهن يدًا، فكانت زينب رَضِيَٱللَّهُعَنۡهَا لطول يدها بالصدقة[2].

(1) صححه الألباني في صحيح الجامع.
(2) رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما.

(17) إعجاز القرآن البلاغي: فقد نزل القرآن في أعظم الأقوام فصاحةً وبلاغةً وكانت تُعقد الأسواق للتبارز بالفصاحة واللغة، فجاء القرآن في درجة من البلاغة لم يُعهد مثلها في تراكيب العرب، يقول د.الطيب بو عزة: «وكانت فصاحة العرب أكثرها في وصف المشاهدات والغزل والتغني بالأمجاد، وكان الشاعر الذي يتقن المديح يضعف عند غيره والقرآن جاء فصيحًا في كل فن، على نفس المستوى والنسق وجاء القرآن للتأسيس لمنهج حياة في الإقتصاد والسياسة والعبادة وما يُحسن الدين والدنيا دون أن يخرج عن قالبه البلاغي، وأعلن في هذه اللحظة عن تحدي هؤلاء أن يأتوا بمثله فرأى هؤلاء أن تجميع الجيوش وتحزيب الأحزاب وتأليب القبائل لمحاربة رسول الله أهون وأيسر من معارضة القرآن وقبول التحدي، فكانوا يؤلبون القبائل من ناحية ويقولون لا تسمعوا لهذا القرآن من ناحية أخرى فهذا بالغ جهدهم لمعارضة الدين الجديد، ثم إنهم كانوا يختبئون فرادى يستمعون القرآن من فرط انجذابهم لسحره، حتى إذا تقابلوا قرب الفجر اجمعوا ألا يعودوا لمثلها وهكذا، ولذا اجتمعت كلمة وفود العرب على ألا يسمعوا للقرآن ولا يُسمعوه أهليهم واعتبروا أن هذا هو السبيل الوحيد لمقاومة التحدي بمثل هذا القرآن ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [فصلت: 26].

(18) كيف له ﷺ أن يتنبأ بأن الحفاة العراة رعاة الغنم في الخليج سيتطالون في البنيان؟

برج خليفة في الإمارات الأطول في العالم، وتبني السعودية في جدة برجًا أطول منه؟! بل وتُصنف مدن الخليج الآن في المعايير العالمية أنها ظواهر خرسانية عملاقة!

ففي حديث جبريل المعروف عندما سأل النبيَّ ﷺ عن الساعة وقال: أخبرني عن أمارتها. فقال ﷺ: «أن تلد الأمة ربتها، وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان»[1].

(19) أخبر ﷺ أم حرام بنت ملحان أن أُناسًا من أمته سيركبون البحر غزاةً في سبيل الله، وستكون هي أول الشهداء في غزاة البحر وقد كان[2].

(20) أخبر ﷺ أننا سنقاتل الترك صغار الأعين حمر الوجوه ذلف الأنوف كأن وجوههم المجال المطرقة، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «وهؤلاء الطوائف كلها قاتلهم المسلمون، وهؤلاء هم التتار وهذه هي صفتهم»[3].

(21) إخباره ﷺ بحدوث الردة، مع أن هذا كان مستبعدًا تمامًا في عصره، وكان الناس يأتون للدين أفواجًا وتُسلخ ظهورهم لتركه فما يزيدهم هذا إلا تمسكًا وقد كان.

(22) أخبر الله رسوله أنه سيرده إلى معاد أي مكة، ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ [القصص: 85]، بعد أن خرج منها مهاجرًا بدينه إلى المدينة وقد تم.

(23) وأخبره أنه سيدخل المسجد الحرام وصحابته محلقين رؤوسهم ومقصرين وقد تم ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ﴾ [الفتح: 27].

(24) وأخبره أنه بعد دخول المسجد الحرام سيكون فتح آخر وهو فتح خيبر وقد تم ﴿فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾﴾ [الفتح: 27].

---

(1) رواه مسلم.
(2) رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما.
(3) الجواب الصحيح، 2/ 81.

(25) أخبر الله تعالى أنه سوف يغني قريشًا وقد تم ﴿فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ [التوبة: 28].

(26) تحدى القرآن اليهود أن يتمنوا الموت بأن يقولوا نحن نتمنى الموت، فخافوا لأنهم يعلمون أن من تمنى الموت في تلك الساعة فهو حتمًا سيموت، مع أن التحدى لو أجابوا له وظلوا أحياء، لسقطت الدعوة قال ابن عباس لو تمنى اليهود الموت لماتوا.. فما تمنوه على حرصهم الشديد على تكذيبه: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٩٥﴾﴾ [البقرة: 94 - 95].

(27) أخبر القرآن أن الوليد بن المغيره سيموت على الكفر وسيصلى سقر، وقد كان ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾﴾ [المدثر: 26].

(28) وأخبر أنه - الوليد ابن المغيرة- رُزق ببنين كثيرين ويطمع في الزيادة لكن كلا ﴿كَلَّا ۖ إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾﴾ [المدثر: 16]، ولو رُزق ببنين آخرين، أو أسلم لانتهت الدعوة..!!

(29) تحدث القرآن الكريم عن مثيل للفلك المشحون ﴿وَآيَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [يس: 41 - 42].

فما هو مثيله إن لم تكن نبوءة عن وسائل أُخرى للمواصلات؟

(30) يقول تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الذاريات: 47].

والسماء هنا هي مادة الأفلاك وما حولها من فضاء... فهل الفضاء مبني عند علماء الفيزياء؟؟؟؟ في عام 1916 لخص اينشتاين نظريته العامة في

بحث نشر في مجلة annalen derphysic بيّن في أقل من 60 صفحة أن الفضاء ليس مجرد ستار تتجلى عليه الحوادث، بل هو نفسه بنية أساسيه تتأثر بطاقة الأجسام التي يحويها وبكتلتها، وقد علق ماكس برون على النظرية بقوله: « تبدو لي النظرية أنها أعظم إنجازًا حققه الفكر البشري عن الطبيعة، وأنها أعظم تركيب مذهل يجمع بين النظرة الفلسفية الثاقبة والإلهام الفيزيائي والمهارة الرياضية».

أما باقي الآية الكريمة ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ فمعجزة سارت بها الركبان، فمن أهم الاكتشافات الفلكية فى القرن الماضى هو توسع الكون، ولا نحتاج لعناء كبير فى فهم مدلول ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ و التى تفيد التوسع الكونى Expanding universe منذ خُلق الكون وحتى وقتنا هذا، وهذا ما بيّنه العلم وأصبح من أهم بل هو أهم منجزات الفيزياء في القرن الماضي حيث عن طريق إثبات توسع الكون تم إثبات بداية الوجود، وتم اكتشاف الثابت الكوني.

(31) طبقا للمبدأ البوكيلي Bucaillism - وهو مبدأ علمي محايد - القرآن هو الكتاب المقدس الوحيد الذي لا يوجد به خطأ علمي واحد رغم أن عمره 1400 عام، وهذا مستحيل علميًّا؛ لأنه طبقاً لنفس المبدأ فقد كتب أرسطو ثلاثة كتب علمية في الطبيعيات.. في السماوات.. في الأرض هذه الكتب الثلاثة لا توجد اليوم فيها جملة واحدة صحيحة علميًّا.

(32) كيف يتنبأ النبي ﷺ ويخبر بشهادة عمرَ وعثمانَ وعلي وطلحة والزبير، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أجمعين، وأن موتهم سيكون شهادة، وأنهم لن يموتوا على فُرُشِهم أو سواه مما يموت به الناس.

وقد صعد رسول الله ﷺ على حراء، هو وأبو بكرٍ وعمرُ وعثمانُ

وعليُ وطلحةُ والزبيرُ، فتحركت الصخرة، فقال رسول الله ﷺ: «اهدأ، فما عليك إلا نبيٌّ أو صِدِّيقٌ أو شهيد»[1].

فشهد ﷺ لنفسه بالنبوة، ولأبي بكر بالصديقية، ولعثمانَ وعليٍّ وطلحةَ بالشهادة وقد كان.

وذات يوم مرِض علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرضاً شديداً، فزاره أبو سنان الدؤلي، فقال له: لقد تخوفنا عليك يا أمير المؤمنين في شكواك هذه.

فقال له علي: لكني والله ما تخوفتُ على نفسي منه؛ لأني سمعتُ رسولَ الله ﷺ الصادقَ المصدوقَ يقول: «إنك ستُضرب ضربةً ها هنا، وضربةً ها هنا - وأشار إلى صُدغَيه - فيسيل دمها حتى تختضب لحيتُك، ويكونَ صاحبها أشقاها، كما كان عاقر الناقة أشقى ثمود»[2].

(34) وتقبل فاطمة بنت النبي ﷺ تمشي، فيقول لها أبوها: «مرحباً بابنتي». تقول أم المؤمنين عائشة: ثم أجلسها عن يمينه أو عن شماله، ثم أسرَّ إليها حديثاً، فبكت، ثم أسرَّ إليها حديثاً فضحكتْ.

فقلت لها: ما رأيتُ كاليوم فرحاً أقرب من حزن، فسألتُها عما قال؟ فقالت: ما كنت لأُفشي سِرَّ رسول الله ﷺ.

فلما قُبِض النبيُّ ﷺ سألتُها، فقالت: أسرَّ إليَّ: «إن جبريل كان يعارضني القرآن كلَ سنة مرة، وإنه عارضني العام مرتين، ولا أراه إلا حضر أجلي، وإنك أولُ أهلِ بيتي لحاقاً بي، فبكيتُ، فقال ﷺ: أما ترضَينَ أن تكوني سيدةَ نساء أهل الجنة أو نساءِ المؤمنين». فضحكتُ لذلك[3].

---

(1) رواه مسلم، 2714.
(2) رواه الحاكم (3/ 122)، والطبراني في الكبير ح (173). قال الهيثمي: إسناده حسن.
(3) هذا الحديث في أعلى درجات الصحة رواه البخاري ح (3624)، ومسلم ح (2450).

(35) وأيضاً، من دلائل نبوته وأعلام صدقه ﷺ : إخبارُه أم المؤمنين ميمونةَ أنها لا تموت في مكة، فقد مرضت ميمونة في مكة، واشتد عليها المرض، فقالت لمن عندَها: أخرجوني من مكة، فإني لا أموتُ بها، إن رسول الله ﷺ أخبرني أني لا أموت بمكة.

فحملوها حتى أتوا بها سَرِف، إلى الشجرة التي بنى بها رسول الله ﷺ تحتها في موضع القَبة، فماتت هناك ودفنت، وقبرها معروف اليوم في ضاحية النوارية بمكة، فكانت وفاتُها خارجاً عن مكة، كما أخبر الذي لا ينطق عن الهوى.

(36) ومن هؤلاء الذين تحدث النبي ﷺ عن وفاتهم، سِبطُه الحسين بن علي ريحانة أهل الجنة، فقد قال النبي ﷺ لإحدى أزواجه: «لقد دخل عليّ البيت ملَك لم يدخل عليّ قبلَها فقال لي: إن ابنك هذا حسين مقتول، وإن شئت أريتُك من تربة الأرض التي يقتل بها. قال: فأخرج تربة حمراء»[1].

(37) ومن دلائل نبوته ﷺ إخبارُه عن موت النجاشي في أرض الحبشة في يوم وفاته، وهذا خبر تحمله الركبان يومذاك في شهر، يقول أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «نعى رسول الله ﷺ النجاشي في اليوم الذي مات فيه، خرج إلى المصلى، فصف بهم، وكبر أربعاً»[2].

(38) وفي اليوم السابق ليوم بدر، تفقد رسول الله أرض المعركة المرتقبة، وجعل يشير إلى مواضع مقتل المشركين فيها، ويقول: «هذا مصرع فلان».

قال أنس: ويضع يده على الأرض هاهنا هاهنا. فما ماطَ أحدهم عن موضع يد رسول الله ﷺ[3].

---

(1) السلسلة الصحيحة 882.

(2) رواه البخاري ح 1254.

(3) رواه مسلم ح 1779.

(39) ومثله في الدلالة على النبوة إخباره ﷺ عن سوء خاتمة رجل قاتل مع المسلمين فأحسن البلاء والجلاد، يقول أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: شهدنا مع رسول الله ﷺ فقال لرجل ممن يدعي الإسلام: «هذا من أهل النار».

يقول أبو هريرة: فلما حضر القتال قاتل الرجل قتالاً شديداً، فأصابته جراحة، فقيل: يا رسول الله، الذي قلتَ له: إنه من أهل النار؛ فإنه قد قاتل اليوم قتالاً شديداً، وقد مات! فقال النبي ﷺ: «إلى النار».

قال أبو هريرة: فكاد بعض الناس أن يرتاب. فبينما هم على ذلك إذ قيل: إنه لم يمت، ولكن به جراحاً شديداً.

فلما كان من الليل لم يصبر على الجراح، فقتل نفسه، فأُخبر النبي ﷺ بذلك، فقال: «الله أكبر، أشهد أني عبدُ الله ورسولُه». ثم أمر بلالاً فنادى بالناس: «إنه لا يدخلُ الجنة إلا نفسٌ مسلمة، وإن الله ليؤيد هذا الدين بالرجلِ الفاجر»[1].

(40) ثبت في البخاري ومسلم عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن الماء نبع من بين أصابعه الشريفة حتى توضأ منه زهاء ثلاثمائة رجل.. وهذا حديث في أعلى درجات الصحة، شهده جمعٌ غفير من الصحابة.

(41) ردّ عين قتادة بعد تدليها على وجنته؛ فردها ﷺ بيده الشريفة فبرئت على الفور وكانت أحسن من قبل.. والصحابي الذي كُسِرَت ساقه فبرئت بمسح النبي ﷺ عليها.. وبصقه ﷺ في عين علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فبرئت في الحال والأحاديث كلها في الصحيحين.

(42) حديث الرجل الذي ارتدّ على عهد النبي ﷺ فقال ﷺ: «إن الأرض لا تقبله». فمات الرجل فكلما دفنه الناس لفِظته الأرض ولم تقبله.

---

(1) رواه البخاري ح 3602.

(43) تكثير القليل من الطعام بين يديه ﷺ حتى كان يأكل منه الجيش، وتبقى منه بقية والأحاديث في ذلك في الصحيحين وغيرهما، و أشهرها حديث جابر بن عبد الله في غزوة الخندق.

(44) حديث عبد الله بن مسعود: «كنت أمشي في مكة فأرى حجراً أعرفه ما مرَّ عليه - رسول الله ﷺ- مرة إلا وسمعته بأذني يقول: السلام عليك يا رسول الله». وهذا الحجر العجيب قال عنه رسول الله ﷺ: «إني لأعرف حجرًا بمكة كان يسلم عليَّ قبل أن أبعث إني لأعرفه الآن». والحديث رواه مسلم من طريق جابر بن سمرة.

(45) أما إخباره ﷺ بالمُغيبات فأكثر من أن يُحصى، منه إخباره عن عير قريش ضمن تحدي أهل مكة له لإثبات معجزة الإسراء والمعراج، ومنه إخباره بقتل أمية بن خلف.. وكلها أحاديث في أعلى درجات الصحة.

(46) أما إجابة الدعاء في الحال فالأحاديث في الباب كثيرة ومنها الرجل الذي رفض الأكل بيده اليمنى محتجًا أنه لا يستطيع، فقال ﷺ: «لا استطعت». فما رفعه إلى فيه، والحديث رواه مسلم. وحديث نزول المطر في تبوك وغيره.

(47) بل إن أحاديث تسبيح الحصى بين يديه الكريمتين وحنين الجذع وعصمته من الناس - كما في غزوة ذات الرقاع - وشرب 1400 من بئر لا ماءَ فيه في أعلى درجات الصحة.

(48) قال البخاري رحمه الله: حدثنا أبو اليمان أخبرنا شعيب حدثنا أبو الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن رسول الله ﷺ قال: «إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده، وإذا هلك قيصر فلا قيصر بعده، والذي نفسي بيده لتنفقن كنوزهما في سبيل الله». فأي دليل أعظم من هذا الدليل على أن النبي ﷺ يحدث بالوحي الذي لا يعلمه إلا الله، فإنه لم يكن يتصور

أحد أن دولة الأكاسرة التي استمرت نحو ألف عام يكون سقوطها وزوالها بأيدي المسلمين، وأن الأكاسرة لا يستطيعون، وإلى قيام الساعة أن يعيدوا ملكهم مرةً ثانية.

(49) والحديث الآخر: بينا النبي ﷺ يخطب جاء الحسن فقال النبي ﷺ: «ابني هذا سيد، ولعل الله أن يصلح به بين فئتين من المسلمين»[1].

وسُمي العام الذي أصلح الله فيه بين المسلمين على يد الحسن بن علي عام الجماعة - 40 هجرية-، فكيف لرجل أن يرهن دعوته كلها بمصير طفل صغير؟ ثم تتحقق النبوءة على نحوٍ عجيب، إلا أن يكون ذلك وحيٌ يوحى!

(50) لماذا مع الترهيب لا يتوقف رسول الله ﷺ عن دعوته؟ فضربه الصبيان في الطائف حتى أُدمي رأسه ورجله الشريفة، ودخل مكة في جوار مطعم بن عدي ثم رد جواره، ورُمي أمعاء الجزور عليه، وعانى وأتباعه الجوع والحصار لمدة ثلاث سنوات في شعاب مكة حتى أنه كان يربط الحجرين على بطنه من شدة الجوع، حتى قال ﷺ -بأبي وأمي ونفسي-: «لقد أُخفت في الله وما يخاف أحد، ولقد أوذيت في الله وما يؤذى أحد، ولقد أتت علي ثلاثون من بين ليلة ويوم، وما لي ولبلال طعام يأكله ذو كبد إلا شيء يواريه إبط بلال»[2].

كل هذا يجري في الوقت الذي يعرض عليه الكفار الرياسة والمال، لا مقابل أن يتنازل عن دعوته، بل مقابل أن يتركهم وآلهتهم وألا يُسفه عقيدتهم! لكن دعوته كانت وحيٌ يوحى ليست مِن قِبل نفسه حتى يتركها لأفضل العروض المتاحة!

هذه كانت حلقة من آلاف الحلقات من أدلة نبوته ﷺ.

(1) رواه البخاري ح 6692.
(2) رواه الترمذي.

وإذا أكثرت النظر في هذا الباب يحصل لك العلم الضروري بكونه ﷺ على أعلى درجات النبوة.

وفي النهاية اعلم أن:

في الكنيسة لا يحل للرجل أن يتزوج إلا بإذن رجال الأكليريوس -رجال الدين-، ولا يدخل المسيحية إلا بتعميد الإكليريوس له، بل الرضيع لا يحسب مسيحيًا إلا بعد التعميد.

ولابد من اعتراف المرء أمام الكاهن بكل مصيبة.

لكن الإسلام لا توجد فيه واسطة بين العبد وربه، وينعقد الزواج بشهادة أي رجلين، والتوبة إلى الله لا يتدخل فيها أحد، والصلاة تكون في أي مكانٍ طاهر.

بل لقد حارب الاسلام منذ أول لحظةٍ كل صور التدخل والوساطة وحَجب العقل.

فالإسلام يحرر العقل من نير وسخافات الكهان، ويحارب الإسلام كل صور الولاية على العقل سواءً عبر رجال دين أو أضرحة تُقدم لها الذبائح.

أيضًا الإسلام يحارب كل صور حجب العقل بالأشياء المعنوية كالسحر والطلاسم.

أو بالعلوم الزائفة كالطالع وقراءة الأبراج.

وكذلك يحارب الإسلام حجب العقل بالأشياء المادية كالمسكرات والمخدرات!

فالإسلام هو حرية العقل وانفتاقه من غلول الحجب التي يفرضها الكهنة والسحرة وبائعو الأوهام!

ولقد وصلت العبودية في ظل الكنيسة في الغرب إلى صورٍ فجة؛ فكان العبيد يؤجَّرون في الاراضي بلا مقابل على ملء بطونهم، ولم يكن لدمائهم قيمة، فقتلهم أو تعذيبهم كان حقًّا للأسياد، ولم يكن العبد يتزوج إلا بعد أن يفض السيد بكارة العروس.

فجاء الإسلام وحرّر البشر وأصيب المسلمون بعمى ألوان -على حد تعبير مالكوم إكس رحمه الله- فلا يفرقون بين أبيض ولا أسود، وصارت وصية الإسلام الخالدة هي اتباع تعاليم الأنبياء بعيدًا عن الكهنة والمحرفين.

فبعد كل هذا عندما يأتي في إعلامنا العربي مَن يفترض في علماء المسلمين أنهم كهنة إكليريوس حتى يُسقط قيمة العالم من نظر النشء، ويُشبِّه علماء المسلمين بكهنة إكليريوس الغرب ورجال دين الكنيسة فهو حتمًا كاذب مخادع. فكلمة رجل دين لا وجود لها في قواميس الإسلام قاطبةً، فهذا هو المكر والدهاء بعينه.

فلا رجال دين عندنا ولا إكليريوس في مساجدنا وخلافتنا لم تكن كهانة.

فكل مسلم هو رجل دين، ولا فرق بين شيخ الأزهر أو المفتي وأي مسلمٍ عامي، فالكل أمام الشرع سواء، فليس عندنا طبقة مفرزة، ولا كهنة ممسوحين! بل كل مسلمٍ مكلَّف بدينه ولا واسطة بينه وبين خالقه سبحانه.

فهذا المكر الذي يمارسه بعض الإعلاميين، ومحاولة إسقاط القامات من أجل إثارة الفتنة وتنشئة الشباب على كراهية المصلحين والعلماء والمجتهدين لهو خبث لا يفرح به إلا جذوة إلحادٍ ناشئ في بلادنا يريد أن يقتلع الأخضر واليابس.

فمساواة الإسلام بغيره خطأ كبير، صادر عن جهلٍ بحقيقته، وصلته بالفطرة الصحيحة، والقضاء الكوني الذي أخذه الله على نفسه بثبوته إلى قيام الساعة، ولكنه يتحول من حياضٍ إلى حياض، ومن ساحةٍ إلى ساحة، ومن حملةٍ إلى حملة، بحسب تغير بواطن حامليه، وتغير مقاصدهم، وتنكرهم لهم وانصرافهم عنه.

فاللهم استعملنا ولا تستبدلنا وانصرنا على مكر أعدائنا

اللهم آمين

خاتمة للشباب الصغار

حقيقة الإلحاد لمن تدبره أسخف من أن يحصر له طالب علم نفسه، وكهنة الملحدين العرب كافين تمامًا لتنفيرك من المذهب، وإثبات أنه فلسفة شيطان لا أكثر!

لكن كما أخبرنا الحبيب ﷺ فإنه ستكثر الفتن وتزداد في آخر الزمان، وتظهر الردة الكبرى، ويصبح الرجل فيها مسلماً ويمسي كافرًا، ويمسي مؤمناً، ويصبح كافراً، كما في، وقد أوصى النبي ﷺ صراحة بالمبادرة بالأعمال الصالحة؛ لأنها لها وِجاء -وقاية- من الفتن والشبهات والشهوات، فلا تدخل شبهة في قلب عبد إلا بمعصية ولا ترتفع إلا بفضل من الله وطاعة، فقال ﷺ: «بادروا بالأعمال فتنًا كقطع الليل المظلم...»[1].

فستزداد قوة الفتن باقتراب الزمان ليس لقوتها في ذاتها ولكن لضعف مناعة المتصدين لها، وليس أحدٌ أضعف مناعةً من الحَدث-صغير السن- فالحدث تأسِره الفِكرة وتستهويه الغرائب ولا يميل للتعمق، ويؤخذ لُبه مع أول خاطرة ويكلُّ سريعًا عن إعمال عقله وتمحيص ما يقرأ؛ فطِعام الكبار سُمُّ الصغار.

فعندما يطالع الحدث بعض الشبهات للوهلة الأولى، فإنه ينكر ويغضب سريعًا لكن سرعان ما يعتاد إلى أن يُدمن ويلتذّ، وبعدها ومع الوقت يصير قلبه كالإسفنجة يتشرب لكل شبهة.

---

(1) صحيح مسلم، رقم (114).

من أجل ذلك حذَّر السلف - عليهم الرضوان- مِن مجالسة أهل البدع ومطالعة كتبهم، ونهى السلف عن اقتراب البحر لمن لا يعرف السباحة.

قال أبو قلابه - رحمه الله-: «لا تجالسوهم: أي أصحاب البدع، ولا تخالطوهم.. فإني لا آمن أن يفسدوكم أو يلبسوا عليكم كثيرًا مما تعرفون».

قال ابن قدامه- رحمه الله-: «كان السلف ينهون عن مجالسة أهل البدع والنظر في كتبهم والاستماع الى كلامهم».

وقال أبو عثمان الصابوني بعد ذكر أهل البدع: «ويرون صَون آذانهم عن سماع أباطيلهم التي إذا مرت بالآذان وقرَّت فى القلوب ضرت وجَرَّت إليها من الوساوس والخطرات الفاسده ما جَرَّت».

قال الذهبي- رحمه الله- فى ترجمة ابن عقيل حيث نقل عنه قوله: «وكان أصحابنا الحنابلة يريدون مِنِّي هجران جماعة من العلماء، وكان ذلك يحرمني علمًا نافعًا». فعلق الذهبي بقوله: «كانوا ينهونه عن مجالسة المعتزلة فيأبى حتى وقع فى حبائلهم، وتجسر على تأويل النصوص». نسأل الله السلامة.

قال سفيان الثوري- رحمه الله-: «من سمع ببدعة فلا يحكها لجلسائه.. لا يُلقيها فى قلوبهم».

أوردها الذهبى وعلق عليها بقوله: «أكثر أئمة السلف على هذا التحذير يرون أن القلوب ضعيفة والشبه خطافة».

فالحدث الذي زاغت عينه وتعلق قلبه بالشبهة قلَّ أن يرجع في ساعته

□□□

فنصيحتي لكل شابٍ مقبلٍ على طلب العلم: لا تنشغل إلا بما ينفعك، واضبط معارفك وبديهياتك العقلية، فلا تجعل من افتراضك بديلاً لليقين،

ومن ظنك بديلاً للبديهة، فما أكثر الافتراضات والظنون، فهذا طريق يزينه الشيطان فهو سوق الشيطان الوحيد وقِوام بضاعته، وعليه ينصب رايته!

لكن ما علاج الوساوس التي تجتاح عقول بعض الشباب الصغار؟

في البداية عليك أن تعلم أخي الحبيب أن الوساوس شيء والشبهات والشكوك شيء آخر تمامًا.

ولذا فمحاولات البحث عن اليقين تزيد الوساوس؛ لأن القضية ليست شكوك، وإنما وساوس وشتّان بين الأمرين.

فالوسواس هو فروض عقلية طارئة -مجازات عقلية مثل: هل أنا في حلم؟ لماذا لا نكون كلنا على خطأ؟- وهنا الوساوس في الأصل ليس لها سند معرفي أو منطقي، ولذا في الغالب يخجل صاحبها حتى من أن يبوح بها حتى لا يصبح مثار سخرية من المحيطين به.

أما الشكوك فهي توجيهات مرجوحة لنصوص دينية تعتور العقل البشري ويحاول أن يجد لها ردًّا، فما أن يجد التوجيه الراجح للنص الديني حتى يطمئن قلبه ويذهب ما به من سقم، وهنا صاحب الشك يلزمه أن يبحث عن خبيرٍ في شبهته حتى تزول ولا يبقى لها أثر، ولذا قال الله تعالى في شأن هؤلاء: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾﴾ [الفرقان: 59].

وقد يزول الشك مع الوقت، فترتفع الشبهة لمجرد الطاعة-حتى دون أن يتجشم لها ردًّا-، فالأصل الذي نُقر به أنه: «لا تستقر شبهة في قلب عبد إلا بمعصية، ولا ترتفع إلا بطاعة». لكن من فضل الله تعالى أنه يعفو عن كثير ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾﴾ [الشورى: 30].

لكن قد يعرض هنا سؤال وهو: لماذا الشبهة من الأساس؟

الجواب: نحن في عالم اختباري تكليفي ومن تتمة الاختبار أن يوجد المُحكم والمُتشابه، قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿٥٢﴾ ﴾ [الحج: 52].

وتفسير قوله تعالى: (إذا تمنى): أي: تلا آيات الله، فالتمني في اللغة هو القراءة والتلاوة.

فما جاء رسول ولا نبي ثم تلا على قومه الآيات المُرسل بها للدعوة إلى التوحيد، ونبذ ما هم عليه من الكفر، إلا ألقى الشيطان شُبهًا وتخيلات باطلة، واحتمالات فاسدة في الآيات المتلوة لإغوائهم وحملهم على مجادلته بالباطل، كما قال تعالى: ﴿ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ لِيُجَٰدِلُوكُمۡۖ وَإِنۡ أَطَعۡتُمُوهُمۡ إِنَّكُمۡ لَمُشۡرِكُونَ ﴿١٢١﴾ ﴾ [الأنعام: 121].

وقال سبحانه: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا شَيَٰطِينَ ٱلۡإِنسِ وَٱلۡجِنِّ يُوحِي بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ زُخۡرُفَ ٱلۡقَوۡلِ غُرُورٗاۚ وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُۖ فَذَرۡهُمۡ وَمَا يَفۡتَرُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾ [الأنعام: 112].

وقد قال الكفار حين نزل قوله تعالى: ﴿ حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ ﴾ [المائدة: 3]، أن محمدًا ﷺ يُحل ذبيحة نفسه، ويُحرم ذبيحة الله، باعتبار أن الميتة ذبيحة الله، ومع سخافة دعواهم وأن الكل ذبائح شاء الله ذبحها أو موتها، إلا أن هذا نوع من السفسطة والجدال الباطل!

وهنا ينسخ الله ما يلقي الشيطان أي يزيل هذه الأوهام والفروض والسفسطات من القلوب المؤمنة حيث يَقر فيها ما يبطل هذه الهلاوس فلا

يبقى أثر للشك فتؤمن بما جاء من عند الله فيُحكم الله آياته بحيث لا تقبل الرد، ويصبح ما يُلقي الشيطان من تلك السفسطات فتنة للذين في قلوبهم مرض.

أما الوسواس فهو على العكس من ذلك تمامًا، فالوساوس كما قلنا مجرد افتراضات طارئة يطرحها العقل، لا علاقة لها ببنيةٍ معرفيةٍ مُعينة، ولا بتحصيلٍ فكري خاطئ ولا باطلاعٍ على مواقع تثير الشبهات، وإن كانت الأمور السابقة قد تزيد من حدة الوساوس ويجد العقل فيها ما يبرر وساوسه وقد تنتقل الوساوس في مرحلةٍ ما إلى شكوك وهنا تكون المعالجة بحسب ما ذكرنا سابقًا، أما أن تظل الوساوس كما هي وساوس، ويظل صاحبها حائرًا منكفئًا على نفسه مكتئبًا بها، فهذه من مراتب الإيمان ودلائل نقاء القلب وحب الطاعة وكراهية الكفر بعد الإيمان!

فقد روى مسلمٌ في «صحيحه» عن أبي هريرة، قال: جاء ناس من أصحاب النبي ﷺ فسألوه: إنا نجد في أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به؟ قال: «وقد وجدتموه؟». قالوا: نعم. قال: «ذاك صريح الإيمان».

فالوساوس بلفظ حديث النبي ﷺ هي صريح الإيمان؛ لأن قلبك ما زال غضًا طريًا بالإيمان، يؤرقه ما يشوب هذا الإيمان، ويزعجه ما يعكر صفوه!

فاستعظام الوساوس وشدة الخوف منها، ومن النطق بها، فضلاً عن اعتقادها، إنما يكون لمن استكمل الإيمان استكمالاً محققاً وانتفت عنه الريبة والشكوك.

والوساوس هي من جملة ابتلاءات العبد المؤمن فهي امتحان وصراع بين الحق والباطل حتى يتبين طالب الهدى من غيره وحتى يتبين الصادق من

الكاذب والمؤمن من المنافق؛ كما قال سبحانه: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ ۝٣﴾ [العنكبوت: 1 - 3].

لكن ما هو العلاج؟

روى الإمام مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا يزال الناس يتساءلون حتى يقال: هذا خلق اللهُ الخلقَ، فمن خلق الله؟ فمن وجد من ذلك شيئا فليقل آمنت بالله».**

وفي رواية زاد: **«فليقل آمنت بالله ورسله»**.

وفي روايةٍ أخرى: **«فإذا بلغ ذلك فليستعذ بالله ولينته»**.

وكلها تعاليم نبوية شريفة، فإذا جاءك الوسواس فاستعذ بالله، وقل: آمنت بالله ورسله، واقرأ سورة الإخلاص - كما في رواية أبي داود أنها علاج للوسواس-: ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمۡ يَلِدۡ وَلَمۡ يُولَدۡ ۝٣ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ ۝٤﴾ [الإخلاص].

وأكثِر من قراءة هذه الآية: ﴿هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ۝٣﴾ [الحديد: 3].

وقل كلما جاءك وسواس: **«الله، الله ربي لا شريك له»**. فقد كان رسول الله ﷺ إذا راعه شيء قال: **«الله الله ربي لا شريك له»**.

وعليك أخي الحبيب أن تعلم أن الوسواس مرتبط بفترةٍ زمنيةٍ معينة ويزول ذاتيًا، وقلّ من لم يُصب به في فترةٍ من حياته، فانشغل بما ينفعك، وأكثر من الدعاء وصِدق اللجوء إلى باريك، واجعل من وسواسك دافعًا

لتعلمك العلم الشرعي وانخرط في الدعوة إلى الله؛ ففيها بركة زوال الوسواس والانشغال عنه، وتحبيب الناس في الطاعة ينير قلبك!

نسأل الله أن يهدينا وإياك لما اختُلف فيه من الحق بإذنه

وقد كان النبي ﷺ يدعو كل ليلةٍ في قيام الليل بأن يهديه الله لما اختُلف فيه من الحق بإذنه، وما أحوجنا هذه الأيام إلى هذا الدعاء خاصةً مع كثرة الفتن، وقلة العلم.

ففي حديث أبي سلمة بن عبد الرحمن بن عوف قال: سألت عائشة أم المؤمنين: بأي شيءٍ كان نبي الله ﷺ يفتتح صلاته إذا قام من الليل؟ قالت: كان إذا قام من الليل افتتح صلاته: «اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل فاطر السماوات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك؛ إنك تهدي من تشاء إلى صراطٍ مستقيم»[1].

اللهم آمين

فاحرص على هذا الدعاء دومًا!

---

(1) سورة العنكبوت، الآية: (1 - 3).

فهرس الموضوعات

الموضوعات | **صفحة**